نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية

التفسير الموضوعي

التمكين الاقتصادي

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

5

KIE Publication

FREE EDITION
كتاب مجاني لايباع
NOT FOR SALE

نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية

التفسير الموضوعي

التمكين الاقتصادي

د. سامر مظهر قنطقجي

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

تقديم

بدأت مسيرة كتابنا نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – التفسير التحليلي بجزأيه في عام ٢٠١٧ وتم إصداره في عام ٢٠١٨ .

ثم بدأت مسيرة كتابنا نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – التفسير الموضوعي في نهاية عام ٢٠٢١ ونجهز لإصداره في منتصف عام ٢٠٢٥ في رأس السنة الهجرية ١٤٤٧ بعون الله تعالى .

حماة (حماها الله) ١ محرم ١٤٤٧ هـ الموافق ٢٦ حزيران / يونيو ٢٠٢٥

المؤلف

مقدمة عامة

أشادت الحضارة الإسلامية بناء حضارة عالمية سادت بقاع الأرض يمنة ويسرة شمالا وجنوبا لأكثر من ١٠٠٠ عام بنجاح على أقل تقدير، ويشهد العالم أن تلك الحضارة بدأت في أرض العرب حيث لم يكن فيها شيء يذكر سوى قبائل متناحرة، فلما نزلت رسالة الإسلام على أفضل خلق الله تعالى المختار محمد صلى الله عليه وسلم، بدأت رياح التغيير تطال كل شبر من أرض العرب، ثم توسعت رقعتها لتشمل أكبر حضارة عرفها التاريخ زمانًا ومكانًا.

وإن عامود تلك الرسالة هو كتاب الله تعالى القرآن الكريم، ففيه من كل مثل، قال تعالى: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا** (الكهف: ٥٤).

وبعد إصدارنا للتفسير التحليلي لآيات فيها قواعد وإشارات اقتصادية دالة، انتقلنا في هذا الإصدار لإتمام العمل بإلحاق التفسير التحليلي بالتفسير الموضوعي، فكان الجزء الثالث حول المخازن وسلاسل التوريد كما جاءت في كتاب الله تعالى حيث تتجسد اللوجستيات بكل معانيها في آيات كريمات دالات. ثم تناولنا في الجزء الرابع التعليم المهني فتتبعنا أكثر

من ٤٥٠ مهنة ذكرت في كتاب الله تعالى، وتطبيقا لقوله تعالى: **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** (البقرة: ٢٨٢)، فإن أي مهني يغلب عليه التقليد والمحاكاة بمجرد أن يسمع وصفًا أو يرى أنموذجًا، وهكذا هو نهج كتاب الله مع أمثال أولئك، يُعلمهم أن يفعلوا وأن يعملوا وأن يصنعوا، وهذا من خصائص وصفات الربوبية.

وسنتناول هذه المواضيع على أجزاء ثلاثة هي: التمكين الاقتصادي ، ثم إدارة الاقتصاد، ثم النهوض الاقتصادي، وسيتوزع كل جزء إلى فصول ومباحث، ثم تكون الخاتمة والنتائج.

وبرأينا، تمثل هذه الأجزاء الحلول الإسلامية لإقامة أي اقتصاد ناشئ، أو اقتصاد يسعى للنهوض بعد كبوة أصابته، وهو موجه للمسلمين وحكامهم عامة، وكذلك لغيرهم، فهذه حكمة فيها النفع والخير لكل بني البشر جميعهم دون اعتبارٍ لدينٍ أو لونٍ.

لقد[1] أسهمت المدنيّة المادّيّة الغربيّة بطوير اقتصادٍ رياضيٍّ وقياسيٍّ مذهلٍ أدّى إلى تكوين رجالٍ متمرّسين، وشركات عملاقة ضخمة، في عالم الأعمال يقومون بتعظيم المكاسب، وضبط أو خفض التكاليف إلى أدنى حدودها؛ لكنّ تلك المدنيّة المادّية تجاوزت البعد الإنسانيّ، فكان لدينا

[1] مقتطف بعضها من مقدمة كتابي منهج التغيير في كلمة رئيس التحرير، ط ١، ط ٢ الالكترونية، ٢٠١٩-٢٠٢٢، رابط.

(اقتصاديون أشاوس أقرب للمفترسين منهم إلى البشر)، ثمّ تنبّه عقلاء تلك المدنيّة وحكماؤها إلى هذا اللغط الكبير الذي هو أقرب للفاحشة منه للخطأ. عندئذٍ حاولتْ تلك المدنيّة المادية إعادة (تنظيم وضبط) مفاهيم الاقتصاد الاجتماعيّ؛ من خلال (تحميل عناصر السوق مسؤوليّاتهم الإنسانية والاجتماعية)؛ فخاطبتهم بشكلٍ أو بآخر لمحاولة تحقيق مساهمةٍ اجتماعيةٍ قبل وقوع خطر إزالة مشاريعهم وأعمالهم؛ بسبب (الأذيّة) التي تحقّقها تلك المشاريع والأعمال في بيئتهم المحيطة، خشية تحوّل تلك البيئة الحاضنة إلى (ثائرين أو همجيّين) محاولين تحقيق مكاسب بطرقٍ (مشروعةٍ أو غير مشروعةٍ). وما (ثورة الأحياء الباريسيّة) المترامية ببعيدةٍ عن الأذهان، ولا يمكن تجاهل (فقراء نيويورك)، والأمثلة كثيرة وكثيرة في البلدان الأكثر تطوّراً كما هي الحال في ما هو أقلّ منها تطوّراً.

لقد أوجدتْ هذه المدنيّة المادّية (ذئابًا تنمّرتْ واستأسدتْ) وصار من الصّعب والعسير (إفهامها أو إقناعها) بضرورة أن تعتني بفقراء يجاورونها، أو بعمّالٍ محتاجين يخدمونها؛ فإنْ فعلوا فبمثابة عملٍ يرتجى منه أهدافٌ غير (مرئيّةٍ ولا منظورةٍ)؛ فكان عملها تحمّلاً لمسؤولية

اجتماعية فيها (الشّهرة، والمباهاة، والنّفاق) وعدم (الصّدق، والنزاهة، والإخلاص) .

أمّا شريعة الإسلام الحنيف التي نتبّنى وجْهتها في التغيير وتصحيح المسار (فيما فسد، وفيمن أفسد)؛ بسبب سلوكيّات بعض الناس أو أغلبيته؛ فقد دمجت البعدين (الإنسانيّ و الاجتماعيّ) ضمْن (مفاصلها وأركانها)كافّةً، فتربّى أفرادها على البعد الأخلاقيّ منذ نعومة أظفارهم، ولم يُتْركوا حتّى يستشروا فساداً، ثمّ يُجتهد لتصحيح ما أفسدوه؛ ففساد الأفراد أصعب تقويمًا من فساد المادّيات وأشقّ.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **علّموا أولادكم الصّلاة إذا بلغوا سبْعًا، واضْربوهمْ عليها إذا بلغوا عشْراً، وفرّقوا بينهم في المضاجع**؛ فالتربية عمومًا تبدأ منذ الصّغر بالتعلّم والتعليم، ثمّ بالمتابعة والزّجْر ببعض العقوبة؛ فذكر صلوات الله وسلامه عليه ما علينا فعله في السابعة من العمر، ثمّ في العاشرة؛ لكنّه لم يتابعْ! فماذا عسانا أنْ نفعل بمنْ لمْ يُصلِّ وهو في (العشرين أو الثلاثين) من عمره!؟

إنّ ممّا يستدلّ به من الحديث الشريف: أنّ وقت (التعلّم والاكتساب) يكون في الصّغر؛ فإنْ تجاوز الإنسان عمراً محدداً ولمْ يعلّمْه أبواه؛ فالزمن

معلّم من لا معلّم له، كما قال ابن خلدون: من لمْ يؤدّبْه والداه أدّبه الزّمان، فإنْ أبى الإنسان أن يستفيد من معلّميه ومربّيه في صغره؛ فعليه انتظار ضربات الزمن التي عادةً ما تكون مؤلمةً، فيعود من يعود لرشده بلطفٍ من الله، ويسقط من يسقط وهذا ما يسمّى بالتعلّم بالممارسة، وهو مكْلفٌ زمنًا ومالاً، ويعتمد على التجارب، وأيّ تجارب تحتمل الخطأ، والمجرّب عليهم بشرٌ أكرمهم الله عزّ وجلّ في هذه الحياة؛ ليحيوا (حياةً طيّبةً شريفةً كريمةً)، لا حياة (تبعيّةٍ، وذلٍّ، وقهْرٍ، واستعبادٍ).

لقد ربّى الإسلام العظيم الناس التربية السلوكية الرشيدة؛ سواءٌ أكانتْ (روحيّةً، أمْ مادّيّةً)؛ ليكون الواحد منهم (إنسانًا متوازنًا غير ذي عوجٍ)، وشملت التربية (الاجتماعية، والمادّيّة، والاقتصادية) بأنواعها وأشكالها كافّةً.

فمن تلك التربية:

- منع قتل الناس بعضهم بعضًا.
- منع قتل الحيوان (هدفًا وغرضًا وتسلّيًا).
- منْ وجد ما يعيق الطريق من (أذىً) أبعده عن طريق الناس.
- منعتْ أذيّة الشجر وحرقه؛ حتّى لو كان الوضع وضْع حربٍ؛ إلاّ لضرورة تقتضي ذلك وتقدّر بقدْرها.

- منع (تلويث الماء، وأذيّة الهواء) "المحافظة على بيئةٍ نظيفةٍ آمنةٍ" .
- منع الإنسان من (التبذير والإسراف) في استهلاك الموارد الطبيعية .
- منع الإنسان من (التقتير) أيضًا، والدّعوة للتوسّط بين ذلك .

كلّ ذلك يتعلّمه المسلم من (صغره ومهْده)؛ فتربية السلوك الاقتصادي في سنٍّ مبكرةٍ للأجيال الناشئة يساعد في إنشاء جيلٍ ذي (فكْرٍ، وفقْهٍ، وسلوكٍ) اقتصاديًا وماليًّا . وقد كانت الشريعة الإسلامية سبّاقةً في إرساء هذه (المبادئ الأصيلة والمثُل التربوية) الاقتصادية والمالية الراقية .

وممّا زاد في توازن الإنسان أنْ علّمتْه هذه الشريعة السّمحة (حبّ الخير) له ولغيره؛ بل زادتْ عليه بالإيثار؛ حيث يفضّل الإنسان غيره عن نفسه في بعض الأحيان حبًّا في الله تعالى، و ابتغاء مرضاته سبحانه، ودون أيّ مقابلٍ؛ أيّ: دون أيّ مصلحةٍ ترتجى من فعله؛ فإنْ راءى ونافق فقد (ذمّه وتوعّده) بالعقوبة الشديدة في الآخرة؛ فلا خير في فعلٍ يبدو جميلاً في ظاهره؛ لكنّ صاحبه غير مخلصٍ لله عزّ وجلّ حتّى لو كان ذلك الفعل علمًا ينتفع به، أو جهادًا تبذل فيه النفْس والروح، أو مالاً يبذل لغير وجْه الله سبحانه؛ بل فعل ليقال أنّ فاعله عالمٌ، مجاهدٌ، جوادٌ فيكون وسيلةً للشهرة، ولتحقيق مكاسب خفيّةٍ تبدو آثارها لاحقًا ومآلاً .

لكنْ ما نفْع هذا المنهج؟

إنّ شريعة الإسلام السمحة قد انتظم فقهها وحقّق انسجامًا جمعتْ هندسة بنائه بين (الأصالة والسّهولة، المتانة واليسر)؛ فحصرت المحرّمات في دائرةٍ واضحة المعالم، وجعلتْها ثوابت لا تخْرم، ثمّ أطلقت العنان لدائرة الابتكار في غيرها من دائرة المشروع؛ وبذلك فإنّ المتغيّرات – مهما تنوّعتْ بحسب احتياجات كلّ زمانٍ ومكانٍ – لها مرجعٌ أصيلٌ ثابتٌ لا تحيد عنه، وهذه الثوابت واضحة المعالم يمكن إدراكها وعدّها؛ فهي ليستْ غير متناهيةٍ، فما منع من اللحوم – رغم كثرتها وتوافرها – هو لحم وشحم (الميتة والخنزير)، وما منع من المشروبات هي (الخمور، والمسكرات، والمفتّرات) لما فيها من ضررٍ للنفسٍ البشرية. ومنع (الاحتكار) لما فيه من (ظلْمٍ للناس وضررٍ للمجتمع)، بينما يحقّ للدولة العادلة الرّشيدة أن تتدّخل في سياسة السّوق بحكْمةٍ ودرايةٍ ما يشترك به الناس جميعًا؛ لقوله صلّى الله عليه وسلّم: (**النّاس شركاء في ثلاثٍ: في الكلأ والماء والنّار**)، ويلاحظ أنّ رسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم ذكر الناس ولم يخصّ المسلمين بذلك، والأمثلة كثيرةٌ.

إذًا إنّ نفْع هذا المنهج أنْ لا يحيد بالناس عن الطريق القويم، فيفسدوا في الأرض فسادًا كبيرًا، فما فعل (الشيوعيون والاشتراكيون) بنظْرتهم المادّيّة المحدودة بأنْ قصروا المصلحة على الملكيّة العامّة فخرجوا من حياة الناس

غير مأسوفٍ عليهم بعد سبعين سنةٍ من الفساد والإفساد، وقابلهم الرأسماليون بمدارسهم القاصرة كنظام (الرّقّ والإقطاع والبورجوازية)، ثمّ الرأسمالية والرأسمالية المتوحّشة بالمحافظة على النظرة المادّيّة؛ لكنّهم قصروا المصلحة على الملكيّة الفردية، فما زالوا يذيقون العالم ويلات أزماتهم المؤلمة فيُفْقرون الناس، ويذيقونهم ألوان العذاب؛ فهذا البنك الدوليّ يرفع شعاره من أجل عالمٍ خالٍ من الفقر من عشرات السنين، وإذا بالفقر يستشري أكثر وأكثر؛ بلْ يستوطن البلدان الأكثر تطوّراً، فما نفع كلّ ذلك؟

إنّ الإنسان المكرّم سيعيش؛ بل سيَحيا مرّةً واحدةً في هذه الحياة؛ وإذ به يقع في براثن مجموعةٍ من المدّعين للفكر المستنير ومعهم مجموعةٌ من أصحاب المصالح ليعيش هذه الحياة (فقيراً محتاجًا مسكينًا) يحلم بوجبة طعامٍ، وبلباسٍ يكسو جسمه النحيل؛ ليقيه البرد والحرّ؛ بلْ أكثر الناس لا تجد ذلك.

لقد أضْحى الإنسان (الذي أكرمه الله تعالى وميّزه عن غيره من الخلْق بنعمة العقل) أسير تطبيقاتٍ مأخوذةٍ من لدن أفكار أناسٍ قاصري النظر – ولو ادّعو غير ذلك – فالزمن أثبت غباء الكثير منهم؛ فذاك (فكّر بمدينةٍ فاضلةٍ قسمت الناس إلى أفاضل وغيرهم من دونهم)، وذاك استعبد

الناس، وآخرون امتّصوا عرقهم ظلمًا وعدوانًا، وزرعوا الخوف فيهم؛ بل جاء متأخّروهم بنظرياتٍ عجيبة فتكلّموا عن الفوضى المنظّمة! وما يؤسف له أنّهم جرّبوا تلك النظرات البائسة على الناس وذراريهم فأجاعوهم ودمّروهم وأوجعوهم.

بينما شهد العالم حضارةً ذاع صيتها عدلاً لأكثر من عشرةِ قرونٍ؛ حيث رعت الغنم والذّئاب معًا، وسار الضّعفاء من الناس في الفيافي دونما خوفٍ أو تهديدٍ، وأخذ غير المسلم أدنى حقوقه من المسلم ابن الحاكم أمام الملأ والجميع دونما خوفٍ أو وجلٍ.

إنّها حضارةٌ ربّانية إنسانيةٌ أوقفت الضّرر بين الناس، وحقّقت العدل بالمساواة والإيثار لجميع الرعايا دون اعتبارٍ لدينٍ أو لونٍ، لذلك حقٌّ علينا أن نعيد للناس انتباههم ليرْشدوا ويعوا، فلا يبقوا مصرّين على الخطأ مكابرين عن الحقيقة؛ فالناس سواسيّةٌ كأسنان المشْط **(لا فضْل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلاّ بالتقوى والعمل الصالح)**، والتقْوى لا تكون إلاّ بنفع الناس بعضهم بعضًا (مساعدةً ومؤازرةً) على نوائب الدهر – لا ذئابًا مستأسدةً يأكل فيها القويّ حقّ الضعيف –.

إنّها دعوةٌ لأمّةٍ صالحةٍ متصالحةٍ، روى أبو سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (**لا قدّستْ أمّةٌ لا يعطى الضّعيف**

فيها حقّه غير متعْتعٍ)، والمتعتع هو الذي أتعبه قول مُماطله عن أداء حقّه وهو يقول له: هَلُمَّ وتعالَ، ولا يُعطيه شيئًا من حقّه؛ فلا بدّ من أخذ الحقّ من القويّ، وردّه على الضعيف دون مماطلةٍ. وبهذا عمل حكّام المسلمين العادلون وخلفاؤه من بعدهم؛ فمِمّا قاله أبو بكْرٍ الصّدّيق عند مبايعة الأمّة له بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى: (... والقويّ فيكمْ ضعيفٌ حتّى آخذ منه الحقّ إنْ شاء الله).

ولم يكنْ ذلك بين المسلمين فحسبْ؛ بل بينهم وبين جيْرانهم من الأفراد والدول؛ بل حتّى مع محيطهم البيئيّ من (أنهارٍ، وبحارٍ، ومحيطاتٍ، وجبالٍ، وأرضين، وحيواناتٍ، ونباتاتٍ...).

خطة العمل

لقد كان مجرد التفكير في هذا الموضوع أمرٌ جللٌ، ترددت كثيراً قبل الخوض فيه، ثم وجدت أن لا سبيل من الابتعاد عنه، شعرت بأنه تكليف، وما يزيدني في ذلك رؤى تتالت عليّ، ثم ضرورة إبراز هذا الأمر العظيم، ففيه نصرة لدين الله تعالى، وهذه هي مهمتي في هذه الحياة، وهذا تكليف أفتخر به وأعتز به رغم ما يكتنفه من صعوبات.

وقد دلت في الخطة وأجزائها وعناوينها مراراً وتكراراً، لشدة هذا العبء الذي أشعر به، وقد طلبت من ربي أن لا يقبضني إلا بعد أن أنهي هذا العمل، ليكون بيني وبينه عندما سيسألني عن علمي ماذا فعلت به، لعلي أنجو من وطأة هذا السؤال فأكون كما قال الفاروق عمر رضي الله عنه: لا لي ولا علي، فأخرج من هذه الدنيا سليمًا من وعثائها وعسرها ومشاقها.

واستقر بي الحال، أن أدع التفسير التحليلي بجزأيه كما هو، ثم أجعل التفسير الموضوع الخاص بالتعليم المهني والتفسير الموضوعي الخاص بالمخازن وسلاسل التوريد كأجزاء مستقلة، ثم وضعت الخطة الموضحة في الصورة التالية لقضايا الاقتصاد، سواء التمكين منه، أو إدارته، أو نهوضه.

وقد تفرغت لكتابة الجزء الأكبر من الأجزاء الخمسة الأخيرة في سفري لماليزيا حيث اعتكفت أشهر الزيارة عند ولدي متفرغًا للكتابة والتصنيف والتنسيق، وفي هذه المرحلة استقرت الخطة كما تبدو في الصورة بنسبة كبيرة (الشكل ١). وأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه، فكل زلل هو من نفسي، وكل توفيق هو فضل من المولى عز وجل.

الشكل (١) خطة العمل

الفهرس

تقديم ٣

مقدمة عامة ٤

خطة العمل ١٤

الفهرس ١٧

الفصل الأول إدارة المعرفة ١٩

المبحث الأول: مفاهيم الاقتصاد الإسلامي ٢٠

المذهب الاقتصادي ٢١

النظام الاقتصادي ٢٤

علم الاقتصاد ٢٦

إعادة بَسط بعض المسلَّمات الاقتصادية ٣١

المبحث الثاني: الاقتصاد الأخلاقي ٤٠

المبحث الأول: نموذج التوازن في الحياة ٤٩

الفصل الثاني إدارة التغيير ٦٣

المبحث الأول: سنن التغيير الكونية ٦٤

المبحث الثاني: عندما تدق إدارة التغيير جرس الإنذار ٦٨

المبحث الثالث: الدفاعات الذاتية مقابل التغييرات الجوهرية ٨٥

المبحث الرابع: القيادة التكيّفية هي أداة التغيير الناجح ٨٨

الفصل الثالث الاقتصاد السلوكي ٩٤

المبحث الأول: التربية السلوكية وآثارها الاقتصادية ٩٧

المبحث الثاني: اقتصاد الخوف ١٠٨

المبحث الثالث: لا حق لأحد منا في فضل ١٢٤

المبحث الرابع: الأحسن مبادرة قيادية اجتماعية ١٣٣

الفصل الرابع الهياكل التنظيمية والقيادة ١٣٩

المبحث الأول: الهيكل التنظيمي ١٤٦
المبحث الثاني: دليل العمل ١٦٢
المبحث الثالث: تطبيق الحوكمة في الهيكل التنظيمي ١٧٣
المبحث الرابع: الهيكل التنظيمي للكون أنموذجا ١٧٩
الفصل الخامس إدارة المخاطر بين الشك واليقين ١٨٣
المبحث الأول: مفاهيم إدارة المخاطر وأثرها على التقدير في الاقتصاد ١٩٠
المبحث الثاني: أدوات إدارة المخاطر وتقنياتها وسُبل التحوط لها ٢٢٣
المبحث الثالث : رايات الإنذار بالخطر ودرجاته ٢٤٧
الفصل السادس التخطيط والتقدير ٢٦٠
المبحث الأول: التخطيط والتقدير الكوني ٢٦١
المبحث الثاني: مراحل التخطيط الكوني ٢٦٦
المبحث الثالث: التحليل الاستراتيجي لخطة الرشد - صلح الحديبية أنموذجا ٢٧١
أحداث ومتغيرات حصلت خلال الرحلة كادت أن تشوش إنجاز الخطة..... ٢٧٤
أحداث ومتغيرات حصلت خلال الحوار كادت أن تنقض الاتفاق، بل وتشعل حربًا... ٢٧٦
مرحلة كتابة الصلح..... ٢٨٠
مرحلة ما بعد الاتفاق..... ٢٨٤
الخاتمة ٢٩٥

الفصل الأول

إدارة المعرفة

إن النجاح في الحياة له منهجه بلا شك، وكمسلمين نميل ميلاً شديداً لمنهج الحياة الذي خطه الله لنا ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وبناء على هذه النظرة تم بناء أنموذج للتوازن الحياتي ومستقبل الإنسان، فالمحاسبة الاجتماعية، راعت البيئة المحيطة بالإنسان بما فيها مصالحه، وبناء على تلك النظرة المتوازنة تم بناء أنموذج الاقتصاد الإسلامي الرياضي، وتم توصيف مشكلة البطالة وعلاج الإسلام لها.

وقد قدمتُ نظرياتي كاقتصادي مراعيًا أسس المنهج الإسلامي في نظرته للحياة التي نعيشها، وأس تلك النظرة في كل ما ذكرت؛ هو التوازن بين حياتنا التي نحن فيها، وحياتنا الأخرى ضمن ضوابط محددة.

ويستلزم تحقيق التوازن في حياتنا على هذه البسيطة مع جميع مكنوناتها ومخلوقاتها؛ إقامة العدل الذي أمرنا الله تعالى به، حتى لو كنا مظلومين، قال المولى عز في علاه: **يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلَّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِوَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْشَنَآنُقَوْمٍعَلَىأَلاَّتَعْدِلُواْاعْدِلُواْهُوَأَقْرَبُلِلتَّقْوَىوَاتَّقُواْاللّهَإِنَّاللّهَ خَبِيرٌبِمَاتَعْمَلُونَ** (المائدة: ٨).

المبحث الأول: مفاهيم الاقتصاد الإسلامي

يعيش الإنسان على هذه البسيطة منذ القدم، وسيبقى فيها زمنًا يجهله؛ سعى الإنسان – خلال ذلك – تفسير هذه الحياة التي يعيشها ليفهمها فيتمكّن من العيش فيها بأفضل وسيلة – حسب اعتقاده – مستغلاً الموارد من حوله؛ فذهب الناس مذاهب عديدةً في آليّات الفهم؛ فتعدّدت مذاهبهم عبر العصور بتعدّد مشاربهم.

وخلال تلك المسيرة نشأت نظم واندثرت أخرى، وساد في القرنين الأخيرين مذهبا (الشيوعية وربيبتها الاشتراكية) والرأسمالية؛ فالأوّل ظهر للعالم في عام ١٩١٧، ثمّ أفل نجمه في عام ١٩٩٠، وغيّرت الرأسمالية بعضًا من صفاتها، وتخلّت عن أغلب رموزها في بداية هذا القرن الحاليّ.

وهناك مذهب ظهر وتبلور منذ أكثر من ١٤ قرنًا – وما زال موجوداً –، ترافق مع بزوغ شمس الإسلام، وبسبب تخلّف بعض علماء العصر الحديث تأخّر تأطيره وبيانه بالمفاهيم السائدة.

فما المذهب الاقتصادي الإسلامي؟

وما النظام الاقتصادي الإسلامي؟

وما علم الاقتصاد الإسلامي؟

تتوزّع هذه المفاهيم ضمن إطاري (الثوابت والمتغيّرات) – كما هي شريعة الإسلام –؛ فالمذهب الاقتصادي وأصوله من الثوابت التي تُستقى من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، بينما يندرج علم الاقتصاد ونظريّاته والنظام الاقتصادي وتطبيقاته ضمن المتغيّرات التي تنتمي للثوابت فلا تخرج عنها؛ فالعلم مجاله النظر والفكر، والنظام مجاله العمل والتطبيق (الشكل ٢).

ثوابت	المذهب الاقتصادي الإسلامي وأصوله	
متغيرات	علم الاقتصاد ونظرياته وهو مجال الفكر والنظر	النظام الاقتصادي وتطبيقاته وهو مجال العمل والتطبيق

الشكل (٢) مفاهيم الاقتصاد الإسلامي

المذهب الاقتصادي

المذهب الاقتصادي الإسلامي هو الإطار الجامع لعلم الاقتصاد تمثّله **مجموعة الأصول والمبادئ الاقتصادية** التي يسير عليها المجتمع في حياته الاقتصادية والمنبثقة من ثوابت الشريعة الإسلامية بغية تحقيق العدل وفق ما شرعه الله عزّ وجلّ.

يعتبر المذهب الاقتصادي موطن الخلاف بين النّظامين (الرأسماليّ والاشتراكيّ – الوضعيّان –) والنظام الإسلامي؛ لانتماء كلّ نظام بالقيم والمُثل السائدة والاتجّاهات الاقتصادية، فالنّظامان الوضعيّان نظامان ماديّان ركّزا على الجانب الماديّ في الحياة، بينما وازن النظام الإسلامي بين الجانبين (الماديّ والرّوحيّ)؛ فلا غرابة إذن في تنبّه المذاهب الوضعيّة إلى أهمّيّة المسؤولية الاجتماعية وتطبيقاتها في نهاية القرن الماضي بينما شكّلت هذه المسؤولية الجانب الأخلاقيّ في المذهب الإسلامي فكانت مندمجةً في نظامه وتطبيقاته على السواء منذ بدايته وما زال.

لذلك يبحث المذهب بما يجب مناقشته، وما يجب ألاّ يكون؛ فالاحتكار مثلاً، مُحرّم في الاقتصاد الإسلامي على الجميع؛ كبيرهم وصغيرهم، فلا يحقّ لأحدّ أن يحتكر؛ لقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: **(لا يحتكر إلا خاطئ)**.

وبذلك ذهبت الأصول الاقتصادية الإسلامية لاعتبارات تخصّها، فمثلاً:

- ملكيّة المال لله تعالى والنّاس فيه مستخلفون.
- تأمين حدّ الكفاية للناس أمر واجب ومسؤولية الدولة والمجتمع وأيّ تقصير من أحدهما تقدّم الثاني لسدّ تلك الكفاية وتأمينها لمحتاجها.

- تحقيق العدالة أمر لا غنى عنه، ولا بدّ أن يتجسّد ذلك في (النظريات والتطبيقات) كافّةً على حدّ سواء.
- الملكيّة بأشكالها (الخاصّة والعامّة والمشتركة) مصونة ومعتبرة.
- والحرية الاقتصادية معتبرة ومقيّدة بما لا يخالف الأصول الشرعيّة.
- والتنمية بمفهوميها (الاجتماعيّ والاقتصادي) أمر أساس؛ فلا بدّ من قيمة مضافة لأيّ عمل مؤدّىً وبذلك تقوم الحياة وتعمر الأرض.
- الأصل في كلّ شيء (التوسّط) حتّى في الإنفاق والاستهلاك.
- المحرّمات خبائث لا يجوز الاقتراب منها.

وقد عبّر الفقهاء عن تلك الأصول بالضّرورات الخمس، بوصفها مقاصد الشريعة الإسلامية الغرّاء.

لذلك فغاية النشاط الاقتصادي ووسائله ترتكز على أن:

- غاية (المجتمع أو الفرد) من القيام بالنشاط الاقتصادي يحدّدها المذهب.
- إنّ وسائل القيام بالنشاط الاقتصادي كشكل توزيع الثروة والملكيّة يتدخّل في تحديده المذهب.

أما الأسئلة التي يثيرها المذهب فتتعلق بـ:

- كيف ينبغي أن يكون السوق؟

- هل تضمن حريّة السّوق التوزيع العادل للسّلع وتلبية الاحتياجات؛ بما يحقّق العدالة الاجتماعية؟

وعليه؛ فمنهج المذهب الاقتصادي يكمن في المدخل المعياري.

النظام الاقتصادي

يُعرّف النظام الاقتصادي الإسلامي بأنّه: مجموعة القواعد والأحكام التي تنظّم علاقات الأفراد في إدارتهم للموارد الطيّبة؛ باستخدام وسائل مباحة لأداء وظائف الاقتصاد لتحقيق أقصى إشباع ممكن لحاجاتهم غير المحدودة.

عناصر التعريف:

- القواعد: هي القواعد الفقهيّة المستنبطة من أصول الشريعة الإسلامية: (القرآن الكريم والسّنة المطهّرة والإجماع)، أمّا الأحكام فهي (نتائج القواعد الفقهيّة من حلال أو حرام).
- التنظيم: هو أحد وظائف إدارة النشاط الاقتصادي.
- علاقات الأفراد: هي السلوك الذي تؤطّره الأحكام الفقهيّة في (إنتاج وتوزيع واستهلاك واستثمار) الموارد الطيّبة.

وعليه فالنظام الاقتصادي الإسلامي: هو الوسائل والإجراءات التي يتمّ من خلالها تطبيق المذهب الاقتصادي الإسلامي؛ ممّا يمنح النظام المرونة والتغيّر

بتغيّر الزمان والمكان – ضمن إطار المذهب الاقتصادي وحدوده وليس خارجه –؛ في حين أنّ المذهب يتّصف بثباته؛ فلا يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان كحرمة الرّبا مثلاً.

أما خصائص النظام، فهي:

- تحقيق الرّقابة المزدوجة.
- الجمع بين الثبات والمرونة والتطوّر.
- التوازن بين المادّيّة والرّوحيّة.
- التوازن بين المصلحة الفرديّة والمصلحة الجماعيّة.

أما ركائز النظام فهي:

- الملكيّة المزدوجة: عامّة، وخاصّة، وجماعيّة كالوقف والمعادن.
- الحرية الاقتصادية المنضبطة بالمذهب الاقتصادي وتحقيق المصلحة العامّة.
- التكافل الاجتماعيّ.

وعليه؛ فمنهج النظام الاقتصادي يكمن في المدخلين (التجريبيّ والاستقرائيّ).

علم الاقتصاد

يتناول علم الاقتصاد تفسير الحياة الاقتصادية وأحداثها وظواهرها ومعرفة الأسباب التي تتحكّم فيها لاكتشاف أسرار الحياة الاقتصادية لمعرفة ما يحدث؛ لذلك هو علم يهتمّ بسلوك الأفراد في حصولهم على الموارد الطيّبة، واستخدامها، وتنميتها؛ لإشباع حاجاتهم المباحة، وتحقيق عدالة التوزيع بين الناس.

ويشمل ذلك:

– وظائف الاقتصاد من (تمويل واستثمار وإنتاج واستهلاك وتوزيع وتبادل).

– الموارد هي الموارد (الطبيعيّة والبشريّة والماديّة) ومنها كسب المال، وكلّ ذلك يكون من الموارد الطيّبة التزامًا بالقواعد والضوابط الشرعيّة.

– ضبط الأحكام الشرعية لسلوك الأفراد، ونميّز بين سلوكين اثنين:

ا. حصولهم على الموارد الطيّبة بمختلف أشكالها؛ ومنها الموارد المادّيّة سواء بكسب المال بالعمل المباشر، أو بالتقليب كالتجارة أو بالتحويل كالصناعة.

ب. استهلاك الأفراد للموارد الطيّبة؛ ومنها إنفاق المال ضمن الأوجه المشروعة؛ لإشباع حاجاتهم، وهي على نوعين:

- حاجات استهلاكيّة مباحة.
- حاجات استثماريّة، الغرض منها تحقيق التنمية، ويكون ذلك بإنتاج الطيّبات فقط دون الخبائث.

- تحقيق العدالة الاجتماعية بتحقيق عدالة التوزيع بين عناصر الإنتاج، وبين الشّركاء، وفي البيئة الطبيعيّة المحيطة، وبأداء المساهمة الاجتماعية على شكل (زكوات وصدقات).

إنّ علم الاقتصاد ونظرياتّه هو مجال إعمال الفكر والنّظر، وهو مدخل إيجابي تحكمه القاعدة النبويّة (**الحكمة ضالّة المؤمن؛ أينما وجدها فهو أحقّ بها**)، فالعلم ملك الناس جميعًا، وليس ملك فئة دون غيرها؛ أيّ: أنّه محايد مستقلّ لا ينتمي لمذهب دون آخر.

أمّا كيفيّة تطويع واستخدام هذه القوانين والنظريّات فمنوط بالمذهب واتجاهاته.

مثال ذلك:

- دراسة العلاقة بين السّعر والطلب لتفسير أحداث السّوق.
- استخلاص القوانين الاقتصادية التي تحكمها كقانون تناقص الغلّة وتزايدها، وقانون العرض والطلب.

وإنّ الاختلاف بين علم الاقتصاد التقليديّ وعلم الاقتصاد الإسلامي، أنّ التقليديّ لا يعترف بأيّ علاقة لعلم الاقتصاد بالعقائد والأخلاق واتجّاهات الدولة الاقتصادية؛ إلاّ أنّ علم الاقتصاد الإسلامي يلتزم بثوابت تخصّه ولا يحيد عنها وهو ما عبرنا عنه بالمذهب الاقتصادي، ممّا حدا ببعض الاقتصاديين وصفه بأنّه ليس علمًا؛ بل مذهبًا اقتصاديا، وهذا غير صحيح؛ لأنّ القضيّة تعتمد على أسس الدراسة والبحث؛ فمثلاً: إنّ تطوير معيار لقياس أداء المعاملات المالية الإسلامية (مقام) كبديل عن مؤشّر الفائدة الرّبويّة (لايبور) يثبت فعالية الاقتصاد الإسلامي كعلم؛ فالمؤشّران كلاهما ينتميان لعلم الاقتصاد؛ لأنّهما مقياس وحسب؛ إلاّ أنّ أسس الأوّل أكثر تناسبًا مع الثوابت الإسلامية، والثاني لا يتناسب معها مع إمكان استخدامه بحياديّة، والاستئناس به في مجلس العقد دون ربط التسعير به بشكل متغيّر خارج مجلس العقد.

أما الأسئلة التي يثيرها علم الاقتصاد:

- ما نتائج السّوق الحرّة؟
- كيف يتمّ ربط السعر بالطلب؟

وعليه؛ فإنّ منهج علم الاقتصاد يكمن في المدخل الاستنباطيّ.

إذًا يضع المذهب الاقتصادي أهداف الحياة الاقتصادية ويرسم الوسائل المؤدّية لتحقيق تلك الأهداف؛ أيّ: (غاية ووسيلة النشاط الاقتصادي)؛ كتحديد هدف الإنتاج ووسيلته وشكل الملكية والحرية الاقتصادية وكيفية توزيع الثروة؛ فالمذهب يتأثّر بالأخلاق والسياسة والاتجاهات الاقتصادية وكذلك مفهوم المجتمع للعدالة.

وبناءً عليه نميّز بين الأنظمة الاقتصادية، وهي الجانب التطبيقيّ والعمليّ فنصفها بالرأسمالية والاشتراكية والإسلامية؛ فلكلّ من هذه الأنظمة مذهب تنتمي إليه.

ويأتي علم الاقتصاد –كأداة للبحث العلميّ والموضوعيّ عن الحقائق العلميّة – فيؤطّر الوقائع والمشاهدات ويحاول تفسيرها ووضع نظريات تخصّها، ومن ثمّ تتدافع النظريّات ليسقط بعضها ويثبت بعضها الآخر حينًا من الدّهر، وقد تخضع تلك النظريات لتعديلات لتناسب التغيّرات المحيطة، وقد تتحوّل إلى حقائق علمية راسخة، وقد تبقى مدار (بحث وتمحيص وتعديل وتطوير مستمرّ). وقد أوضحنا تميّز علم الاقتصاد الإسلامي باهتمامه بالموارد الطيّبة واستخدامها، وتنميتها؛ لإشباع الحاجات المباحة، وتحقيق عدالة التوزيع بين الناس؛ فالعلم يركّز على

تطوير الأداء، وعلى إيجاد حلول لمشكلات يعاني منها الناس وينسجم مع ما يؤمنون به.

وقد يختلف المنتمون لمذهب محدّد؛ -كالمذهب الإسلامي مثلاً – في عرضهم للنظريّات وللتطبيقات، فهذا من اهتمام المجتهدين تبعًا لتغيّر الزمان والمكان، وقد تعارف الفقهاء على قاعدة مشتركة بينهم، هي: "اختلاف الأحكام بتغيّر الزمان والمكان"؛ فقد يظنّ أحدهم أنّ ما ذهب إليه حقيقة علمية، ثمّ يأتي الواقع ليثبت أو ينفي وجهة نظره، وهذه سنّة من سنن الله تعالى.

مثال ذلك في السياسة المالية العامّة: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يوزّع كلّ ما يأتيه لبيت المال، وكان أبو بكر رضي الله عنه وهو خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوزّع للأقرب لآل البيت النبويّ، أمّا عمر رضي الله عنه وهو خليفة خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكان يوزّع للأقرب إلى الإسلام. ولم يكن في أيّ فعل من تلك الأفعال ما يناقض المذهب الاقتصادي الإسلامي؛ فهذه تطبيقات اختلفت باختلاف الزمان فاجتهد خليفتا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما فيه مصلحة الناس، وليس في ذلك بأس.

إذًا تختلف أسس مفاهيم الاقتصاد الإسلامي عن غيرها لتأثّرها بشريعة الإسلام وانبثاقها عنه؛ فالعدل غاية لا تنفكّ عنها، فلا يسمح بظلم أو تظالم (**لا ضرر ولا ضرار**)؛ لكنّ هذه المفاهيم لا تبتعد عن الواقع؛ لأنّها تستفيد من المدخل الإيجابي بوصفه الحكمة وهي ضالّة المؤمن أينما وجدها فهو أحقّ بها؛ فالحقيقة ملك البشريّة جمعاء؛ ومنافع الاقتصاد الإسلامي تطال جميع الناس؛ فكثيرًا ما خاطب القرآن الكريم وهو كلام الله تعالى الناس بالنداء: **يا أيُّها النَّاسُ**، وقال رسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم: (**بعثت إلى الأحمر والأسود**).

إعادة بَسط بعض المسلَّمات الاقتصادية

المُسلَّمة أو البديهيَّة مبدأ لا يحتاج برهان ولا دليل يعززه؛ لأنه واضح كالأوليات أو البديهيات العقلية. وقد تكون المسلَّمة مقولة؛ كمقولة أهل الشام: (أيلول ذنبه مبلول) كناية عن نزول المطر الذي اعتادوه نهاية كل أيلول (سبتمبر) إيذانًا بقدوم فصل الشتاء، وقد تكون المسلَّمة افتراضًا، كالقول الخطّان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا، وقد تكون قاعدة راسخة لم يتم نقضها كقانون العرض والطلب.

تشكل المسلّمات أساسًا للنظام المعرفي، لكنها قد لا ترقى لدرجة الحقيقة العلمية، ومثال ذلك؛ فقد أثبت بعض علماء الرياضيات عدم صحة

فرضية أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان؛ فإن صح إثباتهم، فهذا سيُخرجها عن كونها مسلّمة.

وقياسًا على ما سبق، يبدو أن كثيراً من المسلمات الاقتصادية بات تغييرها ضروريًا، فما قدمته الحضارة الغربية تآكل قسم كبير منه، وقسم آخر يترنح مستعداً للمغادرة!! ومثاله:

– أن المسلّمات المتعلقة بالاقتصاد النقدي بات أغلبها خارج الإطار المقبول بعدما تساقطت أسس مدرسة شيكاغو النقدية، وقد ذكرنا في أكثر من موضع انتهاء نموذج المصارف التقليدية، وكذا الإطار العام للمصارف المركزية، وما يتعلق بنسب التضخم المسلّم بها، بل صارت نسب الفائدة الصفرية والسالبة أمراً مستساغًا بعدما كانت ثابتًا لا يقبل مجرد النقاش، كما صار رفع نسبها مُستهجنًا طبقًا للحالة الاقتصادية العالمية السائدة!.

– أما حال المسلمات المتعلقة بالاقتصاد المالي؛ فليست أحسن حالاً من سابقتها؛ فالضرائب صارت مقيتة عند أغلب مرشحي الرئاسة في مختلف الدول، وصارت المناداة بخفضها؛ بل وإلغائها في بعض الأحيان أمراً مقبولاً، وقد ذكرنا في غير موضع مناداة مفكرين واقتصاديين بضرورة فرض الضرائب على الأغنياء دون غيرهم. كما بدأ الجميع ينظر إلى

القروض نظرة شك فتكلفة خدمتها أضحت ثقيلة، ويزداد مقتها بازدياد وتيرة الأزمات بمختلف أنواعها الوبائية والمالية وما ينجم عن الحروب. وصار الجميع ينظر بريب لقروض المؤسسات الدولية؛ كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي بوصفهما أداتين للأوربيين وللأمريكيين على الترتيب، وصار الجميع يتجرأ على اتهامهما بالتواطؤ وتنفيذ المآرب الخبيثة لتلك الدول تجاه غيرها.

– لم تنجُ المسلمات الاقتصادية من الصدأ والتآكل، فالعقوبات الاقتصادية صارت متكررة مملة سقيمة، لا تؤتي ثماراً معتبرة؛ بل صار المحاصَر يبتكر وينشئ صناعات تخصه كحال تركيا في صناعة طائراتها بعدما أبعدتها الولايات المتحدة من المشاركة في صناعة آخر ما أنتجته من طائرات حربية. كما صارت التحالفات الاقتصادية متخلخلة سرعان ما تتفكك أمام الأطماع وتعارض المصالح.

وهناك مسلّمات ترعرعنا عليها، وحفظناها، وتعلمناها؛ دون نقاش من جامعات وأساتذة تلقوها كمسلّمات وعلموها للأجيال دون أن يتوقفوا عند صحتها وكأن دورهم النقل فقط، مع أن الأصل أنهم مراكز بحثية تُنتج المعلومة الصحيحة، وتَرقبها.

المُسلَّمة: الاقتصاد الريعي هو الاقتصاد الذي يعتمد على ما يُستخرج من فلزات الأرض أو من زراعتها، حيث يكتفي بإنتاج السلع والمواد الخام وتصديرها، وهذا مؤداه ضعف هذه الاقتصادات وتبعيتها للدول الصناعية؛ فالأولى متخلفة أو قيد النمو أو ناشئة بأحسن حالاتها، والثانية متقدمة اقتصاديًا، لذلك يمكن للاقتصادات المتقدمة خنق الاقتصادات المتخلفة أو الناشئة متى شاءت.

مقارنة سعرية (صحيحة) لطالما رُوجت لإثبات أفضلية الاقتصاد الصناعي على الاقتصاد الريعي: يحتوي برميل النفط على ١٥٩ ألف مللتر، وزجاجة العطر الفرنسي تحتوي على ١٠٠ مللتر، وبما أن سعر برميل النفط حوالي ٥٠ دولارًا وسعر زجاجة العطر حوالي ١٠٠ دولار؛ إذًا فكل مليلتر من العطر سعره دولار واحد، وعليه فإن سعر برميل العطر سيكون ١٥٩٠٠٠ دولار مقابل ٥٠ دولارًا لبرميل النفط.

إن استقراء الأحداث الجارية، يُساعد في إثبات عكس هذه المسلّمة من خلال عرض نموذجين ريعيين؛ هما الاقتصاد الروسي، والاقتصاد السعودي. ثم بإلقاء الضوء على اقتصاد يُنتج سلعًا وسيطة، هو الاقتصاد الأوكراني، عندما برزت صناعة أشباه الموصلات كسلع وسيطة غير نهائية.

أولاً – لقد أثبتت الحرب الروسية الأوكرانية اليوم تغيّرًا واضحًا في معايير الضعف والقوة الاقتصادية، فالتمرد الروسي بقطع إمدادات الغاز والنفط عن الأوربيين، وقد لحقه – دون ضجيج – التمرد السعودي الذي يحاول التملص من اتفاقيات (البترو – دولار)؛ أثبت كلاهما أن الاقتصادات

الريعية يمكنها لجم الاقتصادات الصناعية وتوقيفها شرط حمايتها بالقوة العسكرية كحالة روسيا، أو بإجادتها اللعبة السياسية في الوقت الصحيح كحالة الاقتصاد السعودي.

كما تنتج روسيا وأوكرانيا ٤٠٪ من قمح العالم، وبسبب الحرب، برزت قضية الأمن الغذائي العالمي، وارتفعت أسعار القمح والعلف مما أدى إلى زيادة معدلات التضخم في كثير من دول العالم. وتشترط روسيا للسماح بتصدير القمح الأوكراني؛ رفع العقوبات عنها؛ فهي تسيطر على الموانئ الأوكرانية.

لقد اعتادت دول (الولايات المتحدة الأمريكية والأوربية) التلاعب بآحاد التكتلات الاقتصادية والتغلغل في سياساتها حيثما شاءت، لكن تحالف (أوبك+) خلال الحرب الأوكرانية بقي صامداً وحافظ على سياساته التحالفية، وهذا عزز موقف الاقتصادَين المدروسين؛ وساعد في استقرار الأسعار العالمية لسوق الطاقة، فلا زيادة في الإنتاج خشية أن يتبعها انخفاض في الأسعار، فانخفاض في إيرادات الدول المنتجة؛ ليكون ذلك سيفًا مُسلطًا عليها لترضخ لإرادات الدول الراغبة في التلاعب ببعض الاقتصادات كالاقتصاد الروسي بوصفه من شن الحرب على أوكرانيا، وبوصف مقاطعة منتجاته الأولية عقابًا اقتصاديًا مؤلمًا.

ثانيًا – في ظل هذه المعركة المعلنة، هناك معركة خفية تدور رحاها في رحاب الاقتصادَين السعودي والصيني مقابل الاقتصاد الأمريكي، فما يحصل خلال الحرب الأوكرانية، وما سبقه من سجالات سياسية بين الولايات المتحدة الأمريكية إثر تغير الإدارة الجمهورية إلى ديمقراطية، واستعار معركة كسر الإرادات بين الرئيس بادين والأمير محمد بن سلمان، والتي تخفي تفاصيل كثيرة قَشتها تكتيكات معلنة، وما خفي أشد ضراوة؛ حيث إن إشاحة الاقتصاد السعودي وجهه نحو الشرق يُنبئ بتفكيك اتفاقية (البترو – دولار)، وبدء انتهاء عصر الهيمنة العالمية للاقتصاد الأمريكي الذي محوره عولمة الدولار كنقد عالمي وكعملة احتياط عالمية بلا منازع جوهري حتى الآن.

إن اعتماد العالم على الدولار الأمريكي وسندات الخزانة الأمريكية[1]؛ يمنح أمريكا هيمنة اقتصادية ضخمة لا مثيل لها؛ حيث يتم ما يقرب من ٩٠٪ من المعاملات الدولية بالعملات بالدولار، و ٦٠٪ من احتياطيات النقد الأجنبي محجوزة بالدولار، وحوالي ٤٠٪ من ديون العالم تُصدر بالدولار، على الرغم من أن الولايات المتحدة لا تمثل سوى حوالي ٢٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي.

وقد ولد هذا الوضع الخاص للدولار في سبعينيات القرن الماضي من خلال اتفاقية عسكرية بين أمريكا والسعودية، مما دفع العالم إلى تسعير النفط بالدولار وتخزين ديون الولايات المتحدة.

[1] ALEX GLADSTEIN, UNCOVERING THE HIDDEN COSTS OF THE PETRODOLLAR, Bitcoin Magazine, 29 April 2021, Link

ومع خروج العالم من جائحة ٢٠٢٠ وأزمة ٢٠٠٨ المالية، تواصل النخب الأمريكية التمتع بالامتياز الباهظ لإصدار السلعة النقدية والأرقام النهائية للطاقة والتمويل.

لذلك إذا نجح الاقتصاد السعودي في زيادة أواصر الارتباط باليوان الصيني بقبوله كعملة تسديد مقابل ٢٥٪ من إنتاجه من النفط؛ فهذا سيُمهد لزيادة دور اليوان كنقد عالمي، وإيذانًا بفك ارتباط الريال السعودي عن الدولار الأمريكي كمرحلة ثانية وقد يتلوها باقي العملات الخليجية الواحدة تلو الأخرى، لتكون الضربة مؤلمة، وبالطبع؛ هذا لا يخفى على السلطات النقدية الأمريكية التي تَرقب الوضع بدقة، لكن الرياح قد تجري بما لا تشتهي السفن، وهذه فرصة استراتيجية يجدر صيدها ما أمكن لأن ما بعدها سيكون غير ما قبلها، فالدول المغامرة كروسيا وتركيا والسعودية وإيران ستعزز حضورها بالمحافل العالمية، وهذا – إن حصل – لن يتكرر إلا بعد قرن أو أكثر، وإن أغلب الاتفاقيات الدولية التي تلت الحربين العالميتين هي في طور التفكك، والحراك الجاري، يُنبئ بحصول مستجدات يُبنى عليها، والصيد لمن سَبق.

ثالثًا – صناعة أشباه الموصلات Simi-Conductors وهي سلع وسيطة؛ تتشكل من مواد قيمة ناقليتها الكهربائية بين المواد الموصلة كالنحاس، والذهب، وبين المواد العازلة كالزجاج. ولصناعة شبه الموصلات

تطبيقات عديدة في صناعة مختلف الأجهزة الإلكترونية؛ كالدارات المتكاملة، والمعالجات المصغرة Microprocessor والمتحكمات المصغرة Microcontroller وغيرها، وهي على نوعين: شبه موصل سالب، وشبه موصل موجب.

ولهذه الصناعة[1]، أهمية بالغة للاقتصاد وللأمن الوطني على السواء، لذلك يُنظر إليها كضامن للإمدادات التنافسية، بغية تلبية الطلب العالمي المتزايد خلال العقد القادم. ولن يتحقق ذلك بالاكتفاء الذاتي التكنولوجي لحاجة هذه الصناعة لعمليات البحث والإنتاج وبناء المواهب والمعرفة.

وقد ظهرت أهمية هذه الصناعة إثر الحرب الروسية الأوكرانية؛ حيث دخلت الصناعات الإلكترونية في أزمة إمدادات لوجستية بعدما تبين أن أوكرانيا مُنتج رئيس لأشباه الموصلات، وحقيقة الأمر أن صناعة الرقائق شكلت مصدر نفوذ في مختلف أقسام سلاسل توريد أشباه الموصلات.

أما ما يزيد أهميتها؛ أن بناء منشأة جديدة لإنتاج أشباه الموصلات يحتاج إلى:

- رأسمال مادي يتراوح بين ١٠–٢٠ مليار دولار.

[1] LAURA TYSON & JOHN ZYSMAN، From Sanctions to Semiconductor Resiliences and Security، Mar 22، 2022، Link

- زمن إنشاء يُقدر ب ٣–٥ سنوات.
- رأسمال بشري تتوافر فيه المواهب والمهارات والأبحاث الجامعية الابتكارية، والعمالة الأجنبية الماهرة الخبيرة.
- موقعًا يتوافر فيه الدعم التنظيمي وبيئة ذات مرافق عالية التقنية، وبنية تحتية كالطاقة والمياه وشبكات النقل.

وبذلك فإن الاقتصادات الريعية المنتجة للمواد الأولية، والاقتصادات المنتجة للسلع الوسيطة، قادرة فعلا على التحكم بالاقتصادات المتقدمة صناعيًا؛ بل والضغط عليها إن توافر لها شروط القوة العسكرية أو السياسية أو كلاهما؛ مما يعني سقوط مسلّمة اقتصادية طالما تغنت بها الدول المتقدمة الصناعية مشيعة الخوف عند غيرها.

المبحث الثاني: الاقتصاد الأخلاقي

إن التوازن في أنموذج الحياة يكون بتحقيق الحياة الآمنة المطمئنة، وهذا يَلزمه حُسن العِشرة مع الناس، فالإنسان لا يعيش بمفرده، بل هو محتاج لغيره، ويكون أيضًا، بالسعي لآخرةٍ مُنجيةٍ وهذا يحتاج كسب رضا الإله، ومَنْ جمع الأمرين عاش سعيداً وكأنه في نعيم. أما سبيل ذلك فبالإلفة، وأما مسبباتها فالبرّ، والبرّ صلة ومعروف.

ذكر الماوردي: البرّ صلةٌ ومعروفٌ[1]، وتكونُ الصّلةُ بالتبرعِ ببذلِ المالِ، أَمّا المعروفُ فبالقولِ والعملِ، والْبِرُّ هُوَ خَامِسُ أَسْبَابِ الإِلْفَةِ لأَنَّهُ يُوصِلُ إِلَى الْقُلُوبِ أَلْطَافًا، وَيُثْنِيهَا مَحَبَّةً وَانْعِطَافًا. وَلِذَلِكَ نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى التَّعَاوُنِ بِهِ وَقَرَنَهُ بِالتَّقْوَى لَهُ، فَقَالَ: **وَتَعَاوَنُواعَلَى الْبِرِّوَالتَّقْوَى**، لأَنَّ فِي التَّقْوَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي الْبِرِّ رِضَى النَّاسِ. وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرِضَى النَّاسِ فَقَدْ تَمَّتْ سَعَادَتُهُ، وَعَمَّتْ نِعْمَتُهُ، وَالْبِرُّ نَوْعَانِ: صِلَةٌ وَمَعْرُوفٌ.

وتكون الصلة بالتبرع وهو باب من أبواب السخاء والكرم، وهو سلوك ينبغي أن يكون محموداً إن كان في وجوه محمودة. والتبرع إنفاق يقوم به القادرون لغير القادرين أو الأغنياء للفقراء، ويكفل هذا الإنفاق دوران

[1] أدب الدنيا والدين، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الصفحات 94- 108.

عجلة الاقتصاد دون وقوف، ففي ظل الانكماش تحلم الحكومات بتحريك عجلة الاقتصاد بتحفيز الإنفاق، وهذا يصعب تحقيقه دون إيمان دافع، فكيف إذا كان المقصود بالإنفاق التبرع لغير عوض مطلوب؟. وتقع الصلة أيضًا بغير التبرع، وقد عدد الماوردي منها أربعة أنواع هي: الحِرْصُ وَالشَّرَهُ وَسُوءُ الظَّنِّ وَمَنْعُ الْحُقُوقِ، وبينّ أن كلاً منها إنما جنوح عن السواء. ويفسر التمعن بآثار المحمود والمذموم سلوك الاقتصاد الكلي، فبالتبرع يتكافل الناس ويتعاضدون ويزدادون قوة تجاه ما يتعرضون له من أزمات، أما الحرص فيذهب بالناس إلى نسيان إنسانيتهم وكأنهم آلات تكد وتكدح دون مشاعر، بينما الشره يحول الناس إلى مستهلكين شرهين تُخل بالتوازن بسبب ازدياد الطلب بشكل غير طبيعي، أما منع الحقوق فمخرب للعلاقات الاقتصادية، وسبب لسوء الظن، بينما حسن الظن يمثل عماد العلاقات التجارية وسبب توسعها.

ذكر الماوردي: الصِّلَةُ هيَ التَّبَرُّعُ بِبَذْلِ الْمَالِ فِي الْجِهَاتِ الْمَحْمُودَةِ لِغَيْرِ عِوَضٍ مَطْلُوبٍ. وَهَذَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ سَمَاحَةُ النَّفْسِ وَسَخَاؤُهَا، وَيَمْنَعُ مِنْهُ شُحُّهَا وَإِبَاؤُهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **(مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلا وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَمُمْسِكًا تَلَفًا)**.

أَرْبَعَةُ أَخْلاَقٍ نَاهِيكَ بِهَا ذَمًّا وَهِيَ: الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ وَسُوءُ الظَّنِّ وَمَنْعُ الْحُقُوقِ. فَأَمَّا الْحِرْصُ: فَهُوَ شِدَّةُ الْكَدْحِ وَالإِسْرَافِ فِي الطَّلَبِ. وَأَمَّا الشَّرَهُ فَهُوَ اسْتِقْلاَلُ الْكِفَايَةِ، وَالاسْتِكْثَارُ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَهَذَا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْحِرْصِ وَالشَّرَهِ. وَأَمَّا السَّرَفُ وَالتَّبْذِيرُ فَإِنَّ مَنْ زَادَ عَلَى حَدِّ السَّخَاءِ فَهُوَ مُسْرِفٌ وَمُبَذِّرٌ، وَهُوَ بِالذَّمِّ جَدِيرٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلاَتُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**، وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: **(مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ)**. وَاعْلَمْ أَنَّ السَّرَفَ وَالتَّبْذِيرَ قَدْ يَفْتَرِقُ مَعْنَاهُمَا. فَالسَّرَفُ: هُوَ الْجَهْلُ بِمَقَادِيرِ الْحُقُوقِ، وَالتَّبْذِيرُ: هُوَ الْجَهْلُ بِمَوَاقِعِ الْحُقُوقِ. وَكِلاَهُمَا مَذْمُومٌ، وَذَمُّ التَّبْذِيرِ أَعْظَمُ؛ لأَنَّ الْمُسْرِفَ يُخْطِئُ فِي الزِّيَادَةِ، وَالْمُبَذِّرُ يُخْطِئُ فِي الْجَهْلِ. وَمَنْ جَهِلَ مَوَاقِعَ الْحُقُوقِ وَمَقَادِيرَهَا بِمَالِهِ وَأَخْطَأَهَا، فَهُوَ كَمَنْ جَهِلَهَا بِفِعَالِهِ فَتَعَدَّاهَا وَكَمَا أَنَّهُ بِتَبْذِيرِهِ قَدْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَهَكَذَا قَدْ يُعْدَلُ بِهِ عَنْ مَوْضِعِهِ؛ لأَنَّ الْمَالَ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُوضَعَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ حَقٍّ وَغَيْرِ حَقٍّ. وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه: كُلّ سَرَفٍ فَبِإِزَائِهِ حَقٌّ مُضَيَّعٌ.

ويُقسم التبرع أو البذل إلى قسمين فإن كان دون طلب فهو أكثر سخاء وشرفًا، ومسبباته تسعة، منها سد فقر أو سداد ذمة وجميعها يُعبر عن الأخلاق الحميدة وسخاء النفس، ويجب أن تكون وسطًا دون السرف

وفوق البخل. وإن كان البذل بسؤال وطلب فإن لذلك شروطًا في السائل والمسؤول. والباذل يكون تاجرًا رابحًا إن قصد بفعله الأجر من الله.

وهنا يتضح معنى الإلفة التي أشار إليها الماوردي لكسب رضا الله ثم رضا الناس، فهو إن قدم تبرعه للناس دون مقابل طالبًا الأجر من الله، فإنه سيكسب ودّ الناس ومحبتهم كما سيكسب رضا الله تعالى.

وَالْبَذْلُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا ابْتَدَأَ بِهِ الإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ، وَالثَّانِي مَا كَانَ عَنْ طَلَبٍ وَسُؤَالٍ. فَأَمَّا الْمُبْتَدِئُ بِهِ فَهُوَ أَطْبَعُهُمَا سَخَاءً، وَأَشْرَفُهُمَا عَطَاءً. وَهَذَا النَّوْعُ مِنْ الْبَذْلِ قَدْ يَكُونُ لِتِسْعَةِ أَسْبَابٍ:

فَالسَّبَبُ الأوَّلُ: أَنْ يَرَى خَلَّةً يَقْدِرُ عَلَى سَدِّهَا، وَفَاقَةً يَتَمَكَّنُ مِنْ إزَالَتِهَا، فَلاَ يَدَعُهُ الْكَرَمُ وَالتَّدَيُّنُ إلا أَنْ يَكُونَ زَعِيمَ صَلاَحِهَا، وَكَفِيلَ نَجَاحِهَا، رَغْبَةً فِي الأجْرِ إنْ تَدَيَّنَ وَفِي الشُّكْرِ إنْ تَكَرَّمَ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَرَى فِي مَالِهِ فَضْلاً عَنْ حَاجَتِهِ، وَفِي يَدِهِ زِيَادَةً عَنْ كِفَايَتِهِ، فَيَرَى انْتِهَازَ الْفُرْصَةِ بِهَا فَيَضَعُهَا حَيْثُ تَكُونُ لَهُ ذُخْرًا مُعَدًّا وَغَنَمًا مُسْتَجَدًّا.

وَالسَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ لِتَعْرِيضٍ يَتَنَبَّهُ عَلَيْهِ لِفِطْنَتِهِ، وَإِشَارَةٍ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِكَرَمِهِ، فَلاَ يَدَعُهُ الْكَرَمُ أَنْ يَغْفُلَ وَلاَ الْحَيَاءُ أَنْ يَكُفَّ.

وَالسَّبَبُ الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رِعَايَةً لِيَدٍ أَوْ جَزَاءً عَلَى صَنِيعَةٍ، فَيَرَى تَأْدِيَةَ الْحَقِّ عَلَيْهِ طَوْعًا إِمَّا أَنَفَةً وَإِمَّا شُكْرًا لِيَكُونَ مِنْ أَسْرِ الامْتِنَانِ طَلِيقًا، وَمِنْ رِقِّ الإِحْسَانِ وَعُبُودِيَّتِهِ عَتِيقًا.

وَالسَّبَبُ الْخَامِسُ: أَنْ يُؤْثِرَ الإِذْعَانَ بِتَقْدِيمِهِ، وَالإِقْرَارَ بِتَعْظِيمِهِ، تَوْطِيدًا لِرِئَاسَةٍ هُوَ لَهَا مُحِبٌّ، وَعَلَى طَلَبِهَا مُكِبٌّ.

وَالسَّبَبُ السَّادِسُ: أَنْ يَدْفَعَ بِهِ سَطْوَةَ أَعْدَائِهِ، وَيَسْتَكْفِيَ بِهِ نِفَارَ خُصَمَائِهِ، لِيَصِيرُوا لَهُ بَعْدَ الْخُصُومَةِ أَعْوَانًا، وَبَعْدَ الْعَدَاوَةِ إِخْوَانًا، إِمَّا لِصِيَانَةِ عِرْضٍ، وَإِمَّا لِحِرَاسَةِ مَجْدٍ.

وَالسَّبَبُ السَّابِعُ: أَنْ يُرَبِّيَ بِهِ سَالِفَ صَنِيعَةٍ أَوْلاَهَا، وَيُرَاعِيَ بِهِ قَدِيمَ نِعْمَةٍ أَسْدَاهَا، كَيْ لاَ يُنْسَى مَا أَوْلاَهُ أَوْ يُضَاعُ مَا أَسْدَاهُ، فَإِنَّ مَقْطُوعَ الْبِرِّ ضَائِعٌ وَمُهْمَلُ الإِحْسَانِ ضَالٌّ.

وَالسَّبَبُ الثَّامِنُ: الْمَحَبَّةُ يُؤْثِرُ بِهَا الْمَحْبُوبُ عَلَى مَالِهِ فَلاَ يَضَنُّ عَلَيْهِ بِمَرْغُوبٍ، وَلاَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهِ بِمَطْلُوبٍ، لِلَّذَّةِ الَّتِي هِيَ عِنْدَهُ أَحْظَى، وَإِلَى نَفْسِهِ أَشْهَى؛ لأَنَّ النَّفْسَ إِلَى مَحْبُوبِهَا أَشْوَقُ وَإِلَى مَا يَلِيهِ أَسْبَقُ.

وَالسَّبَبُ التَّاسِعُ: وَلَيْسَ بِسَبَبٍ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لِغَيْرِ مَا سَبَبٍ وَإِنَّمَا هِيَ سَجِيَّةٌ قَدْ فُطِرَ عَلَيْهَا، وَشِيمَةٌ قَدْ طُبِعَ بِهَا، فَلاَ يُمَيِّزُ بَيْنَ مُسْتَحِقٍّ وَمَحْرُومٍ، وَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلاَتَجْعَلْيَدَكَمَغْلُولَةً**

إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا. فَنَهَى عَنْ بَسْطِهَا سَرَفًا، كَمَا نَهَى عَنْ قَبْضِهَا بُخْلاً، فَدَلَّ عَلَى اسْتِوَاءِ الأَمْرَيْنِ ذَمًّا وَعَلَى اتِّفَاقِهِمَا لَوْمًا. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَذْلُ وَالْعَطَاءُ عَنْ سُؤَالٍ فَشُرُوطُهُ مُعْتَبَرَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا فِي السَّائِلِ، وَالثَّانِي فِي الْمَسْؤولِ.

فَأَمَّا مَا كَانَ مُعْتَبَرًا فِي السَّائِلِ فَثَلاَثَةُ شُرُوطٍ: فَالشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ لِسَبَبٍ، وَالطَّلَبُ لِمُوجِبٍ. فَإِنْ كَانَ لِضَرُورَةٍ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْحَرَجُ وَسَقَطَ عَنْهُ اللَّوْمُ. وَالشَّرْطُ الثَّانِي: مِنْ شُرُوطِ السُّؤَالِ أَنْ يَضِيقُ الزَّمَانُ عَنْ إِرْجَائِهِ، وَيَقْصُرَ الْوَقْتُ عَنْ إِبْطَائِهِ، فَلاَ يَجِدُ لِنَفْسِهِ فِي التَّأْخِيرِ فُسْحَةً، وَلاَ فِي التَّمَادِي مُهْلَةً، فَيَصِيرُ مِنْ الْمَعْذُورِينَ وَدَاخِلاً فِي عِدَادِ الْمُضْطَرِّينَ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْوَقْتُ مُتَّسَعًا وَالزَّمَانُ مُمْتَدًّا فَتَعْجِيلُ السُّؤَالِ لُؤْمٌ وَقُنُوطٌ.

وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الْمَسْؤولِ فَثَلاَثَةٌ: الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكْتَفِيَ بِالتَّعْرِيضِ وَلاَ يَلْجَأُ إِلَى السُّؤَالِ الصَّرِيحِ؛ لِيَصُونَ السَّائِلَ عَنْ ذُلِّ الطَّلَبِ فَإِنَّ الْحَالَ نَاطِقَةٌ وَالتَّعْرِيضَ كَافٍ، فَأَلْجَأَ إِلَى التَّصْرِيحِ بِالْعِبَارَةِ تَهْجِينًا لِلسَّائِلِ فَيَخْجَلُ وَيَسْتَحِي فَيَكُفُّ. وَالشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَلْقَى بِالْبِشْرِ وَالتَّرْحِيبِ، وَيُقَابِلَ بِالطَّلاَقَةِ وَالتَّقْرِيبِ، لِيَكُونَ مَشْكُورًا إِنْ أَعْطَى وَمَعْذُورًا إِنْ مَنَعَ. وَالشَّرْطُ الثَّالِثُ: تَصْدِيقُ الأَمَلِ وَتَحْقِيقُ الظَّنِّ بِهِ ثُمَّ اعْتِبَارُ حَالِهِ وَحَالِ سَائِلِهِ فَإِنَّهَا لاَ تَخْلُو مِنْ أَرْبَعِ أَحْوَالٍ:

- فَالحْالُ الأولَى : أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ مُسْتَوْجِبًا وَالْمسْئُولُ مُتَمَكِّنًا .
- وَالحْالُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ غَيْرَ مُسْتَوْجِبٍ وَالْمسْئُولُ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ. فَفِي الرَّدِّ فُسْحَةٌ وَفِي الْمَنْعِ عُذْرٌ. غَيْرَ أَنَّهُ يَلِينُ عِنْدَ الرَّدِّ لِينًا يَقِيهِ الذَّمَّ، وَيُظْهِرُ عُذْرًا يَدْفَعُ عَنْهُ اللَّوْمَ.
- وَالحْالُ الثَّالِثَةُ : أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ مُسْتَوْجِبًا، وَالْمسْئُولُ غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ، فَيَأْتِي بِالحْمْلِ عَلَى النَّفْسِ مَا أَمْكَنَ مِنْ يَسِيرٍ يَسُدُّ بِهِ خَلَّةً، أَوْ يَدْفَعُ بِهِ مَذَمَّةً أَوْ يُوَضِّحُ مِنْ أَعْذَارِ الْمعْوِزِينَ وَتَوَجُّعِ الْمُتَأَلِّمِينَ مَا يَجْعَلُهُ فِي الْمَنْعِ مَعْذُورًا وَبِالتَّوَجُّعِ مَشْكُورًا .
- وَالحْالُ الرَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ غَيْرَ مُسْتَوْجِبٍ وَالْمسْئُولُ مُتَمَكِّنًا، وَعَلَى الْبَذْلِ قَادِرًا، فَيَنْظُرُ فَإِنْ خَافَ بِالرَّدِّ قَدْحَ عِرْضٍ، أَوْ قُبْحَ هِجَاءٍ مُمِضٍ، كَانَ الْبَذْلُ مَنْدُوبًا صِيَانَةً لاَ جُودًا .

ثُمَّ لِيَكُنْ غَالِبُ عَطَائِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَكْثَرُ قَصْدِهِ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا الْمُعْطِي إِذَا الْتَمَسَ بِعَطَائِهِ الجْزَاءَ، وَطَلَبَ بِهِ الشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ فَهُوَ خَارِجٌ بِعَطَائِهِ عَنْ حُكْمِ السَّخَاءِ؛ لأَنَّهُ إِنْ طَلَبَ بِهِ الشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ، كَانَ صَاحِبَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، وَفِي هَذَيْنِ مِنْ الذَّمِّ مَا يُنَافِي السَّخَاءَ. وَإِنْ طَلَبَ بِهِ الجْزَاءَ كَانَ تَاجِرًا مُتَرَبِّحًا لاَ يَسْتَحِقُّ حَمْدًا وَلاَ مَدْحًا .

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ الْبِرِّ فَهُوَ الْمَعْرُوفُ، وَيَتَنَوَّعُ أَيْضًا نَوْعَيْنِ: قَوْلاً وَعَمَلاً. فَأَمَّا الْقَوْلُ فَهُوَ طِيبُ الْكَلاَمِ وَحُسْنُ الْبِشْرِ وَالتَّوَدُّدُ بِجَمِيلِ الْقَوْلِ. وَهَذَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ حُسْنُ الْخُلُقِ وَرِقَّةُ الطَّبْعِ. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَحْدُودًا كَالسَّخَاءِ فَإِنَّهُ إنْ أَسْرَفَ فِيهِ كَانَ مَلِقًا مَذْمُومًا، وَإِنْ تَوَسَّطَ وَاقْتَصَدَ فِيهِ كَانَ مَعْرُوفًا وَبِرًّا مَحْمُودًا. رَوَى سَعِيدٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: **(إنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوُجُوهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ)**، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَهُوَ بَذْلُ الْجَاهِ وَالإِسْعَادُ بِالنَّفْسِ وَالْمَعُونَةُ فِي النَّائِبَةِ. وَهَذَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ حُبُّ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ وَإِيثَارُ الصَّلاَحِ لَهُمْ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ سَرَفٌ، وَلاَ لِغَايَتِهَا حَدٌّ، بِخِلاَفِ النَّوْعِ الأَوَّلِ؛ لأَنَّهَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَهِيَ أَفْعَالُ خَيْرٍ تَعُودُ بِنَفْعَيْنِ: نَفْعٌ عَلَى فَاعِلِهَا فِي اكْتِسَابِ الأَجْرِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ، وَنَفْعٌ عَلَى الْمُعَانِ بِهَا فِي التَّخْفِيفِ عَنْهُ وَالْمُسَاعَدَةِ لَهُ. رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: **(إيَّاكُمْ وَالامْتِنَانَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يُبْطِلُ الشُّكْرَ، وَيَمْحَقُ الأَجْرَ)**. ثُمَّ تَلاَ: **لاَتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى** وَهَذَا آخِرُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَاعِدَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَسْبَابِ الإِلْفَةِ الْجَامِعَةِ.

إن المساواة غاية سعت إليها كل النظم الوضعية، وقلما حققتها، بل هي لم تحققها أبداً، فأنظمة الرق والعبودية والإقطاع والرأسمالية هي أنظمة جانحة، حاولت الشيوعية والاشتراكية تصحيح جنوحها فوقعت في

جنوح معاكس، فأخطأت التقدير كما أخطؤوه، وبقيت المساواة حلم غير متحقق. أما النظام الذي رسمه الإسلام فقد تجاوز تحقيق المساواة إلى تحقيق الإيثار، ووضع لذلك قواعد وضوابط تبدو ترفًا أمام عجز الأنظمة الوضعية عن تحقيق ما دونه، وقد أفاض الماوردي في التفصيل كما سبق بيانه.

المبحث الأول: نموذج التوازن في الحياة

شريعة الإسلام هي شريعة الحقِّ الذي لا لُبس فيه، ضبطت الحياة الدنيا ابتغاء ثواب الآخرة، وأرست الحقَّ بين الناس أفراداً وجماعاتٍ وأممًا، وحقَّقتِ العدل بين الناس جميعًا، وبين الإنسان والطبيعة من حوله من ماءٍ وشجرٍ وحجرٍ، وسبقت أحكامها تطوُّر القوانين البشرية، وأرشدت الناس لما فيه خيرهم في آخرتهم ودنياهم.

ورسول الهدى محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم الذي قال الله عزَّ وجلَّ فيه: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** (النجم: ٣-٤). قد قضى قضاء عادلا وضع فيه حدوداً فاصلة بين حقوق الكائنات فبينّ (التوضيح ١):

- المسافة الواجب تركها بين الطريق ومساكن الناس وعمرانهم، وهو ما يسمى بحرمة الطريق حفاظا على حقوق المارة وضمانا لحقوق الساكنين، فجعل المسافة الواجب تركها سبعة أذرع.
- المسافة الواجب تركها بين الزرع بعضه بعضًا ضمانًا لحقها في العيش السليم، فلكل نخلة طول جريدتها أو ورقتها.
- وأنه لسقاية النخل من السيل آداب وترتيب، فالأعلى يشرب قبل الأسفل بحيث يبقى الماء مرتفعا قدر الكعبين، ثم يرسل الماء للأسفل وصولا للبساتين الأدنى أو حتى ينتهي الماء.

- وقضى للمرأة ألا تتصرف بمال زوجها إلا بإذنه.
- وأن للجدتين من الميراث بالسدس مشتركا بينهما.
- وألا ضرر ولا ضرار.
- وأن ليس لعرق ظالم حق، فالناس سواسية.
- وجعل الانتفاع من آبار المدينة مشاعًا بينهم.
- وأنه لا يمنع الاستفادة من الماء الزائد حتى لا يمنع الطعام.
- ووضع نظاما ماليًا للديات من الإبل.
- واستفاد عمر رضي الله عنه من نظام الديات في تطبيق محاسبة التضخم لما غلت الأسعار فيما بعد.

قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
الرَّحَبَة تَكُونُ بَيْنَ الطَّرِيق ثُمَّ يُرِيدُ أَهْلُهَا الْبُنْيَانَ فيهَا، فَقَضَى أَنْ يُتْرَكَ للطَّرِيق فيهَا سَبْعُ أَذْرُعٍ، قَالَ: وَكَانَ تِلْكَ الطَّرِيقُ سُمِّيَ الْميتَاءَ. وَقَضَى في النَّخْلَة أَوْ النَّخْلَتَيْن أَوْ الثَّلَاث فَيَخْتَلفُونَ في حُقُوق ذَلكَ فَقَضَى أَنَّ لكُلِّ نَخْلَة منْ أُولَئكَ مَبْلَغَ جَريدَتهَا حَيِّزٌ لَهَا، وَقَضَى في شُرْب النَّخْل منْ السَّيْل أَنَّ الْأَعْلَى يَشْرَبُ قَبْلَ الْأَسْفَل وَيُتْرَكُ الْمَاءُ إلَى الْكَعْبَيْن ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَاءُ إلَى الْأَسْفَل الَّذي يَليه فَكَذَلكَ يَنْقَضي حَوَائطُ أَوْ يَفْنَى الْمَاءُ. وَقَضَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُعْطي منْ مَالهَا شَيْئًا إلَّا بإذْن زَوْجهَا، وَقَضَى للْجَدَّتَيْن منْ الْميرَاث بالسُّدُس بَيْنَهُمَا بالسَّوَاء. وَقَضَى أَنَّ مَنْ أَعْتَقَ شرْكًا في مَمْلُوك فَعَلَيْه جَوَازُ عتْقه إنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَقَضَى ألا ضَرَرَ وَلَا ضرَارَ، وَقَضَى أَنَّهُ لَيْسَ لعرْق ظَالم حَقٌّ، وَقَضَى بَيْنَ أَهْل الْمَدينَة في النَّخْل لَا يُمْنَعُ نَفْعُ بئْر. وَقَضَى بَيْنَ أَهْل الْمَدينَة أَنَّهُ لَا يُمْنَعُ فَضْلُ مَاء ليُمْنَعَ فَضْلُ الكلأ. وَقَضَى في ديَة الْكُبْرَى الْمُغَلَّظَة ثَلَاثينَ ابْنَةَ لَبُونٍ وَثَلَاثينَ حقَّةً

وَأَرْبَعِينَ خَلِفَةً. وَقَضَى فِي دِيَةِ الصُّغْرَى ثَلَاثِينَ ابْنَةَ لَبُونٍ وَثَلَاثِينَ حِقَّةً وَعِشْرِينَ ابْنَةَ مَخَاضٍ وَعِشْرِينَ بَنِي مَخَاضٍ ذُكُورًا، ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَانَتِ الدَّرَاهِمُ فَقَوَّمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِبِلَ الْمَدِينَةِ سِتَّةَ آلَافِ دِرْهَمٍ: حِسَابَ أُوقِيَّةٍ لِكُلِّ بَعِيرٍ، ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ وَهَانَتِ الْوَرِقُ فَزَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَلْفَيْنِ: حِسَابَ أُوقِيَّتَيْنِ لِكُلِّ بَعِيرٍ، ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ وَهَانَتِ الدَّرَاهِمُ فَأَتَمَّهَا عُمَرُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا: حِسَابَ ثَلَاثِ أَوَاقٍ لِكُلِّ بَعِيرٍ، قَالَ: فَزَادَ ثُلُثَ الدِّيَةِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَثُلُثٌ آخَرُ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ، قَالَ: فَتَمَّتْ دِيَةُ الْحَرَمَيْنِ عِشْرِينَ أَلْفًا: قَالَ فَكَانَ يُقَالُ: يُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْ مَاشِيَتِهِمْ لَا يُكَلَّفُونَ الْوَرِقَ وَلَا الذَّهَبَ وَيُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ مَا لَهُمْ قِيمَةُ الْعَدْلِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

نستنتج مما سبق أنَّ البناء الحضاري الإسلامي يتميز بميزتين:

أولاهما: التكامل في دور كلٍّ من الفرد والجماعة، فلا طغيان لأحدهما على الآخر، كما هو الحال في الأنظمة الشيوعية التي غلّبت دور المجتمع، بينما غلّبت الأنظمة الرأسمالية والبرجوازية والإقطاعية دور الفرد. أما الشريعة الإسلامية فصانت الملكيتين الخاصَّةَ والعامَّةَ بما يضمن عدم الاعتداء عليهما، وغلَّظَ الإسلام عقوبة المعتدي في الحالتين بقطع يد السارق، وبهذه العقوبة الرادعة لن يكون هناك اعتداءٌ بغضِّ النظر عن مَقامِ الفاعل.

الثانية: الشموليَّةُ في البنائين الاجتماعي والاقتصادي، فعند هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة لبناء الدولة الإسلامية كان أول ما بناه

المسجد لتربية النفوس على الفضيلة والإيمان. ثم سأل صلى الله عليه وسلم عن السوق فدلُّوه على سوقٍ لليهود، فأمر بإشادة سوقٍ خاصٍّ للمسلمين أرسى أسسه بقوله: **(هَذَا سُوقُكُمْ فَلاَ يُنْتَقَصَنَّ وَلاَ يُضْرَبَنَّ عَلَيْهِ خَرَاجٌ)**[1]، وهذا دليلٌ على وجوب استقلالية أسواق المسلمين، وحرمة انتقاصها باحتكارٍ أو فسادٍ أو غشٍّ، وما إلى ذلك، وفيه أيضًا دليلٌ على حرمة فرض الرسوم والضرائب على الأسواق، وكذلك حرمة الضرائب بما فيها الضرائب على المبيعات VAT التي يتمُّ تحصيلُها في السوق من خلال اقتطاعها مع عملية البيع (الشكل ٣).

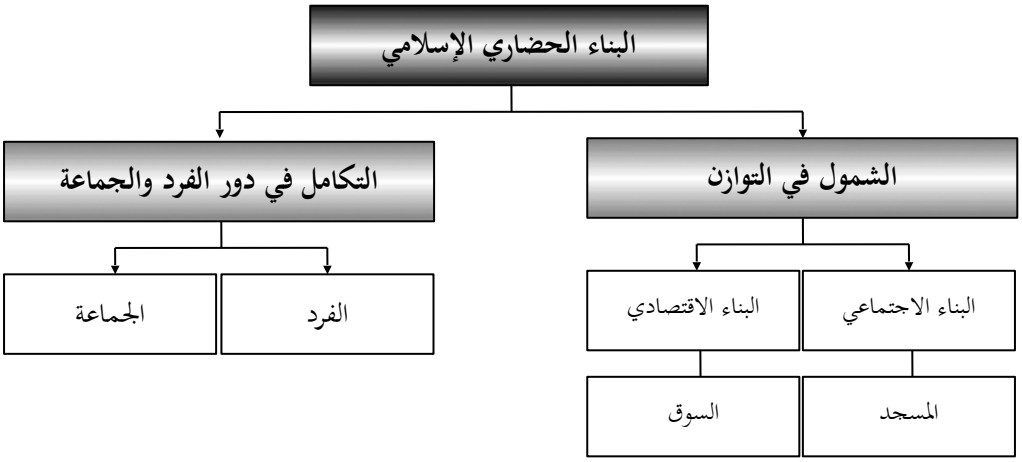

الشكل (٣) صفات البناء الحضاري الإسلامي

يُعدُّ النجاح الجزئي، أي تحقيق نجاح في مكان وسقوط في آخر، ليس

[1] سنن ابن ماجه: حديث ضعيف.

نجاحا كاملاً، والمطلوب من المسلم تحقيق النجاح الكامل، ولا يمكنه ذلك دون طاعة الله تعالى بتطبيق شرعه وتحقيق مقاصده. فعمارة الأرض تكون بما أراده الله. فاليابانيون رغم أنهم حققوا مدنية مذهلة فيها كل ما يمكن أن يُسعدَ به إنسان، لكن الانتحار الجماعي الذي تقوم به جماعات كاملة عندهم هو يأس جماعي من هذه الحياة التي وفرت لهم كل ما يسعدهم فيها!! علمًا أن الانتحار الفردي عادة ممكن، ولا ينكرها المجتمع الغربي بأجمعه.

وبالنظر إلى آيات الله في قرآنه وتعاليم نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم نجد أن حفظ الحياة من الضروريات، وبه يمكن اختراق الحاجز الشرعي كله (بضوابطه الضابطة) منعًا لقتل حياة الإنسان، بل منع قتل الحيوان تسليًا، كما مُنع قطع الشجر أذية، ومُنع إيذاء الماء بتعكيره وتنجيسه، وهكذا!!

فأنى للمنهجين أن يُقارنا، فنحن نميل عقلاً وقلبًا لمنهج الحياة الإسلامي اعتقاداً يقينيًا فيه التسليم والرضا لما فيه من الخيرية الأكيدة التي جربها من سبقنا من المسلمين فكانت حياتهم حياة سعادة؛ فيها النجاح والفتح لهم ولغيرهم ممن عاش معهم على ظهر هذه البسيطة.

إن سرَّ التكامل والشمولية في النظام الإسلامي هو اعتماده على مصدر تشريعي إلهي عادل، هو القرآن الكريم والسنة النبوية. فهو لا يُفرِّق (بين

قواعد مدنية وقواعد تجارية، ولا بين قانون عادي وقانون إداري، بل الكل يسير على أساس الوحدة وعلى أساس الاعتبارات التي يتطلَّبُها هذا النظام) لذلك فإن التطبيق العملي في المحاسبة الإسلامية[1] مطابق للجانب النظري، بينما يلحظ الدارس لكتب المحاسبة الحديثة أنَّ التطبيق العملي منفصل عن البحث النظري ولا ينصاع لنتائجه، وغالبًا ما يسعى الباحثون لتطبيق نتائج أبحاثهم. وهذا ما تلجأ إليه المجمعات المهنية وكبرى الشركات وكبار المستثمرين فتضغط على الدول والحكومات لتبني سياساتٍ محاسبيةً قد لا تتفق مع طبيعتها وشكل الإدارة فيها، والسبب في هذا الانفصام هو عدم توافر روابطَ وأسسٍ ثابتةٍ يجتمع عليها الفكر، ولا عجبَ في ذلك، فاختلافُ بنية المجتمعات وتفاوتُ تجاربها يفسِّرُ عدم التجانس في الفكر المحاسبي.

وقد تأثر العلماء والفقهاء بمنهج التوازن فالدين عصمة الأمر، والدنيا فيها المعاش، والآخرة هي المعاد، أسوةً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)**.

[1] كتابنا، فقه المحاسبة الإسلامية – المنهجية العامة، مؤسسة الرسالة 2004

وقد شرح الماوردي المشكلة الاقتصادية في الفقه الإسلامي عندما تعرَّض للسَّرَفِ والتبذير، فأوضح أنَّ المال يتلفه السَّرفُ والتبذير، وعرَّف السَّرفَ بأنه الجهلُ بمقادير الحقوق، أما التبذير فهو الجهل بمواقع الحقوق، ووازن بين دور العقل كمستنتج ومستقرئ ودور الدِّين كمرجع للقياس فقال: (ولأجل ذلك لم تجُعل الموادُّ مطلوبةً بالإلهام، بل جُعِل العقل هاديًا إليها، والدِّينُ قاضيًا عليها، لتتمَّ السعادة وتعمَّ المصلحة)، فاعترف بدور العقل بالوصول إلى الموارد المتاحة، وجعل ضوابط الدين أساس السلوك والتصرف وصولا لما ينشده الجميع من سعادة وهناءة في العيش، وتحقيقًا لمصالح الجميع لا لجماعة دون أخرى فالكون بيئة واسعة للجميع. ثم يكمل المارودي قائلا: ثم إنَّ الله جلَّتْ قدرتُه جعل سدَّ حاجاتهم وتوصُّلَهم إلى منافعهم من وجهين: بمادة وكسب:

فأما المادة فهي حادثةٌ عن اقتناء أصولٍ ناميةٍ بذواتها، وهي شيئان: نَبتٌ نامٍ، وحيوانٌ متناسلٌ، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: **وَأَنَّهُۥهُوَأَغۡنَىٰوَأَقۡنَىٰ** (النجم: ٤٨) أي أغنى خلْقَه بالمال، وأقنى: أي جعل لهم قِنيةً وهي أصول الأموال.

أما الكسب: فيكون بالأفعالِ الموصلة إلى المادَّة والتصرُّفِ المؤدِّي إلى الحاجة وذلك من وجهين: أحدهما: تقلُّبٌ في تجارةٍ، والثاني: تصرُّفٌ في

صناعةٍ، وهذان هما فرعان لوجهي المادَّةِ، فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه: نماءُ زراعةٍ ونتاجُ حيوانٍ وربحُ تجارةٍ وكسبُ صناعة)[1]، أي أنَّ المادَّةَ هي أساسُ الكسب، وتحقُّقُ الإيراد يكون بالتجارة بها أو بتحويلها صناعيًّا وزراعيًّا، وقد جُعِل الدِّيْن قاضيًا على ذلك الكسب، وبذلك جُعلتِ الهدايةُ للمادَّةِ بالعقل والتجربة مع انتمائهما للمدخل المعياري وهو الدِّينُ بغيةَ تحرِّي الحلال وتمييزه (الشكل ٤).

وقد ذكر أبو جعفر الدمشقي نقلاً عن ابن المقفَّع في كتابه (كليلة ودمنة)، أن السَّعَة في المعاش، والمنزلةَ في الدنيا، والزادَ في الآخرة، يتمُّ تداركُها بأسبابٍ أربعةٍ[2]، وهي تصلح لتكون صفاتِ الاستثمارِ النافع:

[1] الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص 206.
[2] الدمشقي، أبي الفضل جعفر بن علي، الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديها وغشوش المدلسين فيها، دار صادر بيروت، طبعة 1، 1999، ص 76.

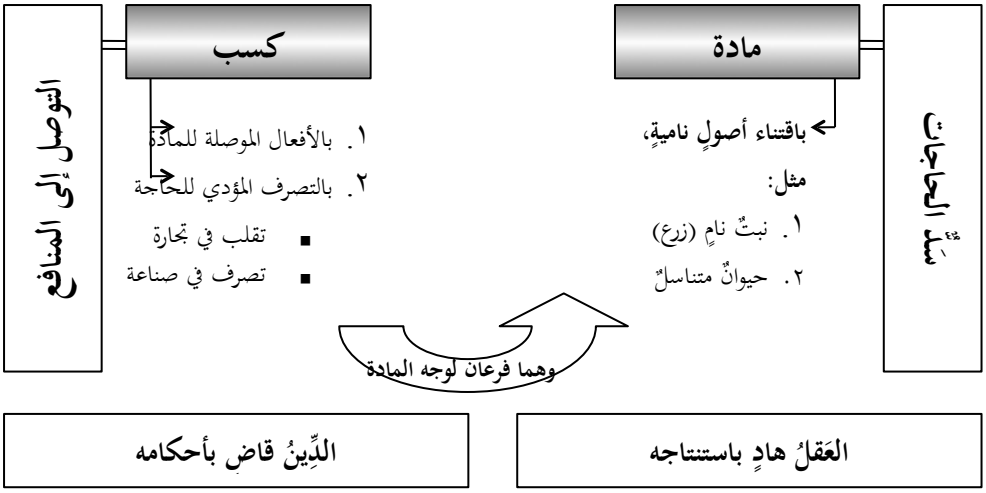

الشكل (٤) المشكلة الاقتصادية عند الماوردي

١ . اكتسابُ المال من معروف وجوهه (أي تحقيق الربح من وجوه الحلال فقط) .

٢ . حُسنُ القيام عليه وعلى ما اكتُسِبَ فيه (أي حُسن الإدارة بما عنده ولما يكتسبُه) .

٣ . التثميرُ له (البحث عن أساليب استثمار المال وتحقيق الإيرادات اللازمة لذلك) .

٤ . إنفاقُه فيما يُرضي الأهل والإخوان وما يعود في الآخرة نفعُه (ترشيد الإنفاق) .

أما ابن قدامةَ فحدَّد صفاتٍ للمستثمر كي تستقيمَ أمورُه وينتظمَ تدبيرُه، وهي: تقوى الله، والدِّرايةُ، والعدلُ، والفقهُ[1]. فالمستثمر الحصيف لا يخرج عن شرع الله تعالى وعنده الخبرة والدِّراية العملية ولديه الفقه اللازم الذي يمكِّنه من تحقيق رسالة العدل المناطَةِ بكلِّ مسلمٍ، فيبتعد عن الشبهات ولا يقعُ في الحرام في ما يُحصِّلُه من إيراداتٍ وما ينفقُه من نفقاتٍ.

وبذلك رسم أبو جعفر الدمشقي وابن قدامة الشكلَ الذي سعى إليه الغزالي في إحيائه وهو (علم الكسب) وجعله مقدِّمةً أساسيةً لكلِّ مكتسبٍ بأنه فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ. وفرضُ العين تقرِّره مقدار الحاجة لكلٍّ من التاجر والموظَّفِ والعامل والطبيب والمهندس وغيرهم من المكتسبين، ولا يتخلَّفُ عن صفة المتكسب سوى العاجز لمانعٍ طبيعيٍّ كالعتَهِ والجنون والصِّغَرِ والمرض، أسوةً بقول الخليفة العادل عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه: (لا يبيع في سوقنا إلَّا من يفقه، وإلَّا أكلَ الرِّبا شاء أَم أبى)[2]. ثم بعد تحصيل ما يحتاجه الفرد من العلم يترتَّب عليه البحثُ عن منهج السَّدادِ الذي يحقِّقُ له الرتبةَ في الاقتصاد. فقال الغزالي: (إنَّ

[1] ابن قدامة، قدامة بن جعفر، 1302 هـ - الخراج وصنعة الكتابة، دار المعرفة بيروت، جزآن، ص 184

[2] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص 127.

تحصيل علم الكسب واجب على كلِّ مسلمٍ مكتسبٍ، لأنَّ طلبَ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه، والمكتسبُ يحتاج إلى علم الكسب)[1]. ثم قال: (لن ينال رُتبةَ الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السَّداد)[2].

وبذلك يتحقَّقُ نموذج التوازن الحياتي الذي أراده ابن المقفع في تحقيق: السَّعَةِ في المعاش، والمنزلةِ في الدنيا، والزادِ في الآخرة، الشكل (٥)

[1] الغزالي المرجع السابق ج2، ص 122
[2] أخرجه الترمذي في سننه، برقم: 2010 عن عبد الله بن سرجس المزني.

الشكل (٥) نموذج الاستثمار المتوازن في الفقه الإسلامي

إذًا لا تكون عمارة الكون إلا بالاستثمار فيها، وقد أرسى ابن قدامة صفاتًا للمستثمر، قابله أبو جعفر الدمشقي بصفات للاستثمار. فصفات المستثمر هي: تقوى الله والدراية والعدل والفقه. وصفات الاستثمار هي: الكسب الحلال وحُسن الإدارة وتحقيق الإيراد وترشيد الإنفاق.

وتحدد هذه الصفات الحاجة إلى علم الكسب عند الغزالي، فالقاعدة عند الغزالي: إن تحصيل علم الكسب واجب على كل مسلم مكتسب، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب. وتكون النتيجة: لم ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة السداد، وهذا انطلاقًا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(السمت الحسن والتؤودة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة)**[1].

وبذلك يتحقق مقصود ابن المقفع في تحقيق التوازن الحياتي الذي يوصل إلى السعادة في ثلاثة أشياء:

(١) السَعَة في المعاش.

(٢) المنزلة في الدنيا.

(٣) الزاد في الآخرة.

[1] سنن الترمذي: ٢٠١٠

ويعتبر الكسب الحلال العمل الصالح الذي إن سبقه إيمان بالله تعالى، فاز العبد

تقوى الله	الكسب الحلال

العمل الصالح = الإيمان + تقوى الله + الكسب الحلال

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النمل: ٩٧)

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص: ٧٧)

الدار الدنيا	الوسيلة: عدم الإفساد	الدار الآخرة

الشكل (٦) نموذج الوازن في الحياة

بوعد ربه وهو الجزاء الأحسن في الآخرة، قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل: ٩٧).

الفصل الثاني

إدارة التغيير

تعتبر التحديات قضية محورية تواجه الإدارة الاستراتيجية، وتمثل إدارة التغيير الاستراتيجي الأداة المتخصصة في تطويع تلك التحديات ومجابهتها. وإن سبر ومعرفة المتغيرات الداخلية والخارجية من بيئة المنظمة؛ سواء المحيطة أو المتوقعة، يساعد في إعادة توجيه الخطط وأهدافها لتتناسب وطبيعة التحديات،

المبحث الأول: سنن التغيير الكونية[1]

تقسم التغييرات إلى ثلاث فئات؛

- زيادة معدلات التغيير؛ كتغير العادات والتقاليد، وتغير أذواق المستهلكين، وتسارع التغيرات التكنولوجية.
- شدة المنافسة المحلية والعالمية.
- نقص الموارد المتاحة.

إن استحكام العادات والتقاليد بين الناس يعتبر خطِراً أحياناً؛ مثال ذلك؛ انحراف البعض منهم عن عبادة الله الواحد الأحد، وتزداد الخطورة عندما تصبح تلك الانحرافات ثابت من ثوابتهم كعبادة الأوثان، وقد حارب كتاب الله تعالى تلك الانحرافات، وأرسل رسلاً لهداية الناس وإعادتهم إلى الطريق الصحيح. والملفت للنظر أن أكثر المتمسكين بالعادات والتقاليد يشتركون بطريقة إجاباتهم المتشابهة؛ بأنهم ألِفوا ما هم عليه، وأنهم لا يرغبون بتغيير واقعهم مع علمهم بفساده، ومن شواهد ذلك:

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (البقرة: ١٧٠).

[1] للمؤلف، الإدارة الاستراتيجية، ...

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (المائدة : ١٠٤) .
- قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (يونس : ٧٨) .

وهذا خطأ أكثر من استراتيجي، لأن المصير المحتوم مذكور في كتاب الله تعالى : ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (الصافات : ٦٨–٧١) .

وبما أن حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام مؤقتة بين الناس، فسيبقى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام قائمة بين الناس، ويبقى الالتزام بها طوعيٌ، فإن زاد الطغيان بين المفسدين المخالفين، فقد أوجد الله تعالى سُننًا كونية تكفل تصحيح حركة الناس، ويمكننا تسمية بعضها بالسُنن الكونية للتغيير نحو الأصلح .

فالتغيير سنة من سنن الله تعالى في خلقه، يقول المولى عز وجل : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (الرعد : ١١)، أي أن التغيير يبدأ من الداخل، أي من المكلف نفسه، فالله خلقنا على الفطرة الحنيفية، وخلق الكون موزونًا لا خلل فيه، لقوله تعالى : وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (الحجر: ١٩)، ثم ظهر الفساد بما يفعله الناس، ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم: ٤١)، وعلى المفسد الذي غيّر أن يقوم بإصلاح ما أفسده، يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (يونس: ٨١).

أما عن تنفيذ سنة التغيير فقد جعل الله سنة التدافع بين الناس أداة لتحقيق ذلك، قال تعالى: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ (البقرة: ٢٥١)، إثر ذلك تحكم سنة تمييز الخبيث من الطيب، يقول تعالى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ (الأنفال: ٣٧)، ثم تحكم سنة بقاء الصالح وتنزع ما دونه، يقول تعالى: كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد: ١٧). فتعود الأمور للتوازن من جديد حتى يُفسد الناس؛ لتتكرر سنن الله تعالى فيهم.

وقد يكون التنفيذ تنفيذاً بالاستبدال، فيأتي الله بقوم آخرين، وهذا لا يُعجزه سبحانه وتعالى ولا يَضرّه. يقول الله تعالى: إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(التوبة : ٣٩)، ويقول عزّ من قائل : هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (محمد : ٣٨) .

المبحث الثاني: عندما تدق إدارة التغيير جرس الإنذار

تختزن أمثال الشعوب الكثير من الدلالات، فيُقال: سُبحان من يُغيِّر ولا يَتغيَّر، أي هناك من هو مُنزَه عن التغير، وهناك من يخضع لنواميس التغير، فالمُنزَه هو الخالق البارئ، أما من هم دونه فمخلوقاته يُغيّرهم كيف يَشاء، أو يُغيّرهم بنواميسَ وضعها لهم.

فمثلاً نقول عن حدود المعادلة الرياضية التالية: (س = ع) أن (س) هو متغير تابع، وأن (ع) هو متغير مستقل، والمتغير التابع تتوقف حاله على الأوضاع التي ستقف عليها تغيرات (ع) والتي توصف بأنها مستقلة (نسبيًا).

وبازدياد عدد ونوع حدود المعادلة السابقة، تزداد صعوبة تتبع المتغيرات التابعة لارتباطها بعدة متغيرات مستقلة، ويتشعب الأمر وتزداد احتمالاته إذا ارتهن حال تلك المتغيرات المستقلة بمعادلات تخصها، كأن تكون المعادلة كالآتي: (س = ٣ ج + ٧ ك – ع).

إن كان ذلك في الأمور المجردة، فكيف تكون دراسة المتغيرات بين البشر الذين تتنوع آراؤهم وتختلف أمزجتهم؟ وكيف يمكن إدارة التغيرات فيما بينهم خاصة إذا كانت عينة الدراسة مجتمعًا مؤلفًا من خمسين إلى مائة مليون إنسان مثلاً؟ وكيف يمكن تصنيف حالاتهم بين تابع ومستقل؟

إذا توقفنا عند بعض الحالات لنتأمل ما فيها من دروس وعِبر، نجد أننا تارة نستطيع الفهم، وتارة يغيب الفهم عنا، وأحيانا يُصيبنا العَجب من بعضها.

فمثلاً، لا يغيب عن بالنا سلوك خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو القائد العسكري الفذّ، الذي ما أخبرنا التاريخ عنه إلا انتصارات وحنكة ودهاء، وقد جاءه كتاب الخليفة عمر رضي الله عنه وهو يقود خضم إحدى معارك فتح الشام، وكان مضمون الكتاب عزله عن القيادة وتولية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

إن فهم هكذا صورة قياسًا على ما يحصل عادة هو أمرٌ صعبٌ للغاية، فمن هو في موقف خالد رضي الله عنه قد لا يكون مضطرًا لتنفيذ هكذا أمر في الوقت الحرج، فهو ممسك بالسلطة والقوة والأتباع. وقد يغيب عن كثيرين فهم الصورة واستيعابها، فكيف يُفهم تصرفه رضي الله عنه؟ لقد كتم الخبر لغاية الليل ثم ذهب إلى أبي عبيدة ليسلم عليه كما يُحيي الجندي قائده، قائلاً: عُيّنتَ أنت القائد، وصِرتُ أنا جندي عندك، مُرني بما شئت يا أبا عبيدة.

فلله درّك يا خالد، لقد أتعبت من بَعدكَ.

وبالعودة إلى تشبيهنا التجريدي للقياس والفهم، فإن خالداً عبدٌ من عباد الله، فهو (متغير) لكنه (متغير تابع) لمتغير أعظم منه حنكة ودراية واستقلالاً أي عمر رضي الله عنه الذي يعلم يقيناً أن تغيير هكذا قائد فذ في هكذا وقت قد يقلب موازين معركة عظيمة الشأن في حياة الأمة، لكنه موقن بأن النصر من عند الله، وما خالدٌ سوى عبد من عباده.

إن عمر رضي الله عنه بوصفه متغيراً تابعًا قد أخذ قراراً لإفهام الناس وإقناعهم بألا يتعلقوا بأشخاص، لأنهم مجرد أسباب، فقد خشي على إيمان بعض الناس الذين من كثرة إعجابهم ردوا أمر تتالي الانتصارات لخالد رضي الله عنه من دون الله، فأراد أن يُعطيَهم درسًا بأن الإيمان لا يكون بالأسباب بل برب الأسباب ومدبرها، فكان تغيير خالد رضي الله عنه تكتيكًا، ليحافظ على إستراتيجية أكبرَ وأعظمَ شأنًا وهو إخلاص الإيمان لله تعالى.

ومضت المعركة ومضى غيرها من المعارك والمسلمون في انتصاراتهم، وبقي عمرٌ أميراً للمؤمنين وبقي خالدٌ سيفُ الله المسلول، وكذلك بقي أبو عبيدة وغيره من المقاتلين، فكلٌ يعلمُ محله من الإعراب ويدرك أهمية القيام بمسؤولياته في مجتمع يدور في فلك الإيمان برب كل شيء ومليكه.

إن هذه المواقف مدعاة لفهم إدارة التغيير، فما ذكرناه يمثل مدرسة أصلها أجلّ وأعظم. إنها مدرسة الصديق رضي الله عنه، الخليفة الأول، فعندما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، هاج الناس وتغيرت أحوالهم، لكن موقف أبي بكر رضي الله عنه أعاد الأمور إلى نصابها فخطب الناس قائلاً: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، فذكّرهم بأن التعلق يكون بالله دون غيره ولو كان خير خلقه.

إذاً تنطلق إدارة التغيير من أسس لا يجب أن تحيد عنها، وأهمها ضرورة وجود ثابت تُشدّ إليه الرحال، وإلا تغير كل شيء ومال ميلاً عظيماً، فإذا كان الميل ميل أشخاص سهل تدارك الأمر، أما إذا مالت الأمة فالخسارة تكون غير قابلة للتعويض، فكم من أمم اندثرت واندثر ذكرها!

إن منطلق أبي بكر رضي الله عنه في إعادة الناس إلى أصل عظيم وإلا هلكوا واندثر ذكرهم، هو نفسه منطلق عمر رضي الله عنه في تذكير الناس بثباتهم وتعلقهم بالله لا بقائد معركة، فالمعارك كثيرةٌ، والقادة كُثرٌ.

ولإكمال المشهد سنتابع العودة خلفاً، وهو حوار حصل في بداية الدعوة عندما شرع رسول الهدى صلى الله عليه وسلم دعوته في التغيير والإصلاح، حوار دار بينه صلى الله عليه وسلم وبين عمه أبو طالب، الذي عرض عليه كل ما يبغيه مُصلح أو داعية، فأخذه إلى آخر ما ينشده الناس

فعرض عليه أن يكون مَلكًا، فالمَلك يمكنه تنفيذ أية تغييرات يشاؤها بعد أن يتربع على عرش مُلكه. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجابه جوابًا غير ما يتوقعه قائلاً: **(يا عمَّاهُ، واللهِ لَو وَضعوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شمالِي علَى أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُهُ)**.

عندئذ فهم العم المحنك أن ابن أخيه يسعى لما هو أعلى وأرفع شأنا من السيادة والمُلك. فاستوعب أنه (تابع متغير) وأن ابن أخيه أكثر منه استقلالاً، لذلك لم يتركه وشأنه، بل ذهب يدعمه ويحميه.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد نقل الناس من مراتب عبادة العباد إلى مراتب عبادة رب العباد، ومن نار تلظى إلى جنة السعادة، ليفلح الناس في الدارين. ولو رضي صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكًا، لغيَّر فئة من الناس في تلك الفترة، ثم سرعان ما يذوب ذلك التغيير الحادث وقد يندثر، لكنه آثر إحداث تغييرٍ لا أمد له، فأرسى تعاليم وأسسًا ثابتة المصدر لا تتغير بتغير الظروف، ثم بنى من جاء بعده من الأتباع على بنائه فسارت السفينة تشق عُباب بحر الحياة لا تغيّر الرياح اتجاهها مع ما تفعله في أشرعتها يُمنة ويُسرة رغم تغيّر مشارب قادتهم وملوكهم وزعمائهم عبر التاريخ.

لقد استوعب أولئك الركب أن لله سننًا غالبةً، فسُنة التدافع قائمةً بين مخلوقاته جميعًا ونتاجها التغيير بشكل مؤكد، وإن تتابع التغييرات تحكمها سُنةٌ يختصرها قوله تعالى: **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** (الرعد: ١٧). لذلك فإن ما ينفع الناس ماكثٌ في الأرض ومُستقِرٌ فيها شاء من شاء وأبى من أبى. وبين السُنتين السابقتين سُنة تمحيص، يقول المولى: **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** (آل عمران: ١٤١)، وكذلك سُنة تمييز، يقول المولى: **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (الأنفال: ٣٧).

خصائص التغيير:

الـتغيير يـكون عـلى مسـتوى المجـتمع كـكل والجـميع يتحـمل مـسؤولـية التغيير:

يبدأ التغيير بتغيير كل شخص لذاته، فعلى كل واحد أن ينظر في نفسه وليتهمها بالتقصير، فهي بداية صعبة وقاسية على النفس البشرية التي لا تقرّ بضعف ولا تعترف بخطأ يقول الله تعالى: **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (الأنفال: ٥٣).

التغيير يكون بالتغيير مع التحسين:

يصيب التغيير كل حال، حتى الإيمان ينتهي ويبلى ويجب تجديده، فإن أصاب التغيير الإيمان ولم يُلحقه بالتجديد كان فساداً، فإذا فسد وجب إصلاح حاله وصيانته. والصيانة في هذا المقام هي إعادة الشيء إلى ما كان عليه وليس تحسينها، فإن حَسُنت كنا أمام تغيير إيجابي لما فيه من تطور وتحسين. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جوفِ أحدِكُم كمَا يَخْلَقُ الثوبَ، فاسألُوا اللهَ تعالى: أنَّ يجددَ الإيمانَ في قلوبكُم)**.

ويقول الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد: ١١). وكلمة قوم في معجم لسان العرب: هي الجماعة من الرجال والنساء جميعًا، مما يعني أن ذلك يشمل كل المجتمع المؤلف من أفراد، أو يشمل الأفراد الذين يُكونون بمجموعهم المجتمع.

لذلك يُفهم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من رأى منكراً فلْيغيِّرهُ بيدهِ، فإن لمْ يستطعْ فبلسانه، فإن لمْ يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمانِ)**، ضرورة تغيير ما يُسيء للناس ونبذ ما يُنكرونه.

ويكون التغيير بالدفع بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** (فصلت: ٣٤). لذلك إن كانت جهة التغيير نحو الأفضل أو الأصلح كان بمثابة الضمان لبقاء نتائج التغيير واستمرارها، ومثال ذلك ترك العادات السيئة كعادة البخل مثلا، فالله تبارك وتعالى يدعونا إلى تغيير هذه العادة لما لها من آثار بغيضة اجتماعيًا واقتصاديًا، فإن لم يَستجب الناس لذلك، فقد يكون الزوال، كما في قوله تعالى: **هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم** (محمد: ٣٨).

التعليم جوهر التغيير:

إن سمة أنبياء الله صلى الله عليهم وسلم كانت تغيير الواقع الذي عليه الناس، فغالبًا ما يركن الناس إلى ما هم عليه، ثم غالبًا ما يجعلون العُرف الذي اعتادوه قوانين صارمة لا تقبل التغيير فتصبح مُسلمات غير قابلة للنقاش. وأمثلة ذلك كثيرة.

لقد بُعث صلى الله عليه وسلم وحيداً، وبدأ بتغيير ما حوله، ونهج في ذلك النهج القرآني العظيم في إدارة التغيير فنقل الناس من الجهل إلى

العلم، ومن الشرك إلى عبادة الواحد الأحد، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الاحتراب إلى السلم، ومن السفاهة إلى العقلانية، فكان خير مَثل، فهو:

- مارس الإدارة بالسلوك وسمي ذلك بالسنة الفعلية فكان أول من يُطبق، وبه يُقتدى.
- مارس الإدارة بالحب فأحبه أتباعه وتفانوا في العمل والإخلاص معه.
- كان معلمًا مستمرًا لا يترك موقفًا إلا وجعل منه درسًا وعبرةً، فالتعليم جوهر التغيير.

استمرار التغيير غير مرتبط بأشخاصه:

امتدت فترة التغيير التي قام بها صلى الله عليه وسلم، ثلاثة عشر سنة قضاها في مكة، وعشر سنوات في المدينة، أسس فيهما أسسًا نعيش عليها حتى الآن ونقتدي بها، وبها فُتحت آفاق الدنيا وانتشر الإيمان والأخلاق، ومازالا ينتشران رغم ضعف أتباعه صلى الله عليه وسلم وهوانهم على الناس، مما يدل على فعاليّة التغيير الذي أرساه. فالتغيير لم ينطلق من استمرار الأشخاص القائمين عليه بل انطلق من ثوابت عادلة فيها الخير للجميع (مسلمين وغير مسلمين). وحسبنا أن نتذكر اليوم الدعوة بعودة العالَم غير المسلم إلى القواعد الاقتصادية والمالية التي أرساها الإسلام عليه بشهادة أكابر غير المسلمين وعلمائهم.

فلنتصور كيف كنا الآن لو أننا حافظنا على التمسك بجميع تلك الأسس والقواعد؟

التغيير السلبي:

تتبعنا التغيير بالنهج القرآني وكان تغيراً إيجابياً وتحسينياً مفيداً للناس، فسنن الله غاياتها خير الناس وسعادتهم. فكيف يكون التغيير سلبياً؟

يكون التغيير سلبيا بمخالفة أوامر الله، ويتبنى هذا النهج الفريق الذي يقوده الشيطان. يصف الله تعالى ذلك النهج بلسان إبليس الذي يسعى إلى التغيير المخالف لأوامر الله: **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ** (النساء: ١١٩).

أنواع التغيير:

يُقسم التغيير إلى نوعين:

أولا: تغيير داخلي، ويتألف من تغييرين:

١. تغيير إيجابي: وهو التغيير نحو الأفضل، وفيه يبدأ الإنسان التغيير من نفسه، لا أن يطالب به الآخرين ثم لا يطبقه. كقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد: ١١).

٢ . تغيير سلبي : وهو التغيير الذي يؤدي إلى الفساد مما يؤدي إلى زوال نعم الله، كقوله تعالى في : **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (الأنفال : ٥٣) .

ثانيا : تغيير خارجي : وهو انعكاس للتغيير الداخلي ويظهر بتطبيقه، ويُقسم مثله . فحتى يستقيم أمر الكون ويبقى صالحًا للسكنى لابد من تقويم نتائج التغيير السلبي . يُلخص ذلك تطبيق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(من رأى منكراً فلْيغيِّرهُ بيده ، فإن لمْ يستطعْ فبلسانه ، فإن لمْ يستطعْ فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان)** .

إن نتائج التغيير السلبي هي الفساد، فالكون متوازن، لكن سلوك الناس المخالف هو ما يُفسده، يقول الله تعالى : **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (الروم : ٤٠)، ومن ذلك مثلاً : أن الإنفاق ينبغي أن يكون باعتدال، فالزيادة فساد والتقتير فساد، يقول الله تعالى واصفًا صفات عباد الرحمن : **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** (الفرقان : ٦٧) . فزيادة الإنفاق مؤداه تضخم الاقتصاد، وانخفاضه مؤداه انكماشه، والأمثلة كثيرة .

إن مسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين منهجه الإصلاحي في التغيير. فقصة الطائف تُعلمنا بُعد نظر المصلح وقيمة هدفه، لذلك تجده يتحمل الكثير من أذى الناس لقاء أن يُغيروا أحوالهم. وأهل الطائف أهانوا الرسول وأدموه، ومع ذلك رفض الانتقام منهم لما جاءه جبريل وملك الجبال، وقال له: **(إن شئتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشبَينِ أي الجبلين)**؟ رفض لأنه لم يفقد الأمل من أهل الطائف رغم ما فعلوه، بل عقد أمله على الجيل القادم ومن بعده منهم، فقال: **(بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد اللهَ وحده، لا يشركُ به شيئًا)**.

والمتأمل لقوله صلى الله عليه وسلم: **(فو الله لأَن يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ)**، وفي رواية: **(خير مما طلعت عليه الشمس)**. يجد توجيهات كثيرة مؤداها أن تهدي رجلاً! ولم يقل كل المجتمع أو نصفه، أما الأجر فخير مما طلعت عليه الشمس، وبما أن الشمس تطلع كل يوم على المجرة الشمسية وليس فقط على الكرة الأرضية، فلنتصور فعل التغيير نحو الإصلاح وما يقابله. هكذا هو حال المصلحين، يتحملون كل أنواع الأذية دون ملل، إنهم أناسٌ إستراتيجيون ينظرون بعيداً.

التغيير يطال الأمة ودينها:

إن الأمر ليس منوطًا بالنفس، بل إن التغيير يطال الأمة ودينها أيضًا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في: **(إنَّ اللَّهَ يبعَثُ لِهذِه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سَنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها)**. والتجديد هنا يكون بإزالة كل دَرنٍ عالق بسبب العادات والتقاليد وانتشارها حتى غدت وكأنها من الدين. ويكون ذلك بولادة مُجدد في آخر كل قرن، وهذا المجدد قد يكون فرداً أو مجموعة أفراد يشكلون مدرسة تجديدية يستفيد منهم الناس ومن أعمالهم بإحياء سنن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالرد على الشبهات التي يثيرها المغرضون من هذا الدين، ومن ذلك صمود الإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن مثلاً. ولعل أهم ما يتناوله التجديد:

١. تجديد ما اندثر من الدين.

٢. نشر فقه النوازل وإنزال الأحكام حسب مقتضياتها الواقعية، فالفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان.

٣. تصحيح المفاهيم المغلوطة، التي تحصل بسبب إتباع الهوى أو الشبهات، أو تشديد غير مبرر، أو ترخيص غير منضبط، فيكون التجديد بإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

مستلزمات التغيير:

لكلّ عمل أدوات يعتمد عليها في سبيل إنجاحه، والتغيير سلوك يعتمده الإنسان لذا يحتاج إلى صفات نفسية خلقية وعقلية لتكون نتائجه إيجابية ومن أهمها:

١. الصبر: فالدعوة للصلاة مثلاً تحتاج اصطباراً كما قال تعالى: **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** (طه: ١٣٢)، فالتغيير لا يحصل فوراً. ويلاحظ ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (**علِّموا أولادَكم الصلاةَ إذا بلغوا سبعًا واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا وفرِّقوا بينهم في المضاجعِ**)، كما كان تحريم الخمر على مراحل حتى يعتاد الناس التغيير.

٢. أن يباشر قائد التغيير الأمر بنفسه، فلما استلم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة كان الفساد عريضًا، فطبق على نفسه وأهل بيته التغيير ثم أقاربه ثم سأل الناس ذلك. وللعلم دام حكمه حوالي سنتين وأربعة أشهر عادت فيها الخلافة عصية قوية ساد فيها العدل وفاض المال وشهد بذلك القاصي والداني والتاريخ حافل بشواهده. لذلك لا يصح أن يُقال بأن التغيير يحتاج عصًا سحرية أو أنه يستلزم سنوات طوالاً.

٣ . التمسك بالثوابت : ومن ذلك قصة الفاروق عمر رضي الله عنه، حيث خرج رضي الله عنه إلى الشام، ومعه أبو عبيدة، فأتوا على مخاضة، وعمر على ناقة له، فنزل وخلع خفيه، فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا! ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال : أوه، ولو يقول ذا غيرك يا أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد . إنا كنا أذلّ قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله . فلله درّك يا أمير المؤمنين، رغم الانتصارات والفتوحات بقيت متواضعًا مذلاً لنفسك أمام خالقها حتى لا يكون للكِبر طريقًا إلى نفسك الطاهرة . لكن وتماشيًا مع التغيير الحاصل في البلاد، نصحه أبو عبيدة ليراعي بروتوكولات الزعماء، لكن الفاروق آثر أن يُسند التغيير وما تبعه من نجاحات للإسلام فهو مصدر العزّ، ولن يغيره ضرورات شكلية يرضى عنها الناس ويبجلونها .

رجال التغيير رجال إيجابيون :

رجال التغيير هم أناس إيجابيون يسعون إلى إعمار الأرض والقيام بواجباتهم التي خُلقوا من أجلها لذا فهم :

- ينظرون للنصف الملآن من الكأس: يقول صلى الله عليه وسلم: **(يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا، وتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفا)**.
- يفكرون في الحلول، بعكس السلبيين الذين يفكرون في المشكلة.
- أفكارهم لا تنضب بعكس السلبيين الذين لا تنضب أعذارهم.
- يساعدون الآخرين بعكس السلبيين الذين يتوقعون المساعدة من الآخرين.
- لديهم آمالٌ يحققونها، بينما السلبيون لديهم أوهام تبدد كل أمل.
- يرون في العمل أملاً، أما السلبيون فيرون فيه ألمًا.
- ينظرون إلى المستقبل ويتطلعون إلى ما هو ممكن، أما السلبيون فينظرون إلى الماضي ويتطلعون إلى ما هو مستحيل.
- يناقشون بقوةٍ وبلغةٍ لطيفة، أما السلبيون فيناقشون بضعفٍ وبلُغةٍ فظة.
- يتمسكون بالقيم ويتحاشون الصغائر، أما السلبيون فيتشبثون بالصغائر ويتنازلون عن القيم.
- مُتفائلون في نظرتهم للحياة ومجرياتها، أما السلبيون فمتشائمون ونظرتهم للحياة سوداوية.

فسُبحان من يُغيِّر ولا يَتغيَّر، أرسل نبيه صلى الله عليه وسلم ليُغير حال الناس بالحسنى، فكان سلوكه مقياس التغيرات وسندها، راعى مصالح الناس، وعلّمهم الأخلاق الحميدة، وكان الأسوة الحسنة بالتطبيق.

لقد دامت التغييرات التي أرساها قرونًا طويلة ومازالت وضاءة وستبقى ما شاء الله لها أن تبقى، وهذا دليل صحتها وجودتها. وحريّ بالناس العودة إليها وخاصة المسلمين منهم، فحالهم اليوم غير سارة، وهم أحوج ما يكونون إلى نهج التغيير الصحيح.

إن التجارب الاجتماعية ليست كالتجارب التجريدية أو العلمية، فهي تستغرق زمنًا طويلاً وتكلفتها باهظة على الجميع، والتعلم بالممارسة غير مسموح فيها، لما فيه من هدر لحقوق الناس.

فانتبهوا أيها الناس، فعندما تدق إدارة التغيير جرس الإنذار: غَيِّرواْ قَبْلَ أَنْ تُغيَّرواْ.

المبحث الثالث: الدفاعات الذاتية مقابل التغييرات الجوهرية

الانتماء يكون لحضارة مشتركة بثقافات وعادات وتقاليد متعددة فالكردي والبربري والعربي... أكرَمَهم عند الله أتقاهم، يقول الله تعالى: يَاأَيُّهَاالنَّاسُ إِنَّاخَلَقْنَاكُممِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَاللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣)، وكلهم محتكمون لشريعة الله، وليس كل منهم سيد الكون بل هو خليفة لسيد الكون وهذا الفارق بين العلمانية والإسلام، ففي الأولى الإنسان هو سيد الكون وفي الثانية هو خليفة لسيد الكون وخالقه. أي أن منظومة القيم الإيمانية هي التي تحكم الحضارة الإسلامية مع تعدد ما تحويه من ثقافات بالمعنى القيمي وليس فقط بالمعنى العقدي.

لقد أوجد الإسلام أدوات عديدة تكفل له ديمومة لبقاء والدفاع الذاتي أما التغييرات التي قد تُصيب المسلمين، ومن ذلك:

١. **التجديد**: تتابع المجددين كل مائة عام، يقول صلى الله عليه وسلم:

(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها).

٢. **زيادة الولادات**: قال صلى الله عليه وسلم: (**تزوَّجوا الودودَ الولودَ ؛ فإني مُكاثِرٌ بكم**).

٣. **اطمئنان القلب**: يستفتي المرء نفسه، فالقلب والنفس يطمئنان إن كانت فطرتهما صحيحة، يقول صلى الله عليه وسلم: (**استفت نفسك، البرُّ ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس، وأفتوك**).

٤. **تغيير المنكر**: يقول صلى الله عليه وسلم: (**من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**).

٥. **الصدح بكلمة الحق**: يقول صلى الله عليه وسلم: (**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**).

٦. **التفكير دومًا ببذل النفس رخيصة في سبيل الله**: يقول صلى الله عليه وسلم: (**ما خالط قلب امرئ مسلم رهج في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار**).

٧. الدخول للإسلام متاح والخروج منه ارتداد جزاؤه القتل.

٨. الغيرة.

٩ . الضمير.

١٠ .ترك باب التوبة والاستغفار مفتوحا يضمن عودة الفرد إلى رشده.

المبحث الرابع: القيادة التكليفية هي أداة التغيير الناجح

يعتبر وجود شخص لديه القدرة على التأثير في الآخرين أمر ضروري؛ لتحفيزهم على توحيد الجهود الجماعية وصولاً لغاية محددة. وهذه الشخصية تُميزها صفات تجعل منها مؤثرة في غيرها، وتثير إعجابهم. وقد اختار الله تعالى موسى عليه السلام وصَنَعه على عينه وألقى عليه محبته، فقال لأمه: أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (طه: ٣٩).

قد يجمع القائد بين كونه قائداً ومديراً ضمن الهيكل التنظيمي، وقد يتم إسناد العمل الإداري لمدير غير القائد. وعمومًا؛ إذا توفر القائد في العمل المؤسسي، فإن تغييرات واضحة ستُلاحظ في سلوك تلك المؤسسات.

فنبي الله سليمان عليه السلام آتاه الله من كل شيء علمًا، فكان قائداً مقتدراً: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (النمل: ١٦-١٨).

وكان عليه السلام مديراً تنفيذيًا فاعلاً، يتفقد رعيته ويزجر المخالف منهم بعقوبات هو قادر عليها، فالنملة التي نبهت قومها من خطر التحطيم تحت أقدام سليمان وجيشه ظنًا منها أنه غير آبهٍ بها، لاحظها متبسمًا وشكر لله على ما آتاه من قدرة وحكمة، وهو نفسه عليه السلام الذي يتفقد رعيته التي ينظم صفوفها: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (النمل ٢٠-٢١).

إن القائد يجيد قراءة ما حوله قراءة استراتيجية متأنية مما يجعله يسير بمؤسسته إلى برّ الأمان أو يجنبها ويلات قد تنهي مسيرتها ووجودها؛ وكلما كانت الخطط الاستراتيجية مرنة؛ أتاحت للقائد حرية التحرك ضمن نطاق تلك المرونة؛ فالأزمات التي تمر بها المؤسسة تجعلها بحاجة لإدارة أزمات، والتغيير المستمر الذي صار بيئة طبيعية لأي مؤسسة يحتاج لإدارة تغيير، وكل ذلك يحتاجه القائد لإحداث ما يلزم، فيتكيف مع تلك الأحداث ليحافظ على إنجاز مؤسسته وغاياتها. وتكون القرارات التي يتخذها القائد في تلك الفترة متكيفة مع المجريات المحيطة: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (الفتح: ١٠)؛ سواء أكانت

تلك الأحداث قد سببتها أزمات أم تغييرات استوجبت تحول القائد نحو ما هو أفضل حسب رؤيته.

وتعتمد القيادة التكيفية على تلمس القائد لنقاط الانعطاف والبحث عنها؛ باعتبارها نقاط استشعار للتحول إلى حالة أفضل لاكتساب السبق في التحول نحوها وتغيير مسار المؤسسة[1]؛ فاتخاذ القرارات الأفضل في الوقت الأنسب وخاصة في ظل الظروف الغامضة، مهمة يتميز بها الناجحون.

ويعتبر التفكير الاستراتيجي سمة القيادة عمومًا والتكيفية خصوصًا، وذلك لمعرفة القائد لنقاط ضعف مؤسسته ولنقاط قوتها، وماهيّة الفرص الممكن تحقيقها، والتهديدات التي يمكن تفاديها وتجنبها.

كل ذلك كان واضحًا في خطة الرشد[2] التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية، فقد تلمس نقاط الانعطاف في الأحداث التي حصلت في طريقه واستغلها أفضل استغلال، وتلمس حذق المفاوضين في إرساء الصلح، ونجح في جعله في خدمة هدفه الأسمى حيث الصلح المنشود فاعترض عليه كبار صحابته رضي الله عنهم، لكن

[1] للمزيد يراجع مقالنا للعدد ٧١ شهر نيسان؛ لمجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية: استراتيجيات الابتكار ومنهجية الابتكار المُزَعزع، رابط.

[2] للمزيد يراجع مقالنا للعدد ٩٧ لعام ٢٠٢: خطة رشد صلح الحديبية (لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)، رابط.

رؤيته الاستراتيجية الفذة كانت تنشد الفتح العظيم والنهائي لجزيرة العرب كلها.

ويعتقد البعض أن القيادة التكيفية تقدم حلولاً عملية لمعالجة قضايا تصعب على النظم التقليدية معالجتها. لذلك لا يركز القادة التنفيذيون الراغبون بالتفوق على تحديات أهدافهم الطموحة على الهياكل التنظيمية وقواعدها؛ باعتبارها شيئًا ثابتًا لا يمكن تغييره، بل يتفاعلون مع جميع المستويات ولو خارج إطار خطوط الاتصال التي رسمتها الهياكل التنظيمية المتاحة؛ ليُحدِثوا التأثير اللازم بوصفهم قادة مميزين؛ كتحفيز موظفيهم على تحقيقها.

لكن هل تحتاج الإدارة التكيفية إلى:

- تبنِّي استراتيجية تكيفية Adaptivestrategy[1] تتغير مع تطور السوق، لتحقق نتائج أفضل في جميع المراحل؟.
- التكيّف مع المستجدات الطارئة يفرض نقل الهدف الاستراتيجي؟

إن الجواب على ذلك يعتمد على مدى توفير متطلبات تطوير استراتيجية تكيفية؛ كالدراية بالتوقيت الأمثل للانتقال من مقاربة إلى أخرى، أو بتحديد نقاط التحول؛ مثال ذلك: عندما يبدأ مستوى تعقيد المنتجات

[1] مرجع سابق.

بالثبات بعد ارتفاعه. وقد لوحظ ذلك في صلح الحديبية حيث كان القائد مرنًا دون تنازل، فتخلى عن أهداف مرحلية وسعى نحو الهدف الأكبر بتأخير زمني لا يُقدم ولا يُؤخر.

ولوضع استراتيجية تحظى بميزة ثراء المعلومات يمكن إتباع ومراعاة عدة خطوات مثل: تطبيق الاستراتيجية، واحتضان التغيير الجذري. حيث يمكن التقاط إشارات التحويل من البيانات المتاحة في السوق؛ كإعادة هندسة منتجات المنافسين، وتحليل براءات الاختراع، وإجراء مقابلات وحوارات مع الخبراء لتوجيه القرارات التشغيلية. لإن الاستراتيجيات التكيفية هي استراتيجيات قائمة على المعلومات، وهي تحقق أفضل النتائج على المدى البعيد.

لقد أوضحنا فيما سبق حالة إحداث القائد للتغييرات، وتبنيه للقيادة التكيفية بناء على قراءاته للبيئة المحيطة وحدسه القيادي.

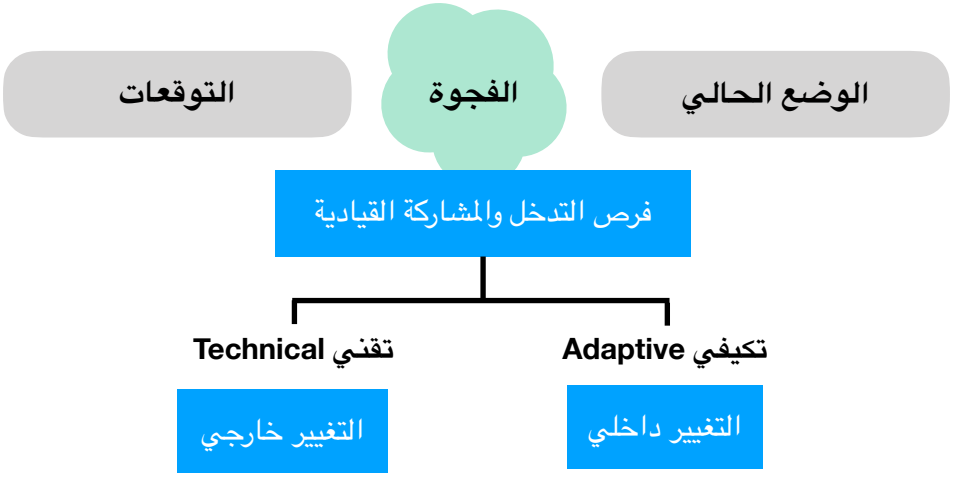

الشكل (٧) فرص التدخل والمشاركة القيادية

لكن متى يمكن اكتشاف الحاجة للتغيير؟

من خلال التدخل والمشاركة القيادية التكيفية على أساس تحليل متطلبات المؤسسة المدروسة ومعرفة وضعها الحالي، مقارنة بالتوقعات المنشودة؛ لتحديد الفجوة بينهما (الشكل ٧) .

يبدو أن فرص التدخل والمشاركة القيادية إن كانت تكيّفية؛ فالتغيير داخلي، وإن كانت فرص التدخل والمشاركة القيادية تقنية؛ فإن التغيير يكون خارجيًا .

الفصل الثالث
الاقتصاد السلوكي

يقوم الاقتصاد السلوكي على آليات فهم حركة الاقتصاد المرتبط بسلوك الأفراد والجماعات بوصفهم الوحدات الفاعلة فيه والمؤثرة في أحداثه، حيث يكون الباعث في قراراتهم سلوكهم المرتبط بعوامل نفسية تؤثر على صنع قراراتهم الاقتصادية والمالية، وبفهم تلك السلوكيات يمكن العمل على تحسين هذه القرارات من خلال تغيير سلوكياتهم وتعزيز اختياراتهم العقلانية.

والدين هو عامل محدد للسلوك، فمنعكساته تظهر في سلوك المؤمنين وتصرفاتهم، ويقتضي الإيمان الالتزام بقواعد المعتقد الذي ساقهم لسلوكياتهم. وسنتوسع في مآلات الاقتصاد السلوكي في فصلنا التالي في مبحث (محددات السلوك). ومثال ذلك ما كتبه الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله، (العبد مضارب في خير الله)[1]، وفي ذلك يقول:

معنى مضارب أي أنك تعمل عند الله بالعقل الذي خلقه لك، وتخطط بهذا العقل، وتعمل عند الله بالطاقة التي خلقها الله، والمادة التي خلقها

[1] كتاب قصص الصحابة والصالحين، ص ١٠٧ - ١٠٨.

الله لك تنفعل معها، وهذا يعني: أن كل شيء لله، وأنت أيها الإنسان مجرد مضارب، وما دمت مضاربًا فأعط لله حقه، وحق الله لا يأخذه هو، فهو سبحانه أغنى الأغنياء، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضاربًا، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أن الله قد استكثر عليك ما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه، ولكن الله حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر، يؤمنك سبحانه إن عجزت، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك، وذلك هو التأمين في منهج الله تعالى.

إن الحق يرغبنا في أن ننفق، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده، فيهدي مثلا الثوب الذي بُلي، ولم يعد صالحًا للاستعمال لفقير، أو يعطي الحذاء القديم لواحد محتاج، أي: أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهدٌ فيه.

الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص: **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (آل عمران: ٩٢)؛ فطلحة ابن عبيد الله حينما يسمعها يقول: يا رسول الله إن أحَبَّ مالي إليّ، هو (بئر حاء)؛ فأنا

أُخرجه في سبيل الله، فقال رسول الله عليه وسلم: (**اجعله في أقاربك، فجعله في أقاربه**).

المبحث الأول: التربية السلوكية وآثارها الاقتصادية

تقسم الشريعة الإسلامية إلى قسمين: عبادات، ومعاملات.

تشكل العبادات قسماً قد لا يتجاوز ٢٥٪ من الشريعة، وتشكل المعاملات الباقي. وتتمثل العبادات بتطبيق أركان تحقق عبادة الله تعالى، أما المعاملات فتتمثل بأحكام تخص التعامل بين الناس بعضهم بعضاً.

لكن للعبادات دور حيوي يصب في المعاملات، فنتيجة تطبيق شعائر العبادة لابد أن يكون ترويضاً للقلب، والقلب يهذب الجوارح أي أنه يهذب سلوكها في المعاملة مع الآخرين. يقول صلى الله عليه وسلم: **(لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه)**.

يعدُّ تربية السلوك من محددات الاقتصاد الجزئي، ويعتبر السعي لتقويمه منذ الصغر عامل مؤثر في رسم سياسات الاقتصاد الكلي وتطبيقها، وبما أن عملية إدارة الاقتصاد عملية طويلة المدى وليست وليدة سياسات إنعاشية، خدمة لبرامج مرشحي الرئاسة ومن شابههم من رجالات السياسة، ولابد من التوقف مليًّا عند هذا النوع من التربية بشكل صحيح.

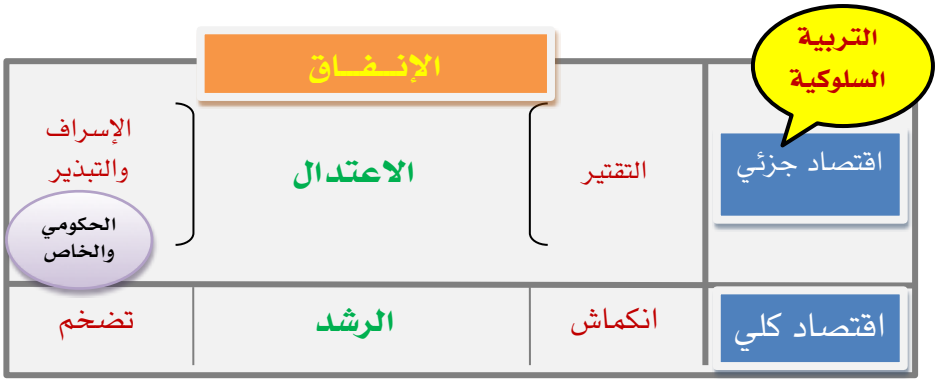

الشكل (٨) التربية السلوكية

١– سياسة التقشف :

هي سياسة تلجأ إليها الدول في سنواتها العجاف لضغط المصاريف، كما يلجأ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي عادة إلى ربط مساعداتهما بتطبيق الدول المُسَاعدة لسياسات تقشفية يفرضانها عليها، بل يتدخلان في تفاصيلها .

والرجل المُتَقَشِّف هو التارك للتَّرَفُّه[1]، ومن ذلك توجيهه صلى الله عليه وسلم (**واخشَوشِنوا**)[2] بمعنى التقشف . وقد مرت البلاد في زمن عمر رضي الله عنه بسنوات عجاف عُرفت بعام المجاعة، حيث تقشف الناس، فعندما شاهد عمر في إحدى جولاته جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وبيده درهمٌ، قال له : ما هذا؟ فقال : أريد أن أشتريَ به لأهلي لحمًا قرموا

[1] لسان العرب، فعل تقشف.
[2] شرح مسلم: 14/45.

إليه (أي اشتهوه)، فقال عمر: أوَكلَّما اشتهيتم اشتريتم! ما يريد أحدكم أن يطويَ بطنه لابن عمِّه وجارِه! أين تذهب عنكم هذه الآية: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا (الأحقاف: ٢٠)[1]. لقد قصد عمر رضي الله عنه مراقبةَ السوق وضبْطَ الطَّلب بغيةَ المحافظة على الأسعار وكأنه يسعى لكبح جماح الغلاء وترشيد الإنفاق، وإنما ذكر الآية الكريمة للتحكُّم بسلوك الناس، إذ لا أشدَّ من كلام الله عزَّ وجلَّ تأثيراً في نفس المسلم، لأنه ملتزمٌ بالشرع مُراعٍ للجماعة. وفي قوله أيضًا محاربةٌ للجشع والاستهلاك الإسرافيِّ لأنه ربط الشِّراء بالشهوة[2].

كذلك لجأت الدولة بقيادة عمر رضي الله عنه بعد تطبيق السياسات التقشفية بين الناس إلى التقشف بنفقات بيت المال، ثم بالاستدانة من أموال الزكاة بدل الدين العام وبدلاً عن فرض الضرائب، والتي عُرفت بالتوظيف على بيت المال.

٢- الاقتصاد حال المسلم:

لا يعتبر وفرة الموارد – حتى لو قلت تكاليف استخدامها – سببًا للإسراف وعدم الرشد في استعمالها، فحتى لو كانت الموارد متاحة فالاقتصاد حال

[1] أخرجه مالك في الموطأ برقم: 1742/38، والحاكم في المستدرك، واللفظ للحاكم.
[2] للمؤلف، مشكلة البطالة وعلاجها في الإسلام، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، 2005، ص 60

المسلم. ويمكن تتبع ذلك في مواطن كثيرة، ومنها سؤاله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضي الله عنه وهو يتوضأ: **(ما هذا الإسراف؟)**، فقال أفي الوضوء إسراف يا رسول الله! فقال له: **(نعم وإن كنت على نهر جارٍ)**[1] أي حتى لو كانت الموارد متاحة ووفيرة فالاقتصاد هو حال المسلم.

فلو كان الماء ملكًا خاصًا لقال صلى الله عليه وسلم: (لا تسرف)، ولو رآه يبعثره يمنة ويسرة لقال: (لا تبذّر)، لكنه نهاه عن السرف بمعنى الاقتصاد والاستعمال الرشيد للمورد الاقتصادي موضوع الحديث، حتى لو كانت الموارد متاحة كالنهر الجاري. إن توجيهه صلى الله عليه وسلم موجه لفرد بعينه، لكن المقصود أن السلوك إن صار عامًا فإن ضرره سيكون شديداً لذلك أشار الحديث للنهر الجاري لأنه حق عام أو مصلحة عامة.

إن سعد رضي الله عنه كان يتوضأ، والوضوء عبادة، والله تعالى خلقنا لعبادته، لكن المعنى أنه حتى لو كان الاستخدام لهدف سامٍ فإن ذلك يستدعي الرشد والاقتصاد.

٣- التوجه نحو خفض الطلب:

[1] سنن ابن ماجه

عندما غلت الأسعار في عهد عمر رضي الله عنه جاءه الناس يشكون ذلك، فقال لهم ناصحًا وموجهًا: (أرخصوها بالترك). وهذه قاعدة هامة من قواعد الاقتصاد الجزئي تعني الضغط على منحنى الطلب للتأثير على منحنى العرض، فانخفاض الطلب مؤداه انخفاض السعر، ليأمن الاقتصاد التضخم الناتج عن ارتفاع السعر.

لقد نهى الله في كتابه العزيز عن الإسراف والتبذير، وكلاهما يؤديان إلى إيقاع الاقتصاد الكلي بالتضخم لازدياد حدة الطلب عن العرض، ونهانا أيضًا عن البُخل والشُح لأن فيهما تتجه وحدات الاقتصاد الجزئي نحو خفض الطلب عن العرض، وبذلك يتجه الاقتصاد الكلي نحو الانكماش. وهذه قواعد تُربي الفرد وتدربه على ترشيد إنفاقه. لقد حث الإسلام على:

(١) زيادة العرض بزيادة إنتاج الطيبات والامتناع عن الخبائث الضارة. في حين سلك الاقتصاد الغربي إلى زيادة العرض بحثًا عن موارد جديدة، ولو اضطر لسرقة موارد غيره من الأمم بالسلاح تارة وبالاحتيال تارة أخرى، فالأخلاق عنده حالة مؤقتة تظهر أحيانًا للعلن وتختفي أحيانًا كثيرة لأنها تعارض مصالحه.

(٢) حُسن وعدالة التوزيع: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاث، وقال: **(إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان)**. وأمرنا أن نسلت الصحفة، وقال: **(إنَّ أحدكم لا يدري في أي طعامه يبارك له)**[1]. إن في هذا الحديث تنبيه واضح على عدم ترك أي أثر للطعام في ما يُؤكل فيه ومنه. ولبيان عظمة ذلك، نعمم المثال على الاقتصاد الكلي أو العالمي: إن عدد سكان الأرض ستة مليارات ونصف، وبفرض أن خمسة مليارات من البشر يأكلون ولا يُطبقون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبفرض أن كل فرد منهم يترك ١٠ غرام من الطعام في صحنه وإنائه. فبحساب بسيط سنجد أن: ٥.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ X ١٠ غرام ÷ ١.٠٠٠.٠٠٠ = ٥٠.٠٠٠ طن من الطعام يُرمى يوميًا، إذا لم نقل عند كل وجبة.

فإذا علمنا أن عدد الجوعى والمحرومين في العالم يتجاوز ٨٠٠ مليون نسمة، أفلا تُغنيهم تلك الكميات المرمية كمهملات؟ يقول[2] جون زيجلر[3]: إن طفلاً يموت كل خمس ثواني من الجوع، في الوقت الذي

[1] مسند أبو داود
[2] المصدر: الجزيرة نت: 20/8/2008
[3] مفوض الأمم المتحدة الخاص بالغذاء وعضو المجلس الاستشاري للجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة وأستاذ علم الاجتماع في جامعة السوربون

يكون فيه العالم مُتخمًا من الغذاء، وأن ما يُنتج من الغذاء يكفي لـ ١٢ مليار إنسان أي ضعف عدد سكان العالم، فهل أزمة الغذاء العالمية هي أزمة مفتعلة؟ علمًا أنها تمثل جريمة ضد الإنسانية بحسب القانون الدولي وأنظمة حقوق الإنسان.

إن من يسيطر على الغذاء يسيطر على الشعوب، ومن يسيطر على الطاقة يسيطر على القارات، ومن يسيطر على المال يسيطر على العالم.
(هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي ثم وزير خارجيتها)

وتتابع التوجيهات النبوية إرساء قواعد التربية الاقتصادية الصحيحة، يقول صلى الله عليه وسلم[1]: **(ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)**. إن في هذا الحديث تنبيهًا واضحًا على تقنين الطعام وأخذ الكفاية منه، وحد الكفاية ثلث سَعة البطن، فكم من ملايين الناس يأكلون حتى يقعوا أرضًا؟ يأكلون حصص غيرهم ثم يحتاجون دواء لمعالجة آفاتهم وأمراضهم. فإذا تصورنا أن يأكل الإنسان حاجته فكم يوفر في اليوم؟ وكم يكون الرقم بالأطنان عالميًا؟ وبهذا الصدد أوضحت دراسة بريطانية أن أسباب أزمة الغذاء العالمي هم البدينون، لأنهم يأكلون حصة غيرهم ويسببون أزمات نقص غذاء

[1] مدارج السالكين: 47/2

وأزمات نقل بسبب حاجتهم لأماكن أكبر إضافة لأزمة الاحتباس الحراري. وعلى ذلك لا يمكن أن يصبح المرء بدينًا إلا إذا أكل فوق طاقته.

٤– سلامة جانب العرض:

ينهى صلى الله عليه وسلم عن تشويه منحنى العرض بإخفاء سعر الوقت في الأسواق، منعًا لأي احتكار أو غش أو تدليس، فالتجار الذين يتلقون الركبان أي القوافل الجالبة للبضاعة قبل وصولها إلى الأسواق، يشترون بأسعار قد تكون غير عادلة، لذلك **(نهى صلى الله عليه وسلم عن البيع حتى يبلغ به سوق الطعام)**[1]، فالأصل أن يدخل المنتِج أو البائع السوق عارضًا ما لديه دون أية مؤثرات، تاركًا ظروف العرض العادل والطلب العادل تقرير السعر العادل، وهذا ما أرشد إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: **(دعوا الناسَ يرزقُ اللهُ بعضَهم من بعضٍ)**[2].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن المضاربة بالطعام للحد من رفع سعره ضمن صفقات وهمية فالناس بحاجته، روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[3]: رأيت الذين يشترون الطعام مجازفة، يُضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعوه حتى يؤوه إلى رحالهم. وبذلك نهى صلى الله

[1] صحيح البخاري
[2] صحيح مسلم
[3] صحيح البخاري

عليه وسلم وبقوة السلطة المتاجرة بالسلع الغذائية دون حيازتها منعًا للتضخم الوهمي في أسعارها. فكثير من صفقات البن والأرز والسكر وغيرها تباع وتشترى دون حيازتها، فيكون بيعًا وهميًا يتبعه ارتفاع في السعر. فكل بائع يضيف ربحه لتزداد الأسعار نتيجة تلك المضاربات الوهمية، ولا يقبل الاقتصاد الإسلامي بذلك بل يدعو إلى اقتصاد حقيقي تتم بيوعه بتحقق شروط الحيازة والتملك تمكينًا للمالك أن يعمل بإرادته سواء بأن يستهلكه أو أن يعيد بيعه لغيره دون احتكار.

ويحث صلى الله عليه وسلم على إطعام الطعام وإشاعة العادات الجيدة فقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: (**تُطعم الطعام، وتُقرئ السلام، على من عرفت وعلى من لم تعرف**)[1]. فهذا الحديث يُعلّم الناس الكرم وبذل الطعام وفي هذا إسكات لجوع المحتاج وإكرام للضيف وشد وثاق المحبة والوئام الاجتماعي عملاً لا قولاً.

ونهى صلى الله عليه وسلم عن الإعراض عن إطعام الفقراء، فيقول: (**شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله**)[2]. ويحث هذا الحديث على دعوة

[1] صحيح البخاري
[2] صحيح البخاري

الفقراء والأغنياء إلى الولائم وحكمة ذلك إشاعة المؤاخاة بين الناس جميعًا وإبعادهم عن التكبر فضلا عن إشباع الفقير المحتاج.

تُغاير القواعد السابقة قواعد التربية الرأسمالية التي تلخصها بعض المقولات التي صارت شعارات يتعلمها المتدربون كقواعد أساسية للنجاح، ومنها: إن كان معك ١٠ دنانير فأنفق ٩ منها على الإعلان واستثمر في الدينار العاشر، وهذا حثٌ على تحفيز جانب الطلب نحو المزيد من الإنفاق باستغلال النفس التي تُميلها الشهوات، فيتجه الاقتصاد الكلي صعوداً نحو التضخم.

ويُعدّ سلوك الدول وبخاصة الكبرى منها (في القرون الثلاثة الأخيرة)، التوجه نحو الاستعمار بحجة تأمين موارد ومصادر لصناعاتها سلوكًا شائنًا، وبإزاحة العامل الأخلاقي وإقامة الأمر على المصلحة العمياء نجد أن قواعدهم التربوية لا تستغرب: استعمار الآخرين وسلب خيراتهم.

وتطبيق تلك القواعد الفاسدة يفسر تقرير معهد الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٠ بأن أغنى ١٠٪ من البالغين تمتلك ٨٥٪ من الأصول العالمية. فإذا علمنا أن نصف سكان العالم هم من البالغين، فإن أغنى ١٠٪ من البالغين في العالم تمتلك ٤٠٪ من ثروات الأرض. وأكثر من ثلث هؤلاء يعيشون في الولايات المتحدة واليابان و ٦٪ في المملكة المتحدة و ٥٪ في فرنسا.

وعليه يبلغ نصيب الفرد من اليابانيين ١٨١٠٠٠ دولار ومن الأميركيين ١٤٤٠٠٠ دولار ومن البريطانيين في المملكة المتحدة ١٢٧٠٠٠ دولار، مقابل حصة لا تتجاوز دولار واحد في اليوم لفئات كثيرة في دول العالم.

المبحث الثاني: اقتصار الخوف

الخوف هو شعور ينجم عن خطر مرتقب، مؤداه تغير سلوك الخائف ليتفادى التهديد المحتمل؛ يُعبَّر عنه بالغضب أو التوتر أو الذعر أو الحزن، لذلك فإن الخوف هو عكس الأمن والطمأنينة.

يكون الخوف عقلانيًا إذا كان ضمن حدود منطقية تفرضها ظروف أو بيئة دالة عليه، ويكون غير عقلاني إذا زاد عن الحد المقبول، حيث يتحول إلى إرهاب، والأصل في **الإرهاب** إخافة العدو وبث الذعر فيه؛ لأنه عمل خارجي يُمارس من طرف على طرف للتأثير عليه لتحقيق أغراض معينة، وهو عمل مقصود. أما **الرُهاب** فهو الأثر النفسي الحاد للخوف من شيء؛ سواء كان مصدره خارجيًا كالخوف من عدو، أو داخليًا من الشخص نفسه الذي وقع تحت تأثير الخوف؛ كالقلق من مجهول.

إذن قد يحدث الخوف، وقد يتأثر به سلوك الخائف؛ إقدامًا أو إحجامًا، وهذا هو غرض الإرهاب؛ أي توجيه السلوك باتجاه معين؛ بينما الرُهاب فأثره مَرَضي، ومستمر يضطرب به السلوك، ويحتاج شفاؤه إلى معالجة، لأن المصاب به خرج عن حد الاعتدال؛ حتى بات لا يُرجى منه نفع. يقول

الله تعالى: **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** (الأنفال: ٦٠).

إن مهمة العدو أن يتآمر على أعدائه ليرهبهم، مما يوجب على من يتوقع العدوان أن يتحسب لصده، بالإعداد الحقيقي والصحيح. والمؤامرة قد تكون نتيجتها شكل من أشكال العدوان. ولنا في الحرب الخفية – أحيانًا – بين الولايات المتحدة والصين دروسًا وعِبر لا تنتهي فكل منهما يُعد العدة لإرهاب الآخر، ويكمن له سرًا وعلانية. لذلك لن يفيد الوقوف على الحياد أحداً؛ فالقوة أساس الاحترام بين الأنداد.

فكيف يكون الخوف إيجابيًا تحذيريًا، وكيف يكون سلبيًا مُرجفًا؟

الخوف إيجابي إذا كان أثره تحول المجتمع نحو الاطمئنان:

الابتلاء التحذيري تنبيه لمن غفل عن شرع الله الخالق لهذا الكون، والسبب أن هناك خطراً كبيراً محدقًا بالغافل إن استمر في غفلته، وهو خطر أكبر بكثير من الابتلاء الذي أصابه أو يصيبه، وما ذلك إلا بغرض تحذيره من عذاب أبدي قد يصيبه في اليوم الآخر، وهذا ما يُسمى **تحوطًا** في إدارة المخاطر؛ حيث يُدفع بالضرر الأقل أمام الضرر الأكبر.

يقول الله تعالى: **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** (البقرة: ١٥٥)

لقد شملت الآية الكريمة عناصر الأمن الاقتصادي؛ فطبقًا للآية فإن الابتلاءات تتنوع؛ فتكون:

(١) بنقص الأمن الذي ينجم عنه خوف، و

(٢) بنقص الطعام الذي ينجم عنه جوع، و

(٣) بنقص الأموال الذي ينجم عن ضياعها شيوع الفقر، و

(٤) بنقص الأنفس الذي ينجم عنه موت، و

(٥) بنقص الثمر مما تخرجه الأرض والذي ينجم عنه قحط منذر بما بعده من خوف وجوع وضياع أموال وموت.

وتتكرر هذه التحذيرات بشكل دوري مرة أو مرتين سنويًا؛ لتجنب الأسوأ، وهذا من رحمة الله تعالى القائل: **أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** (التوبة: ١٢٦).

وقد منّ الله تعالى على قريش بأن جعل موقعهم يتوسط تجارتين تحققان لهم وفرة المال والطعام، وذلك بعد أن ضمن لهم الأمن من الخوف الذي كان يحيط بمكة. قال الله تعالى: **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ**

أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (القصص: ٥٧)؛ فكانت رحلتا الشام واليمن. يقول الله تعالى: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (قريش: ١-٤)

إذًا؛ **الجوع والخوف** أداتان تحذيريتان لمن يكفر بأنعم الله، إلا أن العذاب قد يحلّ بجماعة القوم كلهم إن صنعوا ذلك وأشاعوه بينهم؛ فتتبدل حياتهم من رغد العيش ومجتمع الاطمئنان، إلى ضنك العيش الذي يحولهم إلى مجتمع الخوف. يقول الله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل: ١١٢).

واستنادا إلى سنن الله تعالى خالق هذا الكون؛ فإن الإيمان بالله تعالى والتمسك بشرعه الحنيف هو المخرج من مجتمع الخوف نحو مجتمع الاطمئنان، ومثاله قوم يونس عليه السلام، يقول الله تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (يونس: ٩٨).

إن المعنى المستقى مما سبق، أن وجود الإنسان على هذه الأرض ليس ليأكل ويشرب ويتمتع وحسب، بل ليعبد الله تعالى حق عبادته، وما الأكل والشرب إلا وسيلة ذلك، وقد يسّر الإسلام هذا الفهم؛ فأباح التمتع دون الإسراف والتبذير وفوق التقتير، وجعل كل سبل التمتع عبادة إن نوى فاعلها تحقيق رضاء الله تعالى، إضافة للقيام بما فرضه الله تعالى عليه من أركان.

إن زعزعة الأمن الاقتصادي في ظل الخوف الإيجابي؛ أشبه بإحداث أزمة لإدارة دفة تغيير نحو الأفضل؛ لتجنيب الناس الوقوع بما هو أسوأ، وهذا يكون على مستوى الأفراد، كما هو على مستوى الأمة. وما بدا من أزمة كورونا – مبدئيًا – هو أن البيئة بمكوناتها تنفست الصعداء بعدما أفسد الإنسان فيها فساداً عريضًا.

لكن كيف يكون سلوك الناس إذا وقعت جائحة؟

تعرض الفقهاء لفقه الجوائح، بوصفه شكل من أشكال الأزمات، فعرّفوا الجائحة بأنها الآفة التي تصيب الثمرة وتؤدي إلى استئصالها، وهي كل ظاهر مُفسد من مطر، أو برد، أو جراد، أو ريح، أو حريق. وعرّفها اللغويون (حسب لسان العرب)؛ بأنها الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سَنَةٍ أَو فتنة، والجائحة المصيبة تحلّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله.

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث الدائن على الوضع من دينه في حق المدين حال وقوع الجائحة كمساعدة وعون له، فأمر صلى الله عليه وسلم: (**بوَضْعِ الجَوَائِحِ**) (صحيح مسلم)، والمراد؛ أن يحط البائع من الثمن بما يوازي ما أتلفته الجائحة من الثمار التي اشتراها المشتري والتي أكثرت دينه بما أصابه؛ بهدف:

- استمرار العلاقات المالية بين الناس على أسس صحيحة؛
- حفظًا لحقوق الأطراف،
- إرساءً للتكافل اجتماعي بين الناس خاصة في الملمات والمصائب.

وعن **تقدير الجائحة**؛ روى الأَزهري عن الشافعي[1]، قال: جِماعُ الجَوائح كلُّ ما أَذهب الثمرَ أَو بعضَها من أَمر سَماوِيٍّ بغير جناية آدمي، قال: وإذا اشترى الرجل ثمر نخل بعدما يحل بيعه؛ فأصيب الثمر بعدما قبضه المشتري لزمه الثمن كله، ولم يكن على البائع وضع ما أصابه من الجائحة عنه؛ قال: واحتمل أمره بوضع الجوائح، كما أَمر بالصلح على النصف؛ ومثله أمره بالصدقة تطوعًا فإِذا خَلَّى البائع بين المشتري وبين الثمر فأَصابته جائحة، لم يُحكم على البائع بأَن يضع عنه من ثمنه شيئًا؛ وقال ابن الأَثير: هذا أَمر ندبٌ واستحبابٌ عند عامة الفقهاء، لا أمر وجوب؛ وقال

[1] لسان العرب، جوح.

أَحمد وجماعة من أَصحاب الحديث: هو لازم يوضع بقدر ما هلك؛ وقال مالك: يوضع في الثلث فصاعداً أي إذا كانت الجائحة في دون الثلث، فهو من مال المشتري، وإن كان أكثر فمن مال البائع.

الاقتصاد السلوكي وأثر المشاعر في رسم سياسة القطيع:

يُقبل الناس عادة على الشراء في حالة ازدهار الأسواق أو توقع ازدهارها، كما يُقبلون على بيع ما يملكونه إذا لاح لهم كساد الأسواق في محاولة للخروج قبل انهيارها.

ويبتعد الناس عن الإنفاق إن شعروا بخطر محدق، خاصة بعد ركود الاقتصاد أو كساده، لذلك تبذل السياسات العامة جهدها لإعادتهم إلى الإنفاق خشية وقوف عجلة الاقتصاد عن الدوران، لما للإنفاق من دور حيوي في إنعاش الأسواق وتحريكها.

ويتميز الاقتصاد الإسلامي بفرض حد أدنى من الحوالات المالية من الأغنياء إلى الفقراء (وهو صدقاتهم من زكاة أموالهم وغيرها)، وبما أن الفقراء ومن في حكمهم من مستحقي الزكاة؛ حيث يكون ميلهم الحدي للاستهلاك مساوٍ للواحد؛ فسينفقون كل ما يأتيهم لسد حاجاتهم الضرورية. وبذلك لا تتوقف عجلة الاقتصاد تماما عن الدوران مما يؤهلها للحركة ثانية بسرعة ابتدائية إيجابية تساعدها في عودة الحياة الاقتصادية

من جديد. وبذلك تحدُّ شريعة الإسلام من أثر المشاعر التي تتحكم بسلوك الناس لأنها جعلت الإيمان بأن الرزق مكفول من الله تعالى هو من الإيمان الراسخ؛ مما يحد من سياسة القطيع ويُبقي حركة الاقتصاد السلوكي إيجابية دومًا. يقول الله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** (البقرة: ١٧٠-١٧١).

يأتمر القطيع بصراخ الراعي؛ أي بدعوته للاجتماع أو اتباعًا لندائه، ثم تراه يسير خلف قيادته كالكبش أو ما شابهه؛ حيث يُوضع في رقبته جرس ليلحق به من خلفه، فيسير القطيع على خطى زعيمه دون تفكير ولو كان السير للذبح والسلخ، فهم صمٌ لا يسمعون؛ بكمٌ لا ينطقون؛ عميٌ لا يرون؛ وهم بالنتيجة لا يعقلون أي لا يدركون حقيقة الأمور ولا يميزونها.

وقد نهى صلى الله عليه وسلم أن يكون الناس (إمعات)، فقال: **(لا تكونوا إمَّعةً تقولون إن أحسَن النَّاسُ أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطِّنوا أنفسَكم إن أحسَن النَّاسُ أن تُحسِنوا وإن أساءوا أن لا تظلِموا)**؛ فالسلوك الذي مؤداه الظلم لا يصح فعله، بل لابد من فعل الأحسن.

الخوف سلبي إذا كان أثره تحول المجتمع نحو الخوف والإرجاف:

إن إشاعة الرعب بين الناس منهج اتبعته مدارس عديدة عبر التاريخ. وهو منهج مذموم.

فقد سادت نداءات تخيف الناس وتحبطهم، حدث ذلك في المدينة المنورة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك. قال الله تعالى: **لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا** (الأحزاب: ٦٠)

ذكر الطنطاوي في الوسيط؛ بأن المرجفين في المدينة: هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس. وأصل الإرجاف: التحريك الشديد للشيء، وهو مأخوذ من الرجفة التي هي الزلزلة. ووصفت به الأخبار الكاذبة، لأنها في ذاتها متزلزلة غير ثابتة، أو لإحداثها الاضطراب في قلوب الناس.

وذكر القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس: الإرجاف التماس الفتنة، وإشاعة الكذب والباطل للاغتمام به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرض – أي تحركت وتزلزلت – ترجف رجفًا. والرجفان: الاضطراب الشديد، والرجاف: البحر، وسمي به لاضطرابه.

وذكر ابن عاشور في تفسيره أن الإِرجاف: إشاعة الأخبار، وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس ليطمَئِّن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة؛ فالإِشاعة إنما تُقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يُصدَّق به لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفَان وهو الاضطراب والتزلزل، والمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدِّثون بها في مجالس ونَوادٍ ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. وكان **أكثر المرجفين من اليهود** وليسوا من المؤمنين لأن قوله عقبه: (لنغرينك بهم) لا يساعد أن فيهم مؤمنين.

لقد سادت في القرون الأخيرة نداءات تخيف الناس وتحبطهم؛ كهستيريا انتشار الوباء، وهستيريا التغير المناخي، وهستيريا الكساد الاقتصادي وما يصاحبه من انهيارات، واستغلت وسائل الإعلام التقليدية والحديثة تحقيق تلك الهستيريا.

وقد انتشر بين الناس كلام كثير عمن يتحكم بالعالم ويحركه كما يشاء.

قادت ذلك في القرون الماضية حركة سميت **بالماسونية** تقودها مجموعات **يهودية**؛ بهدف السيطرة على السياسة في العالم، لكن نجمها أفل، وانحل دورها وصار باهتًا لأنها اعتمدت على تربية أشخاص متنفذين يساعدونهم في استلام مناصب رفيعة في بلادهم ثم يقودون الناس

بغطرسة وحكم استبدادي لتحقيق مآرب أولئك الأشرار وبما أن الموت مصير كل شيء فإن ديمومة أولئك الأشرار تصطدم بالموت لينتهي أثرهم.

ودرج مدرج هذه الحركة **مدرسة شيكاغو النقدية**؛ بهدف السيطرة على الاقتصاد في العالم، والتي كتبنا عن سياساتها عدة مرات[1]؛ فقد زعزعت اقتصاد بلدان عديدة تمهيداً لسرقة خيراتها.

ومؤخراً ظهرت **طائفة CULT الدينية**؛ التي تتعدى الحدود؛ لتعمل في جميع الدول الكبرى، وتمثل صميم النظام في الصين والولايات المتحدة الأمريكية، تهدف إلى إنشاء دولة عالمية طاغية هرمية، رأسها ١٪ من أغنياء العالم[2]، وقاعدتها عامة الناس من الفقراء والمساكين؛ أي مجتمع الجائعين الذي تحكمه Hunger games والعبارة مقتبسة من عنوان فيلم سينمائي، ويكون بين الطبقتين طبقة من العسكريين المتجبرين، وهم بمثابة دولة عسكرية شرطية شريرة عديمة الرحمة يعملون على تحقيق هذا النظام لمصلحة ال ١٪ وفرض إرادتهم واستعبادهم للناس. وهذا شبيه (بالكربوقراط؛ الذي تمثله الشركات الكبرى، والبنوك الدولية، والحكومة،

[1] للمزيد يمكن الرجوع لمقالاتنا:
(١) قراءة في مذكرات قرصان اقتصادي (العدد ٣٥-٢٠١٥، رابط).
(٢) المذهب الاقتصادي لمدرسة شيكاغو النقدية هل هو مذهب الأشرار؟ (ميلتون فريدمان) أنموذجا (العدد ٥٧-٢٠١٧، رابط)

[2] فيديو: النيو مالتوسية (الفاشية الجديدة) وما هي علاقة بيل غيتس بـ كورونا؟، رابط المشاهدة

حيث يُنشد تنمية الاقتصاد وتقويته عن طريق إثراء قلة من الأشخاص ممن يتربعون على قمة الهرم الأكثر ثراء في العالم)[1].

لقد استخدمت تلك المدارس والجماعات؛ الإدارة بالأزمات لإحداث تغييرات شمولية عالميًا؛ فافتعلت الأزمات وأظهرتها كأحداث عشوائية لإرهاب الناس، وانتظرت التغيير لحصد النتائج، وكسب التغييرات، وتوظيفها ضمن رؤية شاذة لبعض القادة والمخططين. ولعل أزمات (كورونا والتغير المناخي والكساد وغيرها) أحداث عشوائية خضع حصولها للصدفة، وإذ بتلك الأحداث تمثل خطوات على الطريق الذي ينشده أولئك الأشرار، فسلاح الخوف هو ما يسوقونه لأنه وسيلة إحكام السيطرة؛ بإثارة الرعب والإرجاف، ومن شدة مكرهم أنهم يُحسنون ركوب الموجة في الوقت الصحيح، والنزول منها في الوقت المناسب؛ ليبدو للعالم أنهم مهرة في التخطيط والتنفيذ وهذا ليس صحيحًا بالمطلق.

وقد وصف الله عملهم بالمكر، يقول تعالى: **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**

[1] للمزيد يراجع كتابنا الأخير: السياسات النقدية والمالية والاقتصادية المثلث غير المتساوي الأضلاع بنظرة إسلامية، منشورات كاي، ٢٠٢٠، رابط التحميل: https://kantakji.com/4708/

(الأنعام: ١٢٣)، ووعدهم الله تعالى؛ بأن ذاك المكر السيء لن يحيق إلا بأهله، فهذه سنة من سنن الله تعالى في أرضه.

يقول الله تعالى: **اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** (فاطر: ٤٣).

لقد تفطن الإسلام لهذه الألاعيب الماكرة منذ بزوغه – ومثالها حادثة الإرجاف التي ذكرناها آنفا –؛ فسلّح أتباعه بالعلم والمعرفة بوصفهما أدوات صد الخوف غير العقلاني أو المدبر (أي المؤامرة)، فتراه يأمرهم ألا يخافوا إلا من الله لأنه هو الضار وهو النافع، وهذه عقيدة راسخة، أما التخويف والمكر بالناس فمنهج شيطاني. يقول الله تعالى عن أصحاب هذا المنهج: **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (آل عمران: ١٧٥)، ويقول أيضًا: **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (البقرة: ٢٦٨)، ويقول أيضًا: **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** (الزمر: ٣٦).

إن المسلم لا يخاف من المستقبل ولا من المجهول، فلديه من الإخبار الصادق ما يكفي رد خوفه. يقول الله تعالى: **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (يونس: ٦٢)، فالمسلم لا يخاف الموت أو لقاء الله، ولا يخاف من قضاء الله لأن الله عدل وحكمه عدل، ولا يخاف الجوائح؛ كنقص الماء لأن المطر يتحكم به خالق كل شيء، وقد علّم الله المؤمنين أن الاستغفار سبيل من سبل طلب الماء، وعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الاستسقاء لاستزادة الماء. والمسلم لا يخاف الفقر ونقص الرزق لأن رزقه مكتوب له من ربه جلّ في علاه: **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (هود: ٦). فما من دابة تحمل رزقها بل آتيها حسب حاجتها من رب لا ينسى ولا يضل وعلى الإنسان أن يسعى ولا يقعد: **وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**(العنكبوت: ٦٠)، والمسلم لا يخاف الضرّ، ولا ينفع معه التهويل والتخويف، لأن اعتقاده الراسخ أن الضار والنافع هو الله دون غيره. يقول الله تعالى: **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**(الأعراف: ١٨٨)، بل إن رسول الهدى صلى الله عليه وسلم زرع الإيجابية في نفس المؤمن بغض النظر عما يصيبه فقال:

(عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له) (صحيح مسلم).

كما نهى الإسلام عن تقنيط الناس وتخويفهم، قال صلى الله عليه وسلم: **(إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهو أهْلَكُهُمْ)** (صحيح مسلم)، وهذا حال من ينشر الذعر والخوف بين الناس هذه الأيام.

إن في قصة يوسف عليه السلام التي حكاها لنا القرآن؛ بيان برحمة الله بالناس، فالله تعالى أرى الملك منامًا فيه تحذير من خطر قادم قد يُهلك الناس إن لم يتدبروا أمرهم، ولم يفهم تلك الرؤيا من كان يسمون أنفسهم بالقادة والحكماء فسفّهوا الرؤيا. ولما وصل الأمر ليوسف عليه السلام، فسّر الرؤيا وأحسن فهمها، فاستعان به الملك لإدارة الأزمة لما رأى فيه من الحفظ والعلم؛ فحوّل يوسف عليه السلام خوف الملك إلى خطة رشيدة حقق فيها للناس الأمن الاقتصادي ودرأ عنهم الخوف والفقر.

إنها سنة الله تعالى في خلقه الصالحين الذين يداومون على ذكر الله تعالى حيث تتحقق لهم الطمأنينة فينشروها بين الناس، يقول الله تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (الرعد: ٢٨). وقد أوضح الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا لعباده، فقال عز وجلّ: **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي**

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد: ٢١)، لذلك يجب على المؤمنين أن يتسابقوا في طلب المغفرة من الله تعالى، يقول عزل وجلّ: سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الحديد: ٢٢).

والمؤمن مُسلِّم لربه مستسلم لقضائه؛ لأن حقيقة الأمور أن كل شيء في علم الله العزيز، يقول تعالى: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (الحديد: ٢٣)، يستفاد من ذلك؛ نجاة الإنسان مما يصيبه في هذه الدنيا، فلا يتوقف حسرة على ما فات، ولا فرحًا بما أوتي من خير، يقول الله تعالى: لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (الحديد: ٢٤).

المبحث الثالث: لا حق لأحد منا في فضل

لم تنقل لنا الأدبيات عبر تاريخنا عبارات: (لاجئين) أو (نازحين) رغم سلامتهما اللغوية، بل عرفنا عبارات: (المهاجرين) و (الأنصار).

المهاجرون هم أهل مكة، ضاق بهم فعل غير المسلمين فيها لأنهم ضيّقوا على حرياتهم لاعتناقهم دِيْنًا غير دِيْن آبائهم وأجدادهم، فترك المهاجرون مكة قاصدين المدينة تاركين كل ما يملكون ناجين بأنفسهم وأهليهم بسبب ما مُورس عليهم، وقد كان منهم الغني والفقير.

والأنصار هم أهل المدينة، الذين استقبلوا المهاجرين في مدينتهم وقد قاسموهم أموالهم وما يملكون.

إن لذلك الحدث آثاره الاجتماعية والاقتصادية، وما سنركز عليه هو الاقتصادية رغم صعوبة الفصل بين الآثار بنوعيها.

إن من وصل من المهاجرين، لم يكن معه شيء، لذلك صار بحكم الفقير، كما أنه صار دون عمل يمارسه رغم قدرته على ذلك، فزاد الفقر وانتشرت البطالة في المدينة المنورة لتبلغ خمسون بالمائة على أقل تقدير. فما هو الحل الذي قام به صلى الله عليه وسلم لمجابهة هذه الأزمة الطارئة؟

لقد **آخى** صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار عندما قدم المدينة[1]، ثم **شارك** الأنصار المهاجرين بما يملكونه. وبذلك لم يعد المهاجرون فقراء بالمرة، كما لم يتحول الأنصار إلى فقراء، لأنه يُفترض أنهم قد تبرعوا بنصف ما يملكون. وكان في المهاجرين من هو من أصحاب المبادرة، حيث توجه إلى السوق ليعمل بنفسه دون مساعدة الآخرين. إذاً الحلّ كان حلاً **اجتماعيًا اقتصاديًا**، وليس العكس، فما أهمية ذلك الدرس؟

إنه بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا على حدث الهجرة، لا يبدو أنها مجرد قصة تُحكى، أو حكاية تُروى، بل هي سُنة من سُنن الله بين عباده. حصلت الهجرة في زمن اشتد الأمر فيه على المسلمين. مرّة حين هاجروا خارج بلادهم إلى الحبشة فأحسن الأحباش ضيافتهم، ومرة حين هاجروا ضمن بلدهم، (وهذا بيت القصيد) لأن فيه العِبَر المنشودة والدروس المستفادة.

لقد عاش أهل بلاد الشام فترات من التاريخ استقبلوا فيها إخوة لهم، فضربت بلاد الشام المثل تلو المثل، وحسبنا أن نذكر التاريخ الحديث، فبعد أزمة نكبة فلسطين وما تلاها، استقبل أهل الشام ملايين المهاجرين الفلسطينيين وناصروهم، وفي سبعينيات القرن الماضي استقبلوا مئات

[1] رواية ابن حجر العسقلاني - الإصابة: 219/2

الألوف من المهاجرين اللبنانيين، وفي تسعينيات القرن الماضي استقبلوا ملايين المهاجرين العراقيين واحتضنوهم كأهليهم. لكن التاريخ يشهد بأنهم لم يبنوا مخيمات تخص أولئك المهاجرين بل استقبلوهم في بيوتهم وفي أحيائهم ومدنهم، وعاملوهم كما يعاملون أنفسهم. وهذا سيبقى معلمًا من معالم التاريخ.

كما يعيش أهل بلاد الشام هذه الأيام قصة كقصة هجرة الحبشة، ففي بداية العقد الثاني من القرن الحالي هاجر بعضهم إلى بلاد غير بلادهم فأُستقبل من أُستقبل ضمن مخيّمات خاصة لا يغادرونها، واستقبل القليل منهم غير ذلك.

كما هجر أكثرهم مدنهم وقراهم قاصدين قرىً ومدنًا أخرى، تاركين كل ما يملكون ناجين بأنفسهم وأهليهم، لنفس أسباب المهاجرين الأوائل من المسلمين، وفيهم أيضًا الغني والفقير. واستقبلهم أهل المدن الأخرى، فاحتضنوهم وناصروهم وقاسموهم جزءًا من أموالهم، فمنهم من أسكنهم في بيته، أو استأجر لهم بيوتًا، ومنهم من قدّم اللباس والطعام، ومنهم من تكفل برعايتهم الصحية، ومنهم من قدم غير ذلك. فكان أهل تلك المدن كالأنصار.

لقد بلغ عدد الأسر التي هاجرت إلى مدينة حماة (المدينة فقط) والمسجلة رسميًا ضمن لجنة الإغاثة ٥٢٤٠٠ أسرة أي ما يعادل ٣٠٠–٤٠٠ ألف شخص، يحتاجون شهريًا ١٧٥–٢٥٠ ألف دولار أكثرها يُجمع من تبرعات الأهالي، ويضاف لهذا العدد أكثر من نصفه من غير المسجلين. وتتركز الاحتياجات على الطعام والشراب واللباس والطبابة وحليب الأطفال، ويذهب قسم منها لسد نفقات الإيجار.

هناك أناس استغلوا الأمر بوصفه فرصة استثمارية فأجّروا مساكنهم وباعوا بضائعهم وكأنه موسم رَواج، والأنكى من ذلك أن هناك من اعتبرها فرصة للاستغلال المسيء فتمادى في زيادة الأسعار واحتكار حاجات الناس وكأن هذه الفئة أبت أن تكون كالأنصار.

لقد شحت البضائع والسلع لتباطؤ الإنتاج في بعض الحالات وتوقفه في حالات أخرى سواء لهجرة العاملين أو لتدمير المنشآت. وشحت أيضًا بسبب صعوبات لوجستية كمخاطر النقل، كما ضعف تخزينها لعدم وفرتها أو خوفًا من تدميرها. فزاد الطلب عن العرض وارتفعت الأسعار لتعبّر عن حالة غير صحية ولتزيد الأعباء والتكاليف.

أمام ذلك انخفض الطلب العام لأسباب عدة، فهناك:

- أناس غيّروا سلوكهم الاستهلاكي فضبطوا شهواتهم وخفّضوا حاجاتهم ليحدّوا من الاستهلاك، مكتفين بالضروريات قدر المستطاع.
- أناس هاجروا خارج البلاد.
- إضافة إلى موت وفَقد الكثيرين.

لقد ساعد ذلك في تحقيق إعادة التوازن بين العرض والطلب بشكل جزئي.

لكن وللأسف هناك أناس حافظوا على عاداتهم الاستهلاكية غير آبهين بغيرهم، وكأنهم أبوا أن يكونوا كالأنصار.

لقد شبه صلى الله عليه وسلم وحدة المسلمين بالجسد الواحد، فقال: **(مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثلُ الجسدِ. إذا اشتكَى منه عضوٌ، تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى)**[1]. مما يعني أن اقتصاد المسلمين اقتصاد واحد متكامل، فلو استقل اقتصاد كل منهم في بقعة جغرافية تخصهم، فإنه في الأزمات، يعود اقتصادهم كالجسد الواحد. وهذا ما فعلته الأمصار في عام الرمادة فساند المسلمون بعضهم بعضاً. لكن القضية لا تقف عند المساعدة وكأن بعضهم يتفضل على

[1] صحيح مسلم

بعض، بل هو أمرٌ يخص سلامة دينهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: (**من أصبحَ وَهَمُّهُ غيرُ اللَّهِ فليسَ منَ اللَّهِ ومَن أصبحَ لا يَهتمُّ بالمسلمينَ فليسَ منهُم**)[1].

لقد عاش أهل بلاد الشام ويعيشون قصة المهاجرين والأنصار بكامل تفاصيلها مع اختلاف المكان والأشخاص والزمان.

فالمكان مبارك كمكة والمدينة ولو بشكل آخر، فقد دعا صلى الله عليه وسلم للشام بالبركة فكانت مباركة: (**اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في يمَنِنا. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وفي نجَدِنا؟ قال: اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في يمَنِنا. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وفي نجَدِنا؟ فأظنُّه قال في الثالثةِ: هناك الزلازِلُ والفِتنُ، وبها يَطلُعُ قرنُ الشيطانِ**)[2]، وأرض الشام أرض هبطت فيها الرسالات السماوية السابقة، وهي أي الشام أرض المحشر والمنشر[3].

أما الأشخاص فليسوا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنهم أحبته وأخوانه، فقد روى أنس ابن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (**وددت أني لقيت إخواني، فقال أصحابه:**

[1] الجامع الصغير للسيوطي
[2] صحيح البخاري
[3] صحيح الجامع

أو ليس نحن أخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[1].

ويبقى اختلاف الزمان وهذا ما دعانا إلى القول بأنها سنة من سنن الله بين عباده وأنها قصة لن تنتهي. ويزيد الحدث الحالي تميزاً عما سبقه، أن المهاجرين والأنصار الحاليين منكوبون بفقد الآحاد والعشرات من أحبائهم.

لكن كيف يشد المسلمون أزر بعضهم بعضاً؟ هل بسدادهم زكاة أموالهم؟ أم يضيفون عليها بعض الصدقات؟

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه: بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاء رجل على راحلة له. قال: فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له)**[2]. قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

[1] السلسلة الصحيحة
[2] صحيح مسلم

إذًا عند الجائحات أو ما نسميه بالأزمات لا تقف المساعدة والمؤازرة عند الزكوات التي هي ركن الإسلام، ولا عند الصدقات التي هي واجبة من واجباته، بل كل ما زاد عن حاجات أَحدٍ من المسلمين هو بمثابة فضلٍ ليس له فيه حق ما دام غيره من المسلمين مُحتاجًا إليه، أو هكذا رأى أولئك الصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين خصهم الله تعالى بصحبة خير البرية، ومعلم الناس صلى الله عليه وسلم.

لقد أدَّب هذا النبي الكريم الناس وعلّمهم كيف يعيشون حياتهم في سعادة وهناء مهما قست ظروفهم الحياتية لفسادِ بعضهم، أو لجائحاتٍ أصابتهم.

إن ما سبق بيانه، ليس مخصوصًا بأهل بلاد الشام، بل يشمل كل بقاع المعمورة التي فيها مسلمون أصابتهم حاجة أو ألجأتهم ضرورة. هو درسٌ مستمر في إدارة الأزماتْ، فيه الحلول اجتماعية اقتصادية وليس العكس، فالناس وقد أصابتهم تلك الأزمات بحاجة، هم أحوج ما يكونون للمواساة والمؤازرة الإنسانية، خاصة أن فيهم الأطفال والنساء وكبار السن، فالمال ليس فيه سحر الحل لوحده، ولو كان ذلك لألّف بين قلوب الناس لكنه لم يفعل، وقد نبه الله تعالى إلى ذلك فقال: **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ**

أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: ٦٣).

إذن يُنظر إلى مرحلة الأزمات، بوصفها فترة زمنية، على أنها ابتلاء لمن أصابتهم، واختبار لغيرهم من المسلمين. فاغتنموا هذه الأيام المباركات ففيها تُزرع الإلفة والمحبة.

المبحث الرابع: الأحسن مبادرة قيادية اجتماعية

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد فيه الحقائق العلمية الراسخة، وكلما جُدِّد التأمل تجددت حقائق أخرى؛ وزيادة تخصص المتدبر لكتاب الله يكشف له ما لا يراه غيره إن أخلص عمله لله تعالى؛ فقد يفتح الله على يديه ويُنير بصيرته ويُثلج صدره بما يُشبع غريزته البحثية، التي لا تنفك تتساءل وتبحث عما هو أحسن.

والأحسن منهج يعلمه القرآن الكريم لمتدبره؛ فيجعله صاحب مبادرة قيادية دومًا؛ لأن المجتهد لا يرضى بالحسن ما دامت درجة الأحسن ممكنة، وما بعد الأحسن إلا أحسن منها، فإن سار الناس على هذا المنهج القيادي فإن الأمر بالمعروف سيَشيع بينهم، وسيكون النهي عن أي منكر فعلوه أو فعله بعضهم منهجًا رائداً في إصلاح الحياة بما فيها.

إن الإنسان العاقل المتدبر يعيش عمره مُتلمسًا ما فيه نجاته، وما فيه الأفضل له على هذه البسيطة، ويسعى لتحقيق ذلك بشتى الطرق التجريبية والاستنباطية، فالعقل زُوِّد بأدوات الشك، وتراه يعتمد على الحواس كمجسات لاستقبال بيانات محيطه البيئي؛ فيستفيد من نتائج تجاربها، ويُضيف عليها من مهاراته استنباطًا واستنتاجًا ليتلمس الأفضل.

لكن ضياع الأيام دون نتائج صحيحة مؤداه ضياع العمر الذي لن يعيشه الإنسان إلا مرة واحدة، لذلك يحاول الإنسان الاستفادة من تراكم المعارف التي تُتاح له عند غيره، لكنه سيكون أكثر تعقلاً لو حصل على معلومات فيها الحقائق جليّة، ليضيف لها المعارف المتراكمة بين أبناء جلدته، ثم يُعمل عقله تجربة واستنتاجًا عسى أن يستمتع بحياته الفريدة.

ولن يجد الإنسان أجدر من كلام الله تعالى المحفوظ من أي تحريف أو تشويه ليكون مصدر حقائقه؛ فلا يجدر بالإنسان أن يُخاطر بعمره الذي لن يُمنح غيره ثانية أبدًا، وهذه حقيقة علميّة أكّدها القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا، وهي ثابتة كسنة من سنن الحياة لا تتبدل ولا تتغير.

فأين المنهج العلمي الصحيح الأجدى بالإنسان تتبعه حتى لا يُخاطر بضياع عمره هباءً منثورًا؟

لقد **أمر** الله تعالى عباده بأن يحسنوا؛ فقال تعالى: **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (البقرة: ١٩٥).

ووعد عباده الذين يستجيبون لأوامره **بالأجر** العظيم؛ فقال تعالى: **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ**

عَظِيمٌ (آل عمران: ١٧٢). فمن استجاب لرسوله بعدما أصابتهم القروح والجروح.

وقد وعد الله عباده أن يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون، ليعلمهم بأن المبدأ القيادي يكون بأن يجزي من يتبعون له بأحسن ما عملوه وليس بحَسَنه فقط، وهذا يُكسب الولاء، قال الله تعالى: **وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (توبة: ١٢١).

كما أن الله تعالى قصّ على نبيه صلى الله عليه وسلم أحسن قصص الغابرين، فقال المولى عز وجلّ: **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** (يوسف: ٣).

فكيف **يفعل** عباد الله ذلك السلوك القيادي؟ وكيف يمارسونه؟

- إن حياكم أحد فحيوه بأحسن مما حياكم به؛ فإن قال: السلام عليكم؛ فليكن الرد وعليكم السلام أو وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لقوله تعالى مُعلمًا عباده: **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** (النساء: ٨٦).

- إن استثمر أحد مال يتيم؛ فلا يبحثن عن الفرص الحسنة؛ بل عليه بالأحسن، وهذا من باب الفرص البديلة الأفضل، قال الله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** (الأنعام: ١٥٢).
- قال الله لعباده بأن يأخذوا أحسن ما كتبه عليهم من فروض وواجبات، وليأتوا العزائم ولا يكتفوا بالرخص، فإن فعل كل واحد منهم ذلك كان أسوة حسنة لغيره وقاطرة جذب في المجتمع نحو الأفضل، قال الله تعالى: **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** (الأعراف: ١٤٥). وقال أيضًا: **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم** (الزمر: ٥٥).
- قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: خاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك، كما ذكر الطبري في تفسيره. قال الله تعالى: **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (النحل: ١٢٥).
- إن قال عباد الله قولاً، قالوا الأحسن، لقوله تعالى: **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (الإسراء: ٥٣).

- إن سمع عباد الله القول اتبعوا أحسنه، لقوله تعالى: **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** (الزمر: ١٨).
- إن دفع عباد الله عن أنفسهم دفعوا بالأحسن، لقوله تعالى: **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (المؤمنون: ٩٦). وفائدة هذا الدفع الصلاح والإصلاح بين الناس، يقول الله تعالى: **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** (فصلت: ٣٤).

وقد ذكر الله **الابتلاء** على أنه أداة تمييز وتمحيص للأحسن من العباد كما أنه أداة تمحيص للمؤمنين ممن دونهم، يقول الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** (هود: ٧). وقال أيضًا: **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** (الكهف: ٧).

إن من أجمل ما علَّم الله عباده، **التوازن القيادي**؛ لقد طالبهم بما ألزم نفسه به، وهو العظيم جلّ في علاه؛ قال الله تعالى: **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** (القصص: ٧٧).

لذلك على القادة أن يعاملوا أتباعهم ومواطنيهم أن يُحسنوا إليهم ثم ينتظرون منهم الأحسن، هذا إن بغوا منهم الإصلاح والإحسان بدل الفساد والإفساد في الأرض، فالأحسن أداة الولاء بين الأتباع والقائد، وأداة زرع القربى بين القائد وأتباعه، وبين الناس بعضهم بعضًا أيضًا، يقول الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

فسبحان الله ما أرحمه من إله، علّم عباده أن يكون كلاً منهم قائداً في مجتمعه، وصاحب مبادرة تُحتذى صغرت أم كبرت.

الفصل الرابع
الهياكل التنظيمية والقيادة

إنّ قوّة أيّ كيان؛ – سواء أكان مؤسّسة أم شركة أعمال، أو حتّى لو كانت أسرة – تتمثّل بقوّة هيكله التنظيميّ، فمن أراد بنيانا صحيحا يدوم ويدوم؛ فعليه تأسيس بنيانه بهيكل تنظيميّ محكم البنيان للحصول على أداء فعّال وعمل جادّ وكفاءة فائقة.

والمتأمّل في كتاب الله تعالى يجد هياكل تنظيمية منضبطة ومحكمة ينبغي للعاقل الحصيف أن يتعلّم منها؛ فهو عزّ وجلّ يعلّمنا، يقول الله تعالى: **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** (البقرة: ٢٨٢)؛ وإنّ محاولة تتبّع الهياكل التنظيمية لهذا الكون وتأويلها أمر مفيد؛ خاصّة أنّه نظام محكم – كما هي حال كلّ شيء في كتاب الله تعالى –، يقول الله العزيز الجبّار: **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** (آل عمران: ٧).

وقبل محاولة تتبّع الهياكل التنظيمية لهذا الكون لابد من قواعد عامة لذلك، وهي أن الطّبقات سنّة من سنن الله تعالى في هذه الحياة، وأن

الرّعاية أساس حمل المسؤوليّة، وأخلاق العاملين ورؤسائهم، أساس تحقيق الولاء.

الطّبقات سنّة من سنن الله تعالى في هذه الحياة:

هناك فارق بين المساواة والعدل؛ فالمساواة تتحقّق بأن تعطي وارثين اثنين لكلّ منهما مثل الآخر، أمّا العدل فأمره غير ذلك؛ فحصّة الوارث تتناسب بحسب كونه (ذكرا أو أنثى)، وبحسب موقعه في سلّم الأسرة؛ فالأنثى قد تكون (بنتا، أو أختا، أو أمّا، أو جدّة، أو خالة، أو عمّة، وقد تكون وحيدة أو معها غيرها). وكذلك الذّكر قد يكون (ابنا، أو أخا، أو عمّا، أو خالا، أو جدّا، وقد يكون وحيدا أو معه غيره)، وبما أنّ احتياجات كلّ من سبق ذكره تتبّدل فإنّ نظام توزيع الإرث الشرعيّ يراعي كلّ ذلك بطريقة اجتماعية عادلة فريدة من نوعها؛ لذلك من تعلّم المواريث سيجد حالات تزيد فيها حصّة الذّكر عن الأنثى، وفي حالات ثانية يتساويان، وفي حالات أخرى تزيد حصّة الأنثى عن الذّكر، وذلك هو العدل.

ويحتاج تصريف شؤون حياة الناس للتفاوت كونهم متدرّجين في الشكل والإدراك، وكذلك في القدرة والتصرّف، وفي الغنى والفقر، وهذا أفضل ممّا لو كان شأنهم واحدا؛ ليستخدم بعضهم بعضا؛ فيستفيد الجميع، ويعيشون على هذه البسيطة متعاونين متكافلين. يقول المولى: **أَهُمْ**

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (الزخرف: ٣٢)، ويقول أيضا: انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (الإسراء: ٢١).

وهذه السنّة جارية على الأنبياء أيضا وهم أفضل البشر عليهم الصلاة والسلام، فقد ميّز الله بعضهم عن بعض فقال عزّ وجلّ: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ (البقرة: ٢٥٣).

الرّعاية أساس حمل المسؤوليّة:

بناء على سنّة الله في قسمة المعيشة تناسبيّا، وتمايز الناس بعضهم فوق بعض؛ فقد أُلزم الأعلى رعاية من هو أدنى منه، ومن هو تحت كفله؛ فمثلا نبيّ الله زكريا قد كفل مريم عليهما السلام، يقول تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا (آل عمران: ٣٧).

ويخاطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلّ مسؤول لديه من هم مسؤول عنهم – مهما كانت نوعيّة مسؤوليّته –؛ روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: **(كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته؛ فالإمام راع ومسؤول عن رعيّته، والرّجل في أهله راع وهو مسؤول عن**

رعيّته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسؤول عن رعيّته). قال فسمعت هؤلاء من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأحسب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: **(والرّجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيّته، فكلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيّته)**[1].

لكنّ قد تتغيّر الأحوال، وتنقلب الأدوار؛ فيكبر الأبناء ويشيخ والداهم كلاهما أو أحدهما فيكونان في كفالته، يقول تعالى: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وتسري هذه المنهجية على الغنيّ تجاه الفقير، وعلى الدائن تجاه مدينه الغارم؛ ليغدو المجتمع متكاتفا متكافلا متآلفا متراحما كأنّه جسد واحد، كما شبّهه رسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم بقوله: **(مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر)**[2].

---

[1] صحيح البخاري
[2] رواه النعمان بن بشير، مجموع الفتاوى: 28/208

وعلى ذلك يجب أن تكون صفة أيّ مجتمع في أيّ هيكل تنظيميّ.

أخلاق العاملين ورؤسائهم وتحقيق الولاء:

يخاطب ربّ العالمين عبده ورسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم؛ وهو خير خلقه – وقد وصفه في غير موضع بأنّه صاحب الخلق العظيم: **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** (القلم: ٤) –، فقال له: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (آل عمران: ١٥٩).

بذلك يمكننا فهم العلاقة المميّزة بين الرّئيس ومرؤوسيه؛ بل نستطيع أن نعلّل لماذا كان النّتاج شخصا مميّزا شهدت له الدّنيا حتّى قيام الساعة؟

إنّ قصّة أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم رسول الهدى صلّى الله عليه وسلّم تسع سنين حاضرة في ذهني لا تغيب عن خلدي؛ ففيها ما يعجز عنه جلّ الناس – إن لم نقل كلّهم – إذا لم يتحلّوا بخُلق النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ فهذا الرئيس لم ينكر على عامله فعلا فعله، ولا عاب عليه شيئا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدلّ على كمال خلقه وعظمته، وكذلك يدلّ على نباهة الفتى العامل. ووالله ما قرأت هذا الكلام إلاّ واقشعرّ جلدي، وقد عشت جلّ عمري مديرا ورئيسا لأعمالي، فأيّ تربية هذه التي تربّى عليها أنس رضي الله عنه؟؛ فالمرؤوس كان فاهما

لعمله، مستوعبا لما عليه من واجبات، ولا حاجة لرئيسه أن يوجّهه، وأن يؤنّبه، أو ما شابه ذلك، روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسع سنين فما أعلمه قال لي قطّ: لم فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب عليّ شيئا قطّ[1].

وهذا ما علينا أن نعلمه وأن نطبّقه في مؤسّساتنا وبين جميع مستويات الهياكل التنظيمية تأسّيا بخير الخلق محمّد صلوات الله وسلامه عليه؛ فهو القائد، والمدير، وهو القدوة المثلى، والأسوة الحسنة.

ولا يصحّ ما عليه حال أولئك الذين يديرون أمور الناس ويعاملونهم بالشّتم، والسّباب، واللفظ الغليظ، وقد شهدت شخصيّا وعملت في أكثر من مؤسّسة – معتبرة – يعامل فيها مديروها العامّون موظّفيهم بقسوة وجلافة، كما عرفت وشهدت أعضاء ورؤساء مجالس إدارة يفعلون ذلك مع مديرهم العامّين، ومن هم دونهم – ولا حاجة لذكر الأسماء –؛ لذلك لن نحصل على ولاء العامل لمؤسّسته بشكل حقيقيّ؛ لأنّ العلاقة المادّيّة هي الرابط الوحيد بينهما، وهذه علاقة لا تقوى على مقاومة أيّ إغراء أكبر منها، فلا شيء غيرها يربط العامل بمؤسّسته. ولننظر إلى قول الله تعالى في سورة الأنفال حيث أنّ المال عاجز عن تحقيق الألفة، يقول

[1] صحيح مسلم

المولى : لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال : ٦٣) .

المبحث الأول: الهيكل التنظيمي

يتكوّن الهيكل التنظيميّ في أيّ مؤسّسة أو كيان من مجموعة أنشطة ومهامّ تتوزّع بين العاملين فيها؛ بهدف التنسيق والإشراف على تنفيذ تلك الأنشطة والمهامّ وصولا لتحقيق غاية منشودة؛ لذلك يحدّد الهيكل التنظيميّ أسلوب العمل ونتائجه، ويحدّد المسؤوليات، ويساعد في وصف الوظائف والعمليات المحدّدة؛ فهو أداة التنظيم؛لأنّه يحدّد:

- آليات التحكّم بإجراءات التشغيل القياسيّة والمعتادة.
- الأفراد المتحمّلين لمسؤولية صنع القرار في كلّ إجراء، وبيان وجهات نظرهم.
- العلاقات العامودية (من الأعلى إلى الأسفل – الرئيس ومرؤوسيه) والعلاقات الأفقية (أي بين المرؤوسين من السّوية نفسها).
- المسؤولية على أساس تسلسلها القياديّ، أو على أساس الوظائف، أو كليهما معا. ويوضّح ذلك ما يسمّى بالمخطّط التنظيميّ Organizational Chart؛ فتتوسّع السلطة والمسؤولية كلّما تدرّج المستوى.
- حقوق وواجبات وامتيازات كلّ منصب في التنظيم.

✳ التنسيق بين الأنشطة، وتحليل الوظائف، ثمّ تحديد صفات المرشّحين المناسبين.

فإذا اختلف الهيكل التنظيميّ التنفيذيّ عن الهيكل التنظيميّ المرسوم والمخطّط فهذا معناه: أنّ المؤسّسة فيها سلطة غير رسميّة تتحكّم بزمام الأمور وتسيطر على العمل؛ ممّا يسمح بوجود التجاوزات، وهذا يعيق تطبيق محاسبة المسؤولية، وتحديد المسؤول الحقيقيّ عن أيّ تجاوزات – حال وجودها –؛ فيتعرقل أيّ تعاون، ويتوقّف تنفيذ المهامّ في وقتها المحدّد ضمن ما رسمته الموازنات التخطيطيّة.

وبالتفكّر في هذا الكون ونظامه فإنّ الله تعالى الخالق البارئ المالك – جلّ في علاه، وتعالى عن أيّ تشبيه – هو خالق كلّ شيء ومُوجده في هذا الكون، وهو واضع أنظمته بدقائقها خفيّها وجليّها، قد جعل دليل العمل فيه لعباده؛ فلكلّ أمّة كتاب كـ(التوراة والإنجيل وما سبقهما من كتب سماوية، ثم ختم بالقرآن الكريم ناسخا لما سبقه) كدليل عمل لهذا الكون وشارحا له. فأرسل الملك جبريل عليه السلام رسوله إلى من هم دونه من الخلق – ملائكة كانوا أم رسلا –، وخصّ الله تعالى بعض الملائكة بخواصّ ومهامّ دون غيرهم، وكذلك اختار رسلا من البشر، وخصّ بعضهم دون بعضهم الآخر بمزايا ومهامّ. ومن ذلك مثلا:

جبريل عليه السلام:

المهمّة:

- التواصل بين ربّ العالمين – جلّ في علاه – وملائكته وكذلك رسله عليهم الصلاة والسلام.
- تحقيق أوامر الله تعالى.

الخصوصيّة:

جعل الله لهذا المَلك خواصّ لم تكن لغيره ومرتبة خاصّة به، فقال تعالى: **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** (البقرة: ٩٧). وقال تعالى: **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ** (التحريم: ٤).

الحماية:

كان لبعض الملائكة المقرّبين كجبريل وميكال عليهما السلام حماية تخصّهما بسبب مرتبتهما عنده تعالى، قال تعالى: **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** (البقرة: ٩٨).

مهامّ خواصّ الملائكة:

- إسرافيل: النفخ في الصّور يوم القيامة إيذانا بيوم الحساب.
- مَلك الجبال: إدارة أعمال الجبال.
- مَلك الموت: قبض أرواح الخلق.

الرّسل عليهم الصلاة والسلام:

المهامّ:

التواصل بين جبريل رسول ربّ العزّة عزّ وجلّ وبين الناس؛ فمنهم من كان:

✳ **رسولا مخصّصا لقومه**: يبلغهم رسالة ربّهم في الدنيا، ويكون معهم شهيدا يوم الحساب، يقول تعالى: **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (يونس: ٤٧).

✳ **رسولا للمكلّفين من الإنس والجنّ كافّة**: وهذه خاصّية للحبيب محمّد صلّى الله عليه وسلّم، يقول تعالى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (الأعراف: ١٥٨).

الواجبات:

شاهدٌ: قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقرة: ١٤٣).

حُجّةٌ: قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ (البقرة: ١٤٣).

مُبشّرٌ: قال تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (البقرة: ٢١٣)، وقال: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (الفرقان: ٥٦).

مُنذرٌ: قال تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (البقرة: ٢١٣). وقال تعالى: إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (الرعد: ٧).

مُبلّغٌ: قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران: ٢٠).

والبلاغ يكون واضحا لمن هم أدنى درجة في الهيكل التنظيميّ – أيّ للناس – غير معقّد يَسهل فهمه مباشرة دون اعوجاج ولا يكتم منه شيئا، يقول تعالى: مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (المائدة: ٩٩).

ويبقى المستوى الأعلى تنظيميّا مراقبا عالما بأفعال المبلّغين العلنيّة؛ أمّا علم السّرّ فلا يكون إلاّ لله تعالى وحده؛ لأنّه هو تعالى من يعلم السرائر.

التعليم والحكمة: إنّ مهمّة الأعلى تنظيميّا تعليم من هم دونه بحكمة وتزكية، يقول الله تعالى:

- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة: ١٢٩).
- كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (البقرة: ١٥١).

الصّلاحيات:

ينحصر عمل الرسول تجاه من هم أدنى منه من الناس بالتذكير، يقول الله تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (الغاشية: ٢١). وليس في التفويض الممنوح للرسول السيطرة على الناس: لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (الغاشية: ٢٢)؛ إنّ صفة الرسول كما أوضحنا (شاهِدٌ ومُنذِرٌ ومُبلِغٌ)؛ لذلك ليس له سلطان أكثر من ذلك، يقول الله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (آل عمران: ١٢٨).

لكنّ صلاحيات معاقبة المخالفين للرسول هي مهمّة المستوى الأعلى في الهيكل التنظيميّ وهو الله جلّ في علاه: **إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم** (الغاشية: ٢٣-٢٦).

وقد يعطي الأعلى تنظيميا من هم أدنى منه صلاحيات تخصّهم بحسب ما فوّضهم من مسؤوليات، يقول الله تعالى عمّن أكل الرّبا مهدّدا إياهم بحرب منه تعالى ومن رسوله المقيم لحدوده: **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** (البقرة: ٢٧٩).

الصّفات:

الرّسول إنسان يصيبه ما أصاب غيره من الناس:

فهو ليس خارقا إلا بما أوتي من معجزات تخصّه، ومن ذلك أنّه:

- عبد من عباد الله تعالى، آمن بالله كما آمن الناس ممّن اتّبعوه، قال تعالى: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** (البقرة: ٢٨٥).

- يأكل ويشرب كغيره من البشر، ويتجوّل في الأسواق؛ ليقضي حاجاته كغيره من الناس، يقول الله عزّ وجلّ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (الفرقان: ٢٠).
- يُمتحن ويُختبر شأنه شأن سائر الخلائق، يقول الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة: ٢١٤).

الرسول صاحب علم وحجّة:

إنّ هذه صفة من يجب اختيارهم لتقلّد العمالة، والمستوى الأعلى تنظيميّا يزوّدهم بأدوات تساعدهم في تحقيق مهمّته، يقول تعالى: وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (آل عمران: ٤٩).

ويؤدي الرسول المختار مهامه بلغة قومه لأجل التبيين والتوضيح دون لُبس، ولا يصح أن يكلم الناس بلغة لا يفهمونها أو يصعب عليهم فهمها، يقول الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (إبراهيم: ٤).

الرّسول صاحب قوّة وأمانة:

يجب اختيار العامل صاحب القوّة والأمانة، يقول الله تعالى: قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (القصص: ٢٦).

الرّسول حفيظ عليم:

يمكن لمن مَلك صفات العامل من (حفظ وعلم) أن يرشّح نفسه للمنصب الذي يراه أهلا له: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (يوسف: ٥٥).

الرّسول مُمكَّن من المستوى الأعلى تنظيميا: وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ (يوسف: ٥٦)، وكذلك قال الله تعالى على لسان الملك ليوسف عليه السلام عندما عيّنه واختاره: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (يوسف: ٥٤).

الأجور والحقوق محفوظة:

إنّ أجر العامل وحقوقه محفوظة، يقول تعالى: **وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (يوسف: ٥٦).

وقد يكون أجر العامل دنيويّا؛ فلرسول الله الخمس، قال تعالى: **اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (الأنفال: ٤١).

وأوصى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإعطاء العامل أجره دون بخس له، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: **(أعط الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه)**.

الحماية:

لابدّ من ضمان وتأمين الحماية للعمّال؛ ليكونوا في مأمن من غيره، يقول الله تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسلام: **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** (المائدة: ٦٧). وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام لّما أمرهما بتنفيذ المهمّة الملقاة على عاتقهما تجاه فرعون طاغية الأرض: **قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** (طه: ٤٦).

الحياد والموضوعية:

لا يعمل العامل المعينّ بهواه، ولا يحقّ لمن هم دونه أن يظنّوا به ذلك، يقول الله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** (البقرة: ٨٧).

العقوبات:

إذا كذب العامل، أو حاد عن عمله المكلّف به – حتّى لو كان رسولا – أصابته العقوبة من وليّ أمره، يقول الله تعالى عن رسوله عليه الصلاة والسلام: **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** (الحاقة: ٤٤–٤٦).

تحديد المهامّ وفصلها:

التبليغ:

يترتّب على العامل إنجاز ما أوكل إليه، دون تعدّ، يقول الله تعالى:

- **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** (المائدة: ٦٧).
- **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** (هود: ٢).

- فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (الرعد: ٤٠).

ويقتضي التبليغ أن يُفصح العامل عن مهمّته ليعلم معاملوه ذلك؛ فالله تعالى قال لعبده ورسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن يبلّغ الناس بمهمّته: وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (الحجر: ٨٩).

طاعته واجبة:

إنّ الطاعة لمن هم دون الأعلى في الهرم التنظيميّ واجبة، ومن لم يفعل ممّن هم دونه في الهرم التنظيميّ ذلك فقد بيّن لهم تعالى تهديده وترغيبه، فهو تعالى لا يحبّ الكافرين، كما أنّه جلّ في علاه سيرحم الطائعين لأوامره؛ لذلك يجب على ولاة الأمورالأعلى تنظيميّا استخدام الأمرين كليهما من ترغيب وترهيب؛ لتطبيق نظام العمل بدقّة، يقول الله تعالى:

- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (آل عمران: ٣٢).
- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (آل عمران: ١٣٢).

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **(من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني. ومن يعص الأمير فقد عصاني)**، وفي رواية: بهذا الإسناد، ولم يذكر ومن يعص

الأمير فقد عصاني[1]. ويقول أيضا: **(من أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدّنيا أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله عزّ وجلّ في الدّنيا أهانه الله يوم القيامة)**[2].

اختيار العمال:

اختار الله تعالى ملائكته ورسله العاملين، قال تعالى: **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** (الحجّ: ٧٥).

والأعلى تنظيميًا، يختار العمّال الأكثر كفاءة ومناسبة لأداء الأعمال؛ فإن لم يفعل، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، يقول صلّى الله عليه وسلّم: **(من أعان على باطل ليدحض بباطله حقّا فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن مشى إلى سلطان الله في الأرض ليذلّه أذلّ الله رقبته يوم القيامة)** – أو قال – إلى يوم القيامة مع ما يدّخر له من خزي يوم القيامة، وسلطان الله في الأرض كتاب الله وسنّة نبيّه، و **(من استعمل رجلا وهو يجد غيره خيرا منه وأعلم منه بكتاب الله وسنّة نبيّه فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين)**، و **(من ولي من أمر المسلمين شيئا لم ينظر**

[1] صحيح مسلم
[2] مجمع الزوائد: ٥/٢١٨

الله له في حاجته حتّى ينظر في حاجتهم ويؤدّي إليهم حقوقهم)، و **(من أكل درهم ربا كان عليه مثل إثم ستّ وثلاثين زنية في الإسلام، ومن نبت لحمه من سحت فالنّار أولى به)**[1].

إنّ المتتبّع لصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يجد أنّ بعضهم كان خادما له – أي عاملا له – يقوم على خدمته، ثمّ بصحبة معلّمه ومربّيه المرشد تعلّم منه فصار محدّثا ومعلّما للأمّة كأنس بن مالك رضي الله عنه، وبذلك لا بدّ من انتقاء الأفضل ممّن تربّى وترعرع ضمن المؤسّسة، وعدم التفريط بهم وترقيتهم في السّلّم الوظيفيّ؛ ليتدرّج في هيكل المؤسّسة التنظيميّ وصولا لأعلى المراتب فيه – نظرا لخبراته التي تتراكم وقدراته التي تتوسّع وتنمو. وقد خاطب ربّ العالمين جلّ في علاه كليمه موسى عليه السلام بأنّه تعالى قد ربّاه على رعايته وبحفظه فقال عزّ من قائل: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** (طه: ٣٩).

الرّقابة:

يجب على جميع المستويات الأعلى، إحكام رقابتها على من هم أدنى منهم؛ فحتّى الرّسل هناك من يرقبهم، يقول الله تعالى: **إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن**

[1] السلسلة الصحيحة: ٣/١٨

رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجنّ: ٢٧–٢٨).

حساب الرّسل عليهم السّلام وسؤالهم:

يخضع المستوى الأدنى لمساءلة من هم أعلى منه تنظيميّا، يقول الله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (المائدة: ١٠٩).

مثال ذلك: يسأل الله تعالى رسوله عيسى عليه السلام – وهو أعلم – عمّا فعله الناس من أتباعه عليه السلام، فيجيب عيسى عليه السّلام بأدب الحوار بتمجيد الله تعالى والتزامه بالمهمّة الملقاة على عاتقه وعدم مخالفته، وأنّ الله تعالى هو العليم؛ فهو يعلم ما في نفس الرّسول، والرّسول لا يعلم ما في نفس الله تعالى، وهذا بيان لقدرة المولى؛ فالعبد الرّسول يعلم قدرة مولاه جلّ في علاه؛ فالمهمّة أنجزت كما أمر المستوى الأعلى تنظيميّا ونصّها: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، فهو – أعني: الرسول والناس المبلّغين – مجرّد عباد لله تعالى، ويقول لربّه – وهو أعلم – : بأنّه شاهد على الناس ما دام فيهم، أمّا رقابة الله فلا تنقضي وهو شاهد حيّ باق لا يموت – كما هي حال العباد من رسل وغيرهم –، وبذلك يتّضح مدى فهم الرّسول لمهمّته الملقاة على عاتقه، وكيف يقدّر الأعلى منه حقّ التقدير،

وكيف أنّ له الحقّ في بيان فعله مع ذكر شواهده، وأنّه صادق، ولا يكفي صدقه؛ بل إنّ رقابة المستوى الأعلى وشهادته قائمة عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧).

المبحث الثاني: دليل العمل

يزوّد الله تعالى رسله بأدلّة العمل الواجب اتّباعها وتتلخّص بكتبه تعالى من (توراةٍ، وزَبورٍ، وإنجيلٍ، والقرآن الكريم الناسخِ لِما قَبْلَه)، ويبينّ الدليل ما اختلف فيه الناس ليكون فيه هداهم، يقول الله تعالى: **وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (البقرة: ٢١٣).

ودليل العمل (إن جاز التشبيه) مهمّته تبيين وتوضيح المهامّ حتى يمتنع الخلاف ويُرفع الاختلاف، وقد وصف الله تعالى قرآنه بأنّه أنزله لتبيينّ ما اُختلف فيه، يقول تعالى: **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (النحل: ٦٤).

والدليل هو أداة قيام العدل بين الناس؛ لكنّ العدل يحتاج القوّة لتطبيقه، ولأجل بيان القوّة فقد أنزل الله الحديد من خارج كوكب الأرض؛ ليكون أداة البأس الشديد والقوّة للحاكم بأمر الله تعالى، يقول تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا**

الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد: ٢٥).

شمول الهيكليّة التنظيميّة لمرافق الحياة:

إنّ للهيكل التنظيميّ رأسًا واحدًا، وكذلك لكلّ فرع من فروعه أيضا. وتمتدّ شمولية هذا الترتيب التنظيميّ للأسرة؛ حيث الرّجل والمرأة وأولادهما، وكذلك إذا اجتمع ثلاثة فأكثر، وصولا للكون جميعه. وعليه فإنّ:

– القوامة في الهيكل التنظيميّ للأسرة جُعلت للرّجل، قال تعالى: وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (البقرة: ٢٢٨). ومسبّبات هذه القوامة تحمّل المسؤولية الجسديّة والماليّة، وقد منع الله أيّ ظلم وبغي للرّجل على من هم دونه، ووصف الله تعالى صنفا من النساء بأوصاف جميلة وكاملة، ووصف صنفا منهنّ بأقلّ من ذلك، وترك للرّجل مهمّة إدارة شؤون الأسرة دون البغي فذكّره – أي الرّجل – بعلوّ الله تعالى وبأنّه كبير فلا يتجاوز ما أمره به. قال تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي

تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (النساء: ١٣٤) .

– الهيكل التنظيميّ واجب على أيّ تجمّع من المسلمين بدءا من ثلاثة أفراد وأكثر، قال صلّى الله عليه وسلّم: **(إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم)**[1] . كما فرض الله تعالى على المسلمين صلاة الجماعة خمس مرّات في اليوم يؤمّهم أكثرهم حفظًا لكتاب الله، وهذا ضابط مهمّ في اختيار هذا الإمام.

– الهيكل التنظيميّ هو شأن الكون كلّه، كما ذكرنا سابقا.

أمّا تعدّد المرجعيّة ضمن الهيكل التنظيميّ فمؤدّاه فساده؛ ففي الكون إله واحد أحد، ولا يصحّ غير ذلك؛ بل يستحيل، يقول الله تعالى:

- لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (الأنبياء: ٢٢) .
- وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (النحل: ٥١) .
- مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (المؤمنون: ٩١) .

[1] تخريج الإحياء: ٢/٣١٤

الحوار مع من هم أدنى في الهيكل التنظيميّ:

إنّ للحوار بين طبقات الهيكل التنظيميّ أهميّة واضحة تتلخّص في زيادة فاعلية العاملين، وتحسين كفاءتهم؛ لأنّه يقرّب الأشخاص المتحاورين، ويوجد بين أفكارهم بعصف ذهنيّ إبداعيّ، وخير شاهد على ذلك قصّة أبي سفيان – قبل إسلامه – عندما ذهب للمدينة فرأى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكيف يخدمونه ويتعاملون معه، فقال: ما رأيت من الناس أحدا يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً. إنّها التربية بالحبّ والوفاء والودّ.

وهناك أمثلة كثيرة أوردها القرآن الكريم، سنذكر بعضا منها؛ وذلك لاقتباس بعض العبر والقواعد المهمّة.

مثال (١): حوار الله تعالى مع ملائكته ومع آدم عليه السلام:

هو حوار الأعلى في الهيكل التنظيميّ مع من هم أدنى منه، مثال ذلك حوار الله تعالى مع ملائكته الكرام، ومع أبينا آدم عليه السلام؛ ففي ذلك تبليغ للمستويات جميعا بما عليهم من مسؤوليات مناطة بهم، وتفهيم لهم بمهامّهم؛ فقد أبلغ المولى عزّ وجلّ ملائكته الكرام أنّه تعالى جاعل في الأرض خليفة له، فأجابت الملائكة على المستوى الأعلى تنظيميّا تستفسر وتدلي بما عندها من معرفة، فردّ عليهم الله جلّ في علاه بقوله سبحانه

وتعالى: إنِّي أعلَمُ مَا لا تعلمونَ؛ وبذلك يجب أن يكون من يجلس أعلى في الهيكل التنظيميّ أكثر علمًا وتدبيرًا ممّن هم دونه، فعلمت الملائكة ما يجب أن تعلمه لتقوم بعملها بشكل سويّ غير ذي عوج ولا نقص؛ فشدّة الحساب حال الخطأ كبيرة جدّا: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة: ٣٠).

ثمّ علّم الله تعالى أبينا آدم عليه السلام ما يجب أن يعلمه؛ ليقيم أمر الله تعالى في الأرض من لغات وأسماء وما شابه، وهذا دليل على ضرورة تعليم المستويات الأعلى – وخاصّة رأس الهرم التنظيميّ من هم دونه –، ولم يكتف الله عزّ وجلّ بتعليم من كلّفه حمل الأمانة؛ أيّ آدم عليه السلام؛ بل أطلع الملائكة على ما عند آدم عليه السلام من علم، فسألهم أن يُنبئوه تعالى – وهو الأعلم – بما علّمه آدم عليه السلام، فقالوا لا علم لهم بذلك، فطلب من آدم عليه السلام أن يُنبئهم، فلمّا أنبأهم، أعلمهم الله تعالى بسعة علمه، وقوّة سلطانه في السماوات والأرض، وعلمه بما في العلن والسرائر للخلائق كافّة. وهذا يدلّ على أنّ رأس الهرم التنظيميّ يجب أن يكون لديه العلم الواسع والقدرة على الرقابة والمتابعة، ولديه إمكان العقاب والثواب. قال تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(البقرة: ٣١-٣٣).

ويستفاد ممّا سبق بيانه أيضا كما ذكر الإمام القرطبيّ في تفسيره[1]: الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: (لا أدري)، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء. وهذا ما يجب أن يتحلّى به العاملون تجاه من هم أعلى منهم، أو أدنى منهم في السلّم التنظيميّ.

مثال (٢): حوار الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام:

سأل إبراهيم عليه السلام ربّه عن كيفية إحيائه تعالى للموتى، وهذا يوضّح حقّ المستوى الأدنى في طلب التعلّم ممّن هو فوقه في الهيكل التنظيميّ، ثمّ نجد أنّ الله تعالى حليم، وهذه صفة من هم في أعلى السّلّم التنظيميّ، فيسأله المولى عزّ وجلّ وهو أعلم: **أَوَلَمْ تُؤْمِن**؟، هنا يرسي سيّدنا إبراهيم عليه السلام مبدأ عظيما للناس؛ فمن الناس من يؤمن تسليما دون أدلّة مادّيّة، وهناك من يحتاج الدليل المادّيّ – كما فعل الحواريون وسنرى ذلك لاحقا – وهذا منهج فعله خليل الرّحمن الذي

[1] القرطبي، تفسير القرطبي ٢٩٩/١.

أسلم لله تعالى بمحاكاته العقليّة للنجوم، وبتكسيره للأصنام، وإقامة الحجّة على الناس وهو فتى قبل أن يصبح رسولا؛ لذلك علينا أن نبينّ للناس ما غاب عنهم بالحجّة الصّحيحة الدامغة والبرهان الساطع دون إنكار ذلك عليهم؛ لأنّ أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك. وفعلا أجاب الله تعالى طلب إبراهيم بتجربة مادّيّة محسوسة وملموسة تجعل العقل يتلمّس الحجّة من خلال حواسّ (اللمس، والنظر، والسّمع، واللسان). قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (البقرة: ٢٦٠).

مثال (٣): حوار الله تعالى مع موسى عليه السلام، وكذلك حوار موسى عليه السلام مع فرعون ورقابة الله تعالى ودعمه لرسوله عليه السلام:

لنا في حوار موسى عليه السلام لبني إسرائيل العديد من القصص القرآنيّة، وسنختار منها قصّته عليه السلام مع فرعون لنكون أمام رئيسِي هيكلين تنظيميين لنستنبط قواعد مهمّة في مجال بحثنا:

اختار الله تعالى عبده موسّى لحمل الرّسالة، ويستفاد من هذا ضرورة البحث عن الكفاءات قال تعالى: **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** (طه:

١٣)؛ فكلّفه تعالى بعبادته، وإقامة الصلاة؛ لذلك لا استخدام ولا توظيف دون مهامّ محدّدة، ولابدّ من بيان ذلك لمن تمّ استخدامه؛ لمنحه القوّة التي تجعله يتمتّع بالاستقلالية فيتعلّق أمره بمن هو أعلى منه تنظيميّا لا بمن هو أدنى منه: **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** (طه: ١٤-١٦).

واختار المولى عزّ وجلّ أشياء بسيطة ليبرهن ذلك لعبده المصطفى المختار، فطلب منه التعبير عن صفات أدوات يملكها ويدركها قال تعالى: **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى** (طه: ١٧-١٩). ثمّ منح الله تعالى تلك الأدوات قدرات خاصّة زوّدها لعبده الذي استخدمه لحمل المهمّة بقوّة اليقين وقوّة الحجّة فلا يذهب ضعيفًا؛ فالرّسول قويّ مكين؛ لأنه يُبلّغ عن قوّي مكين، ولابدّ له من نقل الصّورة كاملة قال تعالى: **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** (طه: ٢٠-٢٣).

ثمّ بعد الاختيار الصّحيح للعامل وتجهيزه مباشرة، ثمّ تعليمه وتمكينه، ومن ثمّ إبلاغه بالمهمّة الملقاة عليه جاءه الأمر الرّبّانيّ بقوله تعالى: **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** (طه: ٢٤).

ولو علم موسى كليم الله هذه المهمّة التي ستوكل إليه قبل المراحل السابقة لكان الأمر صعبًا عليه وغير ممكن التحقيق؛ لكنّ التدرّج الذي اتّبعه المولى مع عبده المختار هو تعليم لنا وللقائمين على أمور الناس بمنهج التعامل الصحيح؛ فالإنسان عاجز – رغم ما أعطاه الله عزّ وجلّ من قدرات؛ لذلك ذكر الله لنا أنّه: **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** (يوسف: ٧٦)، والله هو العزيز العليم؛ لذلك قَبل موسى عليه السلام المهمّة دون وجل فلقد تعلّم من درس العصا أنّ رسول الله تعالى لا يخاف – وإن خاف فخوفه لا يستمرّ –؛ لأنّه رسول العزيز الجبّار، وأدرك مكانته وموقعه من الهرم التنظيميّ فامتثل. ثمّ طلب موسى عليه السلام المزيد من العون والمساعدة لأداء المهمّة كدعاء الله، ثمّ بالاستعانة بعمّال آخرين اختارهم بعناية كما علّمه الله وكان أخاه هارون، قال تعالى: **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى**

(طه: ٢٦–٣٧). وقد ذكر موسى عليه السلام في غير موضع صفات وزيره فقال عنه: **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** (القصص: ٣٤–٣٥).

لقد أعطى الله تعالى موسى ما سأله، وهذا دليل على واجبات (تعالى عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا) من هم في أعلى الهرم التنظيميّ؛ من حيث تمكين عمّالهم، ومشاركتهم رأيهم، والوقوف عند سؤلهم، وتحقيق ما يرونه مساعدا لأداء مهامّهم؛ بل زاد الله تعالى على سؤل موسى عليه السلام بأن أيّده بسلطان الحماية الكاملة، ثمّ أيّده بالنتيجة التي ستكون؛ ليزيد من ثقته بأداء المهمّة.

لقد تمّ التجهيز الكامل للمهمّة فحقّ لموسى عليه السلام كسب تلك الثقة المطلقة. وهو يعلم علم اليقين قدرة مولاه تسليما وتجربة كما ذكرنا آنفا، ويعلم أنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء، وأنّه يقول للأمر كن فيكون: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (النحل: ٤٠).

مثال (٤): حوار رسول الله عيسى عليه السلام مع الحواريين:

سأل الحواريون عيسى عليه السلام أن يبرهن لهم قدرته ومكانته وعلمه، فسألوه برهانا ليكونوا عليه شهداء، قال الله تعالى: **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا**

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (المائدة: ١١٢-١١٣).

فطلب عيسى من ربّه ذلك: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (المائدة: ١١٤).

فأنزل الله تعالى ما سألوه عيسى متوعّدا إيّاهم بالعذاب الشديد إن خالفوا بعد ذلك؛ لأنّهم لم يؤمنوا حتّى يروا برهانًا ساطعًا ودليلاً ملموسًا فحقّ لهم ذلك كما حقّ عليهم الوعيد منه تعالى: قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (المائدة: ١١٥).

ويستفاد من ذلك أنّه يترتّب على المستوى الأدنى تطبيق التعليمات الصادرة من المستوى الأعلى مع حقّهم بطلب البيّنة على ما سيقومون به من المستوى الأعلى منهم، ويجب أن يتضمّن دليل العمل نظام العقوبات للمخالفين؛ ليعلموا علم اليقين ما هم عليه وما ينتظرهم من ثواب كأجر، ومن عقاب.

المبحث الثالث: تطبيق الحوكمة في الهيكل التنظيمي

إنّ تطبيق مبدأ الاستمراريّة أمر مهمّ، فلا يمكن لأيّ كيان أن يحقّق مكاسب ومنافع إلاّ في المدى الطويل، ومعنى المدى الطويل: الاستمرارية، وهذا ما يجب أن يتحقّق في الهيكل التنظيميّ بوصفه أوّل حجر يتمّ وضعه في الكيان.

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مختار مكلّف من الله تعالى كما اختار غيره ممّن سبقه من الرّسل، رسالته مستمرّة وليست مرتبطة بوجوده؛ بل بوجود الله تعالى الخالق البارئ الذي لا يموت ولا يبلى، يقول تعالى: **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** (آل عمران: ١٤٤).

وقد فهم سيّد الخلق محمّد صلّى الله عليه وسلّم هذه العلاقة فربط مصيره ومصير دعوته بربّه الخالق فقال لعمّه الذي عرض عليه كلّ ما يطلبه أي داعية أو زعيم، وقد أخذه إلى آخر ما ينشده الناس فعرض عليه أن يكون ملكًا؛ لكنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجابه جوابا غير ما يتوقّعه عمّه فقال له: **(يا عمّاه، والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في**

شمالي على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) .

كما فهم ذلك الخليفة الأوّل أبو بكر رضي الله عنه[1]، فعندما ضجّ الناس عند موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال أبو بكر لمن حوله – ومنهم عمر الفاروق – رضي الله عنهما : أيّها الحالف على رِسلك، ثمّ حمد أبو بكر الله وأثنى عليه، وقال : ألا من كان يعبد محمّداً صلّى الله عليه وسلّم فإنّ محمّدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت . وذكر قول الله تعالى : **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** (الزّمر : ٣٠) . فذكّرهم رضي الله عنه بأنّ التعلّق يكون بالله دون غيره ولو كان خير خلقه؛ لأنّه تعالى هو الباقي بلا فناء .

وكذلك كان سلوك خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو القائد العسكريّ الفذّ، الذي ما أخبرنا التاريخ عنه إلاّ وجعل الله الانتصارات على يديه، وكان ذا حنكة ودهاء، فعندما جاءه كتاب الخليفة عمر رضي الله عنه وهو يقود إحدى معارك فتح الشام، وكان مضمون الكتاب عزله عن القيادة وتولية أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه . ورغم صعوبة فهم تصرّف خالد رضي الله عنه قياساً على ما يحصل عادة هو أمر محرج وصعب

[1] صحيح البخاري

للغاية؛ فمن هو في موقف خالد رضي الله عنه قد لا يكون مضطراً لتنفيذ هكذا أمر في الوقت الحرج، فهو ممسك بالسلطة والقوّة والأتباع. وقد يغيب عن كثيرين فهم الصورة واستيعابها، فكيف يُفهم تصرّفه رضي الله عنه وقد كتم الخبر لغاية الليل، ثمّ ذهب إلى أبي عبيدة ليسلّم عليه كما يحيّي الجنديّ قائده، قائلا: عيّنت أنت القائد، وصرت أنا جنديّا عندك، مرني بما شئت يا أبا عبيدة؛ فلله درّك يا خالد، لقد أتعبت من بعدك. لقد عرف هذا القائد الفذّ أنّ المهمّة تتجاوز شخصه ولا يعتبر نقيصة فيه؛ بل هو رأي سديد لا يصدر إلاّ من رجل رشيد فهم معنى الجنديّة عند الله عزّ وجلّ ممّن هو أعلى منه في الهرم التنظيميّ؛ فمن يجلس أعلى يرى أفضل، والجميع في سفينة الله تعالى مغادرين إليه جلّ في علاه.

إنّ جمع السّلطات دون توزيعها أمر لا يليق إلاّ بالله تعالى فله الوحدانية دون سواه؛ فقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلّم أن يتحلى بصفات حميدة، فبينّ فضله عليه قائلا: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (آل عمران: ١٥٩)، فكانت مشاورة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه أمراً ربانيًا وتشريعيًا. وهذه حال أيّ هيكل تنظيمي في الكون. وتظهر عموميّة هذا الأمر ببيان

الله تعالى لعباده بأن يكون أمرهم بينهم شورى، قال جلّ وعلا: **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (الشورى: ٣٨).

لذلك لّما جمع فرعون السلطات كافّة بيده وبأمره، وصلت به الحال لأن يقول للناس: **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** (النازعات: ٢٤)، ثمّ دعاهم لإلغاء عقولهم فقال لهم: **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** (غافر: ٢٩). فكيف كانت النتيجة؟ النتيجة: أنّه أورد نفسه وقومه الهلاك في الدنيا وفي الآخرة مصيرهم النار كما أخبر الله تعالى: **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** (هود: ٩٨).

لذلك تعلمّت الناس أنّ توزيع السلطات هو الأمر الصحيح؛ فوزّعت سلطات الحكم إلى سلطات (تشريعية، وتنفيذية، وقضائية) وتُرك للحاكم الرشيد التنسيق بينها. وذلك خوفا من تكرار حال فرعون؛ الذي قال الله عنه: **وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ** (هود: ٩٧)، فبدأ الناس بالبحث عن الحكم الرشيد.

وتعتبر رقابة المستوى الأعلى في الهيكل التنظيميّ مشاركة في المسؤولية، ومرجعًا يحقّق الاطمئنان للعامل، ويزرع الثقة لدى الطرف الآخر – أو على الأقلّ يُشعره بأنّ الأمر ليس متوقّفًا عند هذا العامل وحسب –، يقول

الله تعالى: **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** (الرعد: ٤٣)؛ فالله تعالى شاهد على عمل العامل، وهذا دليل على أنّه مكلّف بالرسالة، وليس مدّعيا لها، وهذا الخالق العظيم (عندَه عِلمُ الكتابِ) أيّ لديه العلم بما هو مسطور في الكتاب، فلا شيء غير مكتوب؛ سواء من دليل عمل أو ممّا يعمله الناس، وعلى ذلك سيكون الحساب بالدليل الحسّيّ المكتوب، وستشهد به جوارح الإنسان التي عملت ما أمرها به، يقول الله تعالى: **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (فصّلت: ١٩-٢٠). وهذا ما تسعى إليه الحوكمة في توثيق الأعمال وكتابتها؛ سواء أكانت (خططًا أم نتائج) لأجل المراجعة، وتحقيق الموضوعية؛ لذلك لابدّ من إثباتات موضوعية تشهد على كلّ عامل في الهيكل التنظيميّ بما فعله، ولابدّ من حسابه ومناقشته بالأدلّة؛ لتبرأ ذمّته تجاه ما قدّمه، وهذا ينطبق على الجميع.

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ربّه في حديث قدسيّ رواه أبو ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه: **(يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا)**؛ أيّ أنّ ربّ العزّة جلّ في علاه منع

الظّلم على نفسه فتقدّس عنه وتعالى عنه، فهو في حقّه مستحيل، وحَكم بتحريمه بين الناس، فكان ذلك قانونًا ربّانيّا عامّا وشاملا لا يُستثنى منه أحد .

المبحث الرابع: الهيكل التنظيمي للكون أنموذجا

إنّ تطبيق التنظيم الهيكليّ ممكن في الأسرة، أو باجتماع ثلاثة فما فوق وصولا للكون جميعه. وبناء على ما سبق بيانه؛ يمكن وضع صفات الهيكل التنظيميّ المحكم كما يلي:

صفات عامّة:

- المسؤولية هي مسؤوليّة رعاية.
- حُسن الخلق مطلوب من الأعلى تنظيميّا ومن الأدنى أيضاً.
- ممارسة التوجيه التربويّ بشكل مستمرّ من الأعلى تنظيميّا أمر مفيد لما له دور في توثيق العلاقات بين مكوّنات الهيكل التنظيميّ وزيادة الولاء للعمل.
- يجب تفعيل الحوار بين المستويات الوظيفيّة كافّة لما له من أثر فعّال في ضبط العمل، ورفع سويّته.
- وضوح العلاقات التنظيميّة بين مستويات الهيكل التنظيمي كافّة.
- وضوح التفويض.
- توازن الصلاحيات المرتبطة بالتفويض.
- وضوح نظام المهامّ والواجبات.

نظام العمل:

- يجب وضع نظام للعمل بشكل واضح ومتاح للجميع؛ لأنّه يمنع الخلافات، ويحقّق العدل بين الجميع وكما قيل: "البيان يطرد الشيطان".
- يتضمّن دليل العمل نظامي الثواب والعقاب بشكل عادل.
- يجب تطبيق الحوكمة على الهيكل التنظيميّ بوصفه أوّل حجر يتمّ وضعه في أيّ كيان.

صفات تخصّ كلّ عنصر من الهيكل التنظيميّ:

- تواصل العاملين يكون حسب تراتيب الهيكل التنظيميّ.
- يجب بيان صفات العمل، وصفات من سيشغله.
- تأمين الحماية المناسبة للعامل.
- توضيح مهامّ العامل، وبيان الواجبات الملقاة على عاتقه، ويفيد ذلك بمعرفة أعضاء الهيكل التنظيميّ كافّة حدود تكليفه وعمله.
- يجب حفظ حقوق العاملين جميعهم، وعدم بخسهم شيئا.
- يجب أن يعلم العامل حدود تكليفه ومجال عمله وما أوكل إليه.
- يجب أن يفصح العامل عن مهمّته ليعلم معاملوه ذلك، أو أن يتمّ نشر ذلك في مكان واضح طبقا لطبيعة العمل.
- الطاعة للأعلى في الهرم التنظيميّ واجبة.

- يخضع المستوى الأدنى لمساءلة من هم أعلى منه تنظيميّا.
- وجوب إقامة العدل بين العاملين.

صفات الأعلى تنظيميّا:

- يمنح سلطات تخوّله القيام بالعمل، وتخويله لمن هم دونه أيضا بالسّلطات.
- هو مراقب عالم بأفعال من دونه.
- ليس له أن يتعدّى الحدود الموكلة إليه؛ فلا يتسلّط على من دونه فيستغلّهم أو يبتزّهم من خلال سلطاته.
- يجب عليه تعليم من هم دونه بحكمة.
- صاحب حجّة وعلم، وصاحب قوّة وأمانة، وحفيظ عليم.
- يجب تمكينه.
- يمارس عمله بشكل موضوعيّ دون هوى يأخذه يمنة ويسرة حسب مصالحه.
- يختار العمّال الأكثر كفاءة ومناسبة لأداء الأعمال.
- يجب على المستويات العليا كافّة إحكام رقابتها على من هم أدنى منهم.

- لديه القدرة على من هم دونه، ومن ذلك قدرته على منح الثواب، أو إنزال العقوبة، أو العفو عنها.

تلك هي قبسات من نور نستفيدها من الآيات البيّنات والأحاديث الشريفة في إيجاد الهياكل التنظيمية في المؤسّسات؛ لتكون مؤسّسات متينة وقوية في داخلها.

والهيكل التنظيميّ أساس بنيان أيّ كيان، وينطبق عليه أنّ من أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، بينما لا خير في بنيان شيّد على جرف هار مهدّد بالسقوط. قال تعالى: **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (التوبة: ١٠٩).

وكتاب الله تعالى الذي هو دليل كامل لعمل الإنسان في هذه الحياة كما وصفه تعالى: **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** (الأنعام: ٣٨)، حقًا إنّه كتاب لا ريب فيه؛ أُحكمت آياته وفُصّلت وهو منزّه عن الشّكّ، قال تعالى: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** (البقرة: ٢).

الفصل الخامس

إدارة المخاطر بين الشك واليقين

خُلق الإنسان في هذه الحياة مُكلَّفًا برسالةٍ محدّدة، أُخفي عنه عدّة أشياء، وطُلب منه الإيمان بالله تعالى (طوعًا لا كُرهًا)، وهذا إنما بمثابة (اعتقادٍ غيبيّ)، يجب أن يتبعه عملٌ يصدِّقه؛ فالإنسان ينتظره موت مؤكّد، أما احتمال حصول ذلك الموت فلا يُعلم عنه شيئًا. ويمثل الموت خطرًا داهمًا؛ ويتساءل الإنسان عن مصيره بعد الموت؛ فذاك المصير لا يعلم عنه شيئًا. كما غُيّب عن الإنسان رِزقُه، وغُيّب عنه ما سيأتيه من ذُرِّيّةٍ، وكل ذلك هو بعض ممّا قد يقع له في مستقبلٍ غامض عنه.

وإذا عمَّ هذا الخطرُ الكثيرَ من الناس فلمْ يؤمنوا باللهِ تعالى ربًّا، فقد أعدَّ لهم عذابًا في الدنيا كـ(الفتن والابتلاء)، وسيصلَون في الآخرة نارًا حامية خالدِين فيها. كما توعَّد اللهَ الناسَ الغافلين – في الدنيا – سواء أكانوا (مذنبِينَ أمْ ساكتِينَ عن الخطأ بما فيهم المصلِحون)، بعذابٍ أشملَ وأكبر لا يُبقي ولا يَذر.

الخطر حدث مستقبليٌّ قد يقع؛ فالحدث مجهولٌ في عالم الغيب، أمّا سببُ جهالتِه فهي (عدم المعرفة أو نقصها)؛ لذلك يُقاس الخطر بدرجة احتمال وقوعه من عَدمه.

لقد ذكر الخالق عز وجل في كتابه العزيز بعضَ الحقائق والإشارات عن تلك الغيبيّات، وأعلم أنبياءه صلوات الله عليهم وسلامه ببعض ذلك فذكروه للناس (تحذيراً وتنبيهًا). ثم أوضح المولى عزّ وجلّ جزاء عدم التحوُّط لتلك الغيبيات في كتابه العزيز؛ فمَن لم يؤمن بالله ربًّا واحداً جزاؤه نارٌ حامية يكون فيها خالداً، ومَن فعل أشياء معيَّنة كان له جزاءًا خاصًّا في قبره، أو يوم الحساب، أو على الصراط؛ لذلك وجب على الإنسان العمل على تفادي تلك المخاطر لما فيها من مهالكَ عظيمة.

ويُعتبر الابتلاء بالخوف آية من آيات الله؛ حيث يمتحن اللهُ به عباده، كما يمتحنهم بأشياءَ أخرى؛ فـ (الحياة الدنيا حياة اختبار وتمحيص)، يقول الله تعالى: **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** (البقرة: ١٥٥)؛ فمِن الابتلاء ما يكون بنقص الأمن، ثم بالجوع، ثم يكون بنقص المال، وبالموت، ونقص الثمر والزرع، وهذه حاجات أساسية. وأشار الله تعالى لإشباع هذه الحاجات الأساسية بترتيب، فأولاً يكون سدُّ حاجة الجوع، ثم الأمن من الخوف، يقول الله تعالى: **الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** (قريش: ٤).

ويُعلِّمنا الله تعالى التحوُّط بضرب من الأمثلة؛ فهناك مَن إن تأمنه مالاً كثيراً يُؤدِّه إليك، وهناك مَن إن تأمنه بدينارٍ واحد لا يؤدّه إليك؛ إلاّ ما

دُمت عليه قائمًا، والقيام لا يكون إلاّ بأخذ التدابير اللازمة لضمان عودة المال دون جحْده من الآخذ، يقول الله تعالى: **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (آل عمران: ١٧٥).

ولغرض إدارة المخاطر، قسم الفقهاءُ حاجاتِ البشر واحتياجاتهم إلى: (ضروريّاتٍ وحاجيّات وكماليّات)؛ لتفادي ما يُهدِّد البقاء البشري، وليدفع الإنسانُ الضرر عن نفسه للمحافظة عليها عند الضرورة، وله أن يُشبع حاجاتِه الضرورية الماسة بما يُبقيها على قيد الحياة؛ فإن أصابها نقص شُرّع له تأمينها ولو اضطر لمخالفة شرع الله، يقول الله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (البقرة: ١٧٣). وكخطِّ دفاعٍ ثانٍ شُرع له دفعُ المشقّة عن الضروريات بالحاجيات كمرتبةٍ ثانية، وبالكماليات كمرتبةٍ ثالثة؛ ذلك إنما لحماية البشر. فمَثلاً: إنّ قتْل الإنسان محرَّم أكان قتلا مباشراً أمْ غير مباشر (كالتجويع مثلا)؛ فالمحافظة على حياته ضرورة، كما أنّ إجهاده وإتعابه وتعذيبه غير جائز؛ لأن ذلك يؤذي جسده ولو لم يقتلْه التعبُ والإجهاد؛ فهذه حاجةٌ، كما أن سبَّه وشتمه غير جائز فذلك

لا يؤذيه جسديًا؛ بل يؤذيه معنويًا، وهذه من كماليَّات عيشه بكرامة. إنّ هذه الدرجات تدفع الخطر عن الإنسان وتحفظ له مقوِّمات عيشٍ كريم.

أمام تلك المخاطر تجد الإنسان متشوِّقا لمعرفة المستقبل وكشف أسراره؛ فيلجأ البعض لـ (لمقامرة) لتحرِّي هذا المستقبل والاطلاع عليه فيذهب بعضهم لـ (لعرَّافين والمشعوذين)، وآخرون يلجأون لـ (لأبراج والأفلاك)؛ لعلَّهم يجدون خَبَرًا يُريحهم ممّا يخشوه. ويلجأ البعض للاستعانة ببعض الأشياء لتدلَّهم على الخير والشر كـ (**الْأَزْلَامُ**)، يقول الله تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (المائدة: ٩٠). والأزلام قِداحٌ كان الناس قبل الإسلام يستقسمون بها قبل الإقدام أو الإحجام عن أيِّ شيء يجهلونه؛ فباعتقادهم أنهم يُديرونَ مخاطرَ محتملة مستعينين برمي القِداح مَثلاً؛ لتساعدهم على معرفة وتبين المستقبل، وهذا شِرْكٌ بالله تعالى، وقد أُمر الإنسان باجتنابه والابتعاد عنه. ومنهم من استعمل (التطَّير والتشاؤم) عندما اختبرهم الله تعالى بالقحط وقلَّة المطر، قال تعالى واصفًا قولهم: **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** (النمل: ١٤٧). وهناك من يحاول تجاهُل الأمرِ كلِّه، ظانًّا أنّ الدهر سيُبليه وسينتهي كلُّ شيء، فكانوا (دهريِّينَ)، قال الله تعالى عنهم: **وَقَالُوا مَا هِيَ**

إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (الجاثية: ٢٤).

ويلجأ البعض الآخر للتوقُّع والأمل بدراسة احتمالات وقوع الخطر وما يتعلَّق به؛ فيلجؤون إلى التقدير للتحوط من المخاطر، كيعقوب عليه السلام حينما طلب من أبنائه ألاّ يدخلوا من بابٍ واحد؛ درءًا للخطر الذي قد يُصيبهم جميعَهم؛ فقد جاء على لسانٍ يعقوب: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (يوسف: ٦٧). ولم يكن قصدُ يعقوب عليه السلام تحاشي أمر الله؛ لأنه يعلم يقينًا ألاّ مردَّ له بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ لكنَّه بذلَ الجُهد في التحوُّط للخطر وهذا ما أُمر به الإنسان عمومًا. وكذلك ظنَّ ابنُ نوحٍ أنّ صُعودَه للجبل سيعصمه من خطر الغرق؛ لكنّ الغرقَ أصاب جميعَ الكائنات باستثناء سفينة نوحٍ عليه السلام ومَن فيها فهذا أمر الله؛ لذلك لم يُسعِفْه صعود الجبل من الغرق، فأهلكه سوءُ تقديره، ومن ذلك قول المولى عز وجل عن (سوء التقدير) الذي يُودِي بصاحبه: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (المدثر: ١٨–٢٠). وقد ورد الحوارُ بين نوحٍ عليه السلام وابنه:

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (هود : ٤٣)، وبذلك التقدير الخاطئ أهلكَ نفسَه ولم ينفعه أنه ابنُ رسولِ اللهِ. كذلك سأل قومٌ، ذي القرنين أن يُعينَهم ببناء سدٍّ يحجزُهم عن قوم يأجوج ومأجوج؛ لدرء خطرهم، وذكر هذا الحوار : **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** (الكهف : ٩٤)، فقام ذو القرنين بصناعة سدٍّ عظيم فصّل القرآن ذِكْرَه لتعليم الناس بيان قدرة وعِلم ذلك الرجل الصالح. كذلك كان فعلُ الخضرِ الذي آتاه الله العلمَ في قَصص سورة الكهف من تعييب السفينة بخرْقها؛ لينجو أصحابها المساكين من ظُلم الملِك الغاصب، وبناء الجدار لحماية كنز الغلامَين اليتيمين، وما ذلك إلاّ شكلٌ من أشكال التحوُّط لمخاطر مستقبلية متوقَّعة.

يُلاحظ أنّ كلَّ ما سبق ذِكْرُه من أفعالٍ تحوطية قد سبقه علمٌ آتاه الله بعضَ عباده؛ كقوله تعالى : **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** (يوسف ١٠٢)، يُستدلُّ من ذلك على أنّ نبأ الغيب قد يُوحيه اللهُ تعالى لبعض عباده ويؤتيهم إيّاه.

إذاً إن إدارة المخاطر هو : التحوط لوقوع خطر من خلال توقعات مدروسة، لذلك هو **عِلمٌ يستند في توقُّعاته على وفْرة وصِحَّة البيانات**

والمعلومات؛ سواء منها التاريخية أو الميدانية الحاليّة، ثم يكون بفهْم ذلك واستيعاب سنَنِه؛ للتمكُّن من قراءة المستقبل بصورة أفضلَ. وقد ذكر اللّهُ تعالى لنا قَصص وأخبار أقوامٍ وأُمم سبقونا لاستنباط العِبَرِ منها وفهْم المآل الذي سيكون فيما لو سِرنا على منهجهم نفسِه، فإن اعتبرنا مِن قصصهم واستوعبْنا حقيقة هذا الكون فهمْنا أنّ الحياة تسير على سَننٍ وضعها خالقُ هذا الكون وصانعُه؛ فمن أراد النجاة تمسَّك بالمنهج الصحيح؛ ليحيا حياةً طيِّبة ليلقى مصيراً مِثلَه؛ فإن أَبَينا؛ فإن ما أصاب تلك الأقوامَ والأمم مثالٌ حيّ على مرّ العصور، وقد طلب مِنّا اللّهُ تعالى أن ننظر في آثارهم التي تركوها ليتبصَّر مَن يتبصر، وليحس مَن يحسّ، وليفهم من يفهم.

وسوف نتناول بعض تلك الدروس والعبر لتكون دروسًا لمن أراد الاعتبار، ولنستقي منها إدارة المخاطر وأسَسها.

المبحث الأول: مفاهيم إدارة المخاطر وأثرها على التقدير في الاقتصاد

لقد استخدم القرآن الكريم عباراتٍ تدلُّ على الخطر والتحوُّط منه لتحديده وقياسه، ومِن ذلك: (الخرْص، والتقدير، والعدُّ، والإحصاء، والمحاسبة، والقدْر، والغَرر، والخطر، والمقامَرة، والتوقُّع، والأمل، والاحتمال، والجزْم، والثقة، والشَّكّ، والرَّيب، والدرْء، والتُّقاة، واليقين، وحقّ اليقين، وعَين اليقين).

وسوف نتناول بعضها بالأمثلة والبيان. أمّا الغاية فهي؛ فهمُ إدارة المخاطر وأسسها، ثم استثمار ذلك في بيان الاقتصاد الذي لا يكون إلاّ بالتقدير، الذي هو (أداة التخطيط)؛ فهدف الخطط تحقيق الكفاية منعًا لأيّ نقصٍ، وتحقيق الكفاءة للوصول لأفضل استخدامٍ.

الغيب:

إنّ كتاب الله بمجمَله هو علمٌ يقيني ليس فيه شكٌّ أو ريب، فهو يهدي المتقين الذين من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب، يقول الله تعالى: **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (البقرة: ٢-٣).

لذلك سعى الإنسان جاهداً إلى كشف الأمور المغيَّبة عنه، وقد ذكرت الآية ٣٤ من سورة لقمان تلك الأمور المغيَّبة، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (لقمان: ٣٤).

لذلك فالأمور المغيبة هي خمسة:

١. موعد الساعة؛ أيّ متى يوم القيامة؟

٢. نزول الغيث، والمقصود به مطر الغيث.

٣. ماهيَّة وحالة المولود الذي هو في رحم أمّه؟

٤. ماذا سيكسب الإنسان في غده؟

٥. أين ومتى سيموت؟

إنّ العلم بتلك الغيبيات موجود عند خالق الإنسان وصانع الكون والمتحكِّم به.

الخطط مكتوبة مسجلة:

الغيب ليس أمراً (شفهيًا أو عفْويًّا)؛ بل هو **مكتوب** في سجلٍّ مرقوم، وهذا يعلمنا الانضباط؛ فالخطط المستقبلية لا ينفع معها أن تبقى محفوظةً في الذاكرة؛ بل لابد من (تدوينها وحفظها)؛ لتكون مكتوبة، يشمل ذلك خططَ التحوُّط، يقول الله تعالى: **أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**

(القلم: ٤٧). ويُضاف للكتابة والتسجيل عنصر **الشهادة** لمزيدٍ من (التوثيق والرقابة والموضوعية)، والله تعالى غنيٌّ عن هذا كلِّه؛ لكنه يُعلِّم عبادَه المكرَّمين، فيقول لهم: **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (يونس: ٦١).

فالرزقُ مَثلاً عِلمُه عند الله تعالى مكتوبٌ مدوَّن في كتابٍ واضح مُبين، يقول الله تعالى: **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (هود: ٦).

والأجَلُ أيضًا عِلْمُه عند الله تعالى مكتوبٌ مدوَّن في كتابٍ واضح، يقول الله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** (آل عمران: ١٤٥).

إدارة المعلومات سرية ومحفوظة بإحكام:

إنّ عِلْمَ الغيب مخفيٌّ عن جميع الكائنات، يُطلع الله تعالى على بعضِه مَن أراد من عباده، ولشدة السِّرّية فإنّ الرسول الذي سيطلع على ذلك

الغيب يُسلِّط اللهُ عليه رقابةً ترصده حتى يُبلّغ رسالته التي أُعلم بها؛ لأجل ذلك فإنّ الله محيطٌ بكلِّ ما لدى أولئك الرسل، والإحاطة تبدأ بـ (توفير البيانات بِعَدِّ كلِّ شيء وإحصائه) .

ولّما كانت إدارة المعلومات يجب أن تتمَّ بِسِرِّيَّةٍ حتى تتحقَّق الغايةُ منها، فلا يكفي منحُ الثقة مطلقًا للطرف الذي سيؤدي المهمَّة؛ بل لا بدَّ من إحكام الرقابة على أولئك العامِلين، وعلى الرقيب أن يستخدم أدوات إحكام رقابته ليتحقق بأنَّ الرسول قد أتَّم عملَه. يقول الله تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** (الجن : ٢٦–٢٨) .

وبما أنّ الكتابة قيدٌ؛ فإنّ الكتابة تمنع النسيانَ والتِّيه، والله مُنزَّه عن هذا كلِّه؛ لكنَّه ذكرَ لنا ذلك على لسان نبيِّه موسى عليه السلام ليعلِّمنا نحن البشرَ: **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى** (طه : ٥٢)؛ ليكون هذا الكتاب حُجَّة على صاحبه.

ثم وزيادةً في إحكام الرقابة المستنديَّة فإنَّ لكلِّ إنسانٍ كتاب تُنسخ فيه أعمالُه، قال تعالى : **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (الجاثية : ٢٩) .

وهذا السجلُّ محرَّر على نُسختَين، تُحفَظُ الأصل عند الجهة الأعلى في الهيكل التنظيمي، وإنما ذكرَ الله تعالى ذلك لبيان دقَّةِ السجل؛ فالأصل محفوظٌ عِنده، أسماه (أمَّ الكتاب) كسجلٍّ أصلٍ لا تغيير فيه إلاّ بما شاء هو وحدَه دون غيره، يقول الله تعالى: **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** (الرعد: ٣٩).

كما في الكتاب إحصاءُ كلِّ شيءٍ، قال تعالى: **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا** (النبأ: ٢٩)، وهذه دلالة على أن الإحصاء يكون بالكتابة لا بالحفظ شفاهة.

ولمزيد من الدِّقَّة والرقابة كان الكتاب مَرقُومًا، يقول تعالى: **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ** (المطففين: ٧–٩)، ويقول أيضا: **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** (المطففين: ١٨–٢١).

درجات الإيمان بالغيب

انقسم الناس بشأن الغيب إلى قسمَين؛ قسمٍ آمنَ وأيقن به، وقسمٍ شكَّ وارتاب، فكان الشكُ نقيضَ اليقين؛ لذلك عبَّر القرآن الكريم عن يقين

المؤمنين، وشكٍّ غيرِهم بعباراتٍ عديدة، نُلخِّصها بأقسامٍ ثلاثة هي: (اليقين، والظنّ، والشكّ)، ولكلٍّ منها درجاتٌ.

أولا: اليقين ودرجاته:

جاء في لسان العرب أن اليَقِينُ هو (العِلْمُ وإزاحة الشكٍّ وتحقيقُ الأَمر)، وهو نَقيض الشكٍّ؛ فالعلم نقيضُ الجهل، وعليه يُقال: عَلِمْتُه يَقينًا.

وقد جاءت كلمة اليقين لوصف إيمان المؤمنين بالغيب؛ فالإيمانُ اليقيني يكون:

– باليوم الآخر، كقوله تعالى: **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (لقمان: ٤).

– بالموت، كقوله تعالى: **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** (الحِجر: ٩٩).

ويصل أصحاب الفكر والبصيرة الذين اهتدوا إلى درجة اليقين بملاحظة آيات الله المنتشرة من حولهم، يقول الله تعالى عنهم: **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** (الذاريات: ٢٠).

أما الحق فهو غير اليقين؛ فهو (خالصُه وأَصَحُّه)؛ لذلك أَضاف الله تعالى الحقَّ إلى اليقين ليس إضافةَ الشيء إلى نفسه؛ بل إضافةَ البعضِ إلى الكُلِّ،

يقول تعالى: **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** (التكاثر: ٣–٧).

فالعِلم أدنى الدرجات، ثم يعلوه (عِلم اليقين)، ثم (عَين اليقين)، أمّا أعلاها فـ (حقّ اليقين).

لقد ذكرَ اللهُ تعالى في سورة الواقعة **حق اليقين** بعد أن يصل الضالُّون والمكذِّبون حميمَ الجحيم فيُكابِدُونها ويتحقَّقون منها بالمباشرة والمواقعة، قال الله تعالى: **فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ** (الواقعة: ٩٣–٩٥). أمّا **عين اليقين** فيتحقَّق بِحاسَّة البصر؛ كقوله تعالى: **ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**، بينما يتحقَّق **علم اليقين** بالخبر من خلال حاسَّة السمع فيستقر في القلب ويُصدِّقه؛ كقوله تعالى: **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**.

وعليه فلليقين ثلاثُ درجاتٍ هي:

- **حقُّ اليقين**، وهو أعلاها.
- **عَين اليقين**،
- **عِلم اليقين**.

واستخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم درجتَي (الشكِّ واليقين) في حديثه فقال: (**إذا شكَّ أحدُكُم في صلاتِه فلم يَدرِ كَمْ صلَّى أثلاثًا أمْ**

أربعًا؟ فلْيَطرحِ الشكَّ ولْيَبنِ على ما استيقنَ)[1]. لذلك أرسى الأئمَّة قاعدةً كُلِّيَّة نصُّها: (اليقينُ لا يزولُ بالشَّكِّ)، وصفَها الإمام السيوطي بأنها تدخل في جميع أبواب الفقه، وأنّ المسائل المخرّجة عليها تبلغ ثلاثةَ أرباع الفِقه وأكثرَ[2].

لذلك يَستخبِرُ المشركونَ في سورة يونس عن عذاب يوم القيامة، أحقٌّ هو؟: **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** (يونس: ٥٣)، ويقول الله تعالى لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقول لهم: **(نعمْ وربِّي إنَّه لحقٌّ لا شكَّ فيه، وما أنتم بمُعجزي الله أن يَبعثكم ويُجازيكم، فأنتُم في قبضَته وسُلطانه)**[3]. وإنّ جواب الشكِّ الذي يدور في أذهان الكافرين وتقولُه ألسنتُهم (استنكاراً أو استهزاءً) كان جوابا قطعيًا: بأنه حقٌّ لا شكَّ فيه، ويبدو أنّ مصدَر قولهم هو تمكُّنهم من الهرب (في هذه الدنيا)؛ لذلك هُم يَستنبِؤن.

وإنّ نظير هذه الآية – حسبَ قولِ الإمام ابن كثير – قولُه تعالى: **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** (التغابُن: ٧)، والزعم هو القول بالظنِّ؛ لذلك كان الجواب على ذلك

---

[1] صحيح مسلم.
[2] السيوطي، الأشباه، ص ٥٦.
[3] التفسير الميسر، بتصرف.

الظن جوابًا قطعيًا ذلك بأنهم سيُخرجون من قبورهم أحياء، ثم سيُخبَرون بأعمالهم، وذلك على الله يسير؛ فـ(الإعادةُ أسهل من الابتداء)[1]، كما أخبرَ الله تعالى بذلك.

ثانيا: الظنُّ ودَرجاتُه:

الظنُّ غير الحقِّ، وسبَبه نقصُ العِلم وضَعفه، وهو لا يصلح للاتِّباع لمن أراد أن يصل للحقيقة؛ فلو كان العلم إناءًا يَتَّسعُ لكميَّةٍ محدَّدة من سائل، فإنه كلَّما زاد العلم انخفضَ حجم الظنِّ والعكس بالعكس؛ لذلك كان قولُ الله تعالى عمَّن يتَّبع الظنَّ أنّه مَبلغُهم من العِلم، ومعنى ذلك؛ أن لو زاد علمهم لانخفض ظنُّهم. يقول الله تعالى: **وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ** (الجن: ٢٨–٣٠).

والظنُّ مفيدٌ في البحث العلميّ؛ بل هو أهمُّ أداةٍ من أدوات تحقيقه للوصول للحقائق العلمية التي تُقارِبُ اليقينَ.

أمّا درجاتُ الظنِّ فهي:

[1] تفسير القرطبي، بتصرف.

- **غَلبَة الظنِّ**: ويكون عندما يبتعدُ عن حدِّ الشك باتجاه اليقين؛ أيّ: نحو الأعلى.
- **الظنُّ**: ويكون عندما يُقارِبُ الشكَّ؛ أي (بين الإثبات والنفي).
- **ظن السَّوء**: الوهم، ويكون عندما يبتعدُ عن حدِّ الشكِّ باتجاه الوهَم؛ أيّ: نحو الأسفل.

الظنُّ أداةٍ من أدوات المعرفة وطُرُقِ البحث فيها[1] :

خلق اللهُ تعالى الإنس والجنَّ وأسكنهم الأرض لعبادته فقال: **وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّوَالْإِنسَإِلَّالِيَعْبُدُونِ** (الذاريات: ٥٦). فكيف يعبدونه دون أن يعرفونه؟؛ لذلك لا بُدَّ من توافر المعرفة كوسيلةٍ للتعرُّف على آلاء الله ونَعمائه.

إذًا المعرفة هي سبيل تحقيق الغاية التي خُلق الخَلق لأجْلها، وهي تُمثِّل المرحلة الأولى للعِلم، وتتمُّ بأدواتٍ كـ (العقل والحواس)؛ فالعقل بذاكرتِه وما زوّده الله به من خصائصَ هو المحرِّك والباعث لعملية التفكير التي سُتميَّز بها المعارفُ؛ إلاّ أنّ العقل وأدواتِه منقطع عن محيطه، ولن يتلمَّس ما حولَه دون حواسٍ تنقل له ما يَجري خارجه؛ فـ (السمع والبصر واللمس والشمّ والذوق) كلها حواس موصولة بالدماغ بأعصابٍ مُعقَّدة التركيب

[1] قنطقجي، د. سامر، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، ٢٠٠٣.

مهمَّتها نقل البيانات إلى (العقل أو الدماغ) الذي هو (مصدرُ التفكير والذكاء والذاكرة والإدراك) . وبتفاعل البيانات المدخَلة مع محفوظاتِ الذاكرة وطِبقًا لإدراكه ودرجة ذكائه ستتشكَّل المعرفةُ. وبمرور الوقت تزداد المعارفُ وتتراكم؛ فمنها ما يبقى في الصدور، ومنها ما يُنقل إلى السطور، وستكون المعارف المخطوطة على الورق أو المحفوظة بأيِّ وسيلةٍ أُخرى مُتاحةً للعقل ينهلُ منها متى شاء.

فإذا ما قُلنا للوهلة الأولى أنّ الكون المحسوس هو مصدر المعرفة لَتساوى بذلك الإنسانُ والحيوان لاشتراكهما بالحواس المذكورة، وبما أنّ الله تعالى ميّز الإنسان بـ (العقل) فإنّ التفكير والاستنباط هما أداتان مساعدتان في عملية تحليل البيانات الواردة إليه للوصول إلى قراراتٍ ذكيّة؛ سواء اكتفى العقل بالاستقراء والتجرِبة أم أدخل القياس وأعملَ الفِكر بالاستنتاج؛ لذلك فالكون المحسوس هو مصدرٌ ثانوي للمعرفة، وهو مخلوقٌ من قِبَلِ (خالقٍ مُبدِعٍ خبيرٍ عليمٍ) . وهذا شأن الإنس والجن.

إذًا لا بُدَّ من مصدرٍ أساسٍ للمعرفة، وكذلك لا بُدَّ أنّ خالق كلِّ شيء هو ذلك المصدر الأساسُ أو الأولي للمعرفة، وقد أعلمَنا اللهُ تعالى أنّ أوَّل مخلوقٍ على البسيطة هو آدم عليه السلام، تلقَّى العلمَ من خالقه عز وجل، وبه ميزه عن سائر المخلوقات بمَن فيهم الملائكة، يقول تعالى: **وَعَلَّمَ**

آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (البقرة : ٣١–٣٣) .

أمَّا عن ذُرِّيَّة آدمَ عليه السلام فهم يُولَدُونَ دون علمٍ؛ لكنَّهم يمتلكون الحواس التي بها يكتسبون العلم، يقول الله تعالى : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل : ٧٨) .

ثم أرسل رُسلَه إلى الناس لتهديهم إليه، يقول الله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (الشورى : ٥١) .

وبناءً عليه فمَصادرُ المعرفة، مصدران :

(١) القرآنُ الكريم والسُّنَّة الشريفة : وهُما **صُلَب العلم**، حسب وصف الغزالي، يقول الله تعالى : مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (الأنعام : ٣٨)، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (الحشر : ٧)،

لثبوتِ نصوص القرآن الكريم بالتواتر كما سيمرُّ معنا لاحِقًا إنْ شاء الله.

(٢) الكون المحسوس: وهو **مُلَح العِلم**، حسب وصف الغزالي، وقد وردت آياتٌ كثيرة في سُور القرآن تشير إلى ذلك؛ فالناس دعيت لـ (لنَّظر والتعقُّل والتفكُّر والتفقُّه والسمع والتذكُّر)، يقول الله تعالى:

– **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** (يونس: ١٠١)،

– **لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (الجاثية: ٥)،

– **لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (الجاثية: ١٣)،

– **لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا** (الأعراف: ١٧٩)،

– **لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ** (النحل: ١٣).

وقد قسّم الغزالي العِلم إلى (عِلْمٍ يقينيّ، وعِلْم ظَنِّيٍّ ليس يقينيًّا)[1]:

العِلْمُ اليقينيّ:

هو الذي ينكشف فيه المعلومُ انكشافا لا يبقى معه ريبٌ، وليس فيه مكان للغلط والوهَم، ولا يَتَّسِعُ القلب لتقدير ذلك، وهو ما يرقى إلى درجة الحقائق العلمية. وهذا مؤدَّاه:

- أنَّ الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مُقارِنًا لليقين.
- أن الدليل ضِدَّه لا يؤدِّي للشكِّ بالمعرفة، والدليل في هذه الحالة قطعيٌّ؛ أيّ: من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهّرة.

وهذا القِسم من المنهج ثابتٌ عبر الزمان والمكان، وأورد الشاطبيُّ ثلاثةَ عشرة مقدِّمة في "موافقاتِه" تُشكِّل مُقدِّمات الاستدلال[2]، هي:

٢ الغزالي، أبي حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مطبعة الصبح بدمشق، ١٩٩٢. ص ٣٢-٣٣.
٣ الشاطبي، الموافقات، ج ١، الصفحات ١٩-٧٠.

المقدِّمة الأولى: أصول الفقه قطعية لا ظنية.

المقدِّمة الثانية: الأدلة المستعملة في أصول الفقه قطعية، عقلية كانت أو عادية أو سمعية.

المقدمة **الثالثة**: الأدلَّة السمعية لا تُفيد القطعَ بآحادها، لتوقُّفها على مُقدِّماتٍ ظنِّيَّة، ويحصل القطع إذا تكوّن من مجموعها ما يُشْبِه (التواترَ المعنويّ).

المقدِّمة الرابعة: كل مسألةٍ مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها (فروعٌ فقهية أو آدابٌ شرعية) أو لا تكون عونا في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية، والذي يُوضِّح ذلك أنّ هذا العلم لم يختصَّ بإضافته إلى الفقه إلاّ لكونه مفيداً له ومحقِّقا للاجتهاد فيه فإذا لم يُفِدْ ذلك فليس بأصلٍ له.

المقدِّمة الخامسة: الاشتغال بالمباحثِ النظرية التي ليس لها ثمرةٌ عملية مذموم شرعًا؛ فكلُّ مسألةٍ لا ينبني عليها عملٌ فالخوضُ فيها خوضٌ فيما لم يدلَّ على استحسانه دليلٌ شرعيّ، وأعني بالعمل عملَ القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوبٌ شرعًا.

المقدِّمة السادسة: إنّ التعمُّق في التعاريف والأدلَّة والبُعد بهما عن مدارك الجمهور ليس من هَدي الرسول ولا السلف الصالح.

المقدِّمة السابعة: العلم ليس مقصودا لِذاتهِ؛ بل للعمل به؛ حتَّى العِلم بالله تعالى لا فضلَ فيه بلا عملٍ به وهو الإيمان.

المقدِّمة الثامنة: العِلم الذي هو العلم المعتبَر شرعًا، هو العلم الباعث على العمل الذي لا يُخلِّي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان؛ بل هو المقيِّد لصاحبه بمقتضاه الحامل له على قوانينه (طَوعًا أو كَرهًا).

المقدِّمة التاسعة: من العلم ما هو من (صُلَب العلم) ومنه ما هو (مُلَح العلم) ومنه ما ليس بـ(صُلَبه ولا مُلَحه)، والأوَّلُ هو الأصل والمعتمَد وذلك: **ما كان قطعيًّا أو راجعًا لأصلٍ قطعيٍّ**، والثاني: **ما لم يكنْ قطعيًّا ولا راجعًا إلى أصلٍ قطعيٍّ**؛ بل **إلى ظنِّيٍّ**، والثالث ما لم يرجع إلى أصلٍ قطعيٍّ ولا ظنِّيٍّ، وهذا ليس بعِلم؛ لأنّه يَرجِعُ على أصله بالإبطال.

المقدِّمة العاشرة: إذا تعارضَ النقلُ والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرطِ أن يتقدَّم النقلُ فيكون متبوعا ويتأخر العقل فيكون تابعًا؛ فلا يسرح العقل في مجال النظر إلَّا بِقَدْرِ ما يُسرّحه النقلُ. ولولا كان ذلك لجاز إبطالُ الشريعة بالعقل وهذا مُحالٌ باطل. وعليه فليس القياس من تصرُّفات العقول مَحضًا دائمًا تصرَّفت فيه من تحت نظر الأدلَّة وعلى حسب ما أعطتْه من إطلاقٍ أو تقييد.

المقدِّمة الحاديةَ عشرة: المطلوب من المكلَّف تعلُّمه هو ما دلَّت عليه الأدلَّةُ الشرعية.

المقدِّمة الثانية عشرة: مِن أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقُّق به أخْذُه عن أهلِه المتحقِّقين به على الكمال والتَّمام.

المقدِّمة الثالثة عشرة: كلُّ معنىً لا يستقيم مع (الأصول الشرعية أو القواعد العقلية) لا يُعتمَد عليه.

عِلم ليس يقينيًّا:

هو ما داخلَه الشَّكُّ، والشَّكُّ أو الظَّنُّ هو بمثابةِ أداةٍ أو طريقة بحث. وهذا ما يُشكِّلُ منهجًا مُتطوِّرًا باستمرار؛ لأنّ المنهج لا بدَّ له من استيعاب مشاكل التطبيق العمليّ:

- ففي المنهج العقلي تُشكِّكُ الحواسُ بقُدراتِ العقل[1]: والمسائل التي لا تخضعُ للحسِّ؛ وإنما تدخلُ في غيب (الماضي السحيق أو المستقبل البعيد أو الموجودات الخفيَّة) عن حسِّ الإنسان؛ كـ(الروح والعقل والملائكة)؛ فإنّ منهج الوصول إلى اليقين العلميّ بشأنها هو أحدُ شيئَين:

أوّلاً: الاعتمادُ على الخبرِ الصادق: هو الذي يَرقى إلى درجة التواتر والذي يكون منضبطًا بقيوده وشروطه العلمية المعروفة؛ كيقينِنا بقيام الثورة الفرنسية، ويقيننا بوقعة القادسية، وبوجود معالم تاريخية قائمةٍ في مناطقَ نائية ما لم يُتَحْ لنا أن نراها كـ(تاج محلّ) في الهند، والأهراماتِ في القاهرة.

ثانيًا: الاعتماد على البرهانِ العقلي: المتمثِّل في قانون التلازُم؛ وذلك بأن نفترض أحدَ الاحتمالات بشأن هذه المسألة الغيبية، ثم

١ البوطي، هذه مشكلاتهم، ص ١٢٣.

نتبين الآثارَ والمستلزماتِ (العقلية والطبيعية) التي لا بُدَّ أن تكون مقرونة بهذا الاحتمال، فهل رأينا هذه الآثارَ موجودة بعد البحث والتفتيش؟ فالفرْضيَّةُ صحيحةٌ، والاحتمال يصبح حقيقةً علمية، وإن لم نَعثُرْ على هذه الآثار فالفرْضية باطلةٌ، والاحتمال غيرُ واردٍ، وعندئذ نجنحُ إلى الفرْضية الثانية ونُفتِّش عن المستلزماتِ والآثار التي لا بُدَّ أن تتفرَّع عنها، وهكذا فإنَّ دراسة مجموع الفرْضيات عن طريق ما يُسمَّى بقانون الحصر والإسقاط تُوصِلُ إلى اكتشاف الحقيقة مِن بين تلك الفرْضيات، ومن ثَمَّ تُوصِلُ إلى اليقين العلميّ بشأنها.

- أمّا المنهجُ (الحِسيّ أو التجريبيّ) فالعقلُ يُشكِّك بقُدرات الحواس[1]؛ فالمنهج هو الاعتماد على التجرِبة الحسية فعلا؛ لذا يُحيلُ القرآنُ الإنسانَ في معرفة قضايا الطبيعة وكل ما هو من جنس المادة إلى هذا المنهج ذاتِه دون أن يُلقِّنَه أيَّ علمٍ غيبيّ أو إخبار بشأنها، فهو يقولُ له – مَثلاً – عن الإنسان وتكوينه وأجهزته: **وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ** (الذاريات: ٢١)، ويقولُ له عن الطبيعة وأشيائها المبثوثة مِن حوله: **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** (يونس: ١٠١)، دون

٢ البوطي، مرجع سابق، ص ١٢٢

أن يُحرِجَه فيلومَه بأيِّ اعتقادٍ في شيءٍ من شؤونهما قفزاً فوق المنهج العلمي إلى ذلك، وهو (التجربة الاستقرائية والمشاهدة).

وصَفوة القول: إنّ قيمة العلم تكمُن فيما يَبثُّه من اليقين في العقل؛ لذا فإنّ الدلائل التي تُورِثُ الظَّنَّ أبعدُ ما تكون عن تسميتها عِلماً. فإذا استقر اليقين في العقل باتباع المنهج المنطقي العقلي، فقد تحقَّقت له القيمةُ الذاتية للعلم، وتكاملت فيه كلُّ خصائصه ومزاياه[1].

غَلبةُ الظَّنِّ:

ليس كلَّ الظَّنِّ إثمٌ؛ لِقوله تعالى: **يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواا جْتَنِبُوا كَثِيرًامِّنَالظَّنِّإِنَّ بَعْضَالظَّنِّإِثْمٌ** (الحجرات: ١٢)، كما أنّ اليقين قد لا يصل إليه جميعُ المؤمنين؛ لذلك يتدرَّج الظنُّ حتَّى بلوغه درجةً تُقارِبُ اليقينَ، فيسمَّى عِندَئذٍ بغَالب الظَّنِّ؛ لأنه لا يصل لليقين تماماً. فإن قُلنا: أنّ اليقين يمثِّل ١٠٠٪ فإنَّ غلبةَ الظَّنِّ دون ذلك تماماً؛ أيّ: (أقلّ تماماً من ١٠٠٪)؛ لذلك لا يغني الظن بدرجاته عن الحقيقة، قال تعالى: **وَمَالَهُمبِهِمِنْعِلْمٍۖإِن يَتَّبِعُونَإِلَّاالظَّنَّۖوَإِنَّالظَّنَّلَا يُغْنِيمِنَالْحَقِّشَيْئًا** (النجم: ٢٨)، فنقصَ العلمُ حولَه إلى ظَنٍّ، فلم يَعُدْ (حقيقةً كاملة أو حقيقةً علمية راسخة)؛ لذلك هو دون اليقين تماماً.

---

٣ البوطي، مرجع سابق، ص ١٢٦

وعليه فمَن أسلم نفسَه لله تعالى وهو في دائرة غلَبة الظنِّ، هو مقبولٌ عند الله تعالى؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٦)، فالظَّنُّ هُنا غالبٌ بأنهم سيُلاقوا ربَّهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٠)، والظَّنُّ هُنا فيه غَلَبةٌ؛ وإلاّ فما الداعي لعودتهما لحياةٍ يُشكُّ بأنها لن تستمرَ بنجاحٍ؟

ويُفيدُ الوصفُ التالي مدى اقتراب الظنِّ لدرجةٍ غالبة تُقارِبُ اليقينَ؛ فالشواهد (العَينيّةُ والحِسِّيَّةُ) أدركت الهلاكَ تماما؛ فوصفَ اللهُ حالَهم بقَوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢).

ويُفيد الوصفُ التالي أنّ غلَبة ظنٍّ بعض الناس عندما يتمكَّنون بأخْذ أسباب القوَّة والقُدرة؛ كونها قُدرة غالبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس: ٢٤).

وقد علَّمنا اللهُ استخدام أدواتٍ تُؤكِّد الظنونَ فتجعلها غالبةً لدرجةٍ عالية؛ كـ (التسجيل والكتابة، والشهادة، والرهن)، وطوَّر الفقهاءُ عِلمًا لم يعرفْه غيرُ المسلمين؛ ألا وهو (عِلْمُ الرِّجال)؛ فكان وسيلةَ إثباتٍ لمصدَر النصوص ولدلالاتها، أهي (صحيحةٌ يقينًا) أمْ أنها (مظنونةٌ) أم غير ذلك؟

ثبوتُ النصوصِ ودلالاتُها:

القطعُ هو العلم، وهو ما لم يتطرَّق إليه شكٌّ، ولا احتمال في خطئه أو خلافه وهو (العلم اليقينيّ)، ومِثاله الآيات القرآنية فكلُّها قطعيةُ الثبوتِ لا احتمالَ لخطأٍ في رواياتها؛ لتواترها؛ فقَد نقلَها جماعةٌ يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الخطأ. أمّا دلالاتُها فقد تكون (ظنِّيَّة)؛ لأنّ بعضَها يحتمل أكثرَ من معنى. والظن هو احتمالٌ راجح للثِّقة فيه، فإذا ما زادت درجةُ الثقةِ يكون (ظنًّا راجحًا). أمَّا السُّنَّة الشريفة ففيها (المتواتر والآحاد)، فالواحد قد ينسَى أو يتوهَّم فيقع احتمالُ خطأٍ ولو بنسبةٍ

ضئيلة فيكون ظنًّا، فإن احتمل معنى الحديث أكثرَ من حالةٍ؛ فيكون ظنِّيًّا.

وبناءً عليه تُقسَم أنواعُ النصوصِ والأحكام إلى أربعةِ أنواعٍ؛ الأوَّل منها (قطعيٌّ)، والثلاثة الباقية (ظنِّيَّةٌ)، وهي:

- قطعي الثبوت قطعي الدِلالة، وهذا **قطعي**.
- ظنّي الثبوت قطعي الدِلالة، وهذا **ظنّي**.
- قطعي الثبوت ظني الدِلالة، وهذا **ظنّي**.
- ظنّي الثبوت ظني الدِلالة، وهذا **ظنّي**.

فـ(قطعيُّ الثبوت قطعيّ الدلالة هو اليقين)، وما أُجمع عليه من الأنواع الثلاثة الأخيرة فيكون بمثابة القطعي؛ لأنّ الإجماع يُحوِّل النَّصَّ من الظنِّ إلى القطع أو غالب الظنِّ الذي يُقارِبُ اليقينَ، وفائدة هذا التقسيم أنَّ مَن أنكر القطعيَّ فقد كفرَ بما أنزل اللهُ، بينما مَن أنكر الظنِّيَّ وكان من المتأوِّلين والمجتهدِين فقد أخطأ؛ وإلاّ فهو فاسقٌ عاصٍ. وفيما يلي بيانٌ لتلك الدرجات:

قطعيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة:

هو ما يُفهَم من النصِّ ويستدلُّ منه؛ كقولِه تعالى: (**أقيموا الصلاةَ**) يُفهم منه وجوبُ إقامة الصلاة، ولا مجال لتفسيره بأيِّ معنىً آخرَ؛ فالدلالة التي فُهِمَتْ من هذا النصِّ قطعيةٌ لا مجال للخِلاف فيها.

أمَّا الثبوتُ فيُقْصَدُ منه طريقُ وصولِ النص إلينا؛ فالقرآن كلُّه قطعيُّ الثبوت؛ لأنه جاء عن طريق التواتر فلا مجال للطعن في صِحَّة ثبوت آياته؛ لذلك فالنَّصُّ (**أقيموا الصلاة**) قطعيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة.

ظنِّيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة:

هو نصُّ حديثٍ وردَ عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم؛ حيث دلالته (قطعيةٌ) ليس لها سِوى معنىً واحدٍ لا مجال لتفسيره بغَيره؛كقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (**مَنْ أدركَ ركعةً مع الجماعةِ فقَد أدركَ الجماعةَ**)، فلا يُخالِط فَهْمَ معناه أيُّ وَهَمٍ.

أمَّا ثبوتُ النَّصِّ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم الذي لم يثبتْ بدليلٍ متواتر فلا نقطعُ بأنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قد نطقَ بكلِّ حَرفٍ منه؛ كأن يكون حديث آحاد فلا يصلُ في درجة ثبوته عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم مرتبة المتواتر، فيُقال عنه: (حديثٌ ظنِّيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالة).

قطعيُّ الثبوتِ ظنِّيُّ الدلالة:

إنّ قوله تعالى: **وامسَحُوابِرُؤوسِكُمْ**، لا يُشَكُّ في ثبوت نصِّه؛ لتواتر نقْله كما أوضحنا، بينما اُختلف في تفسيره وفهْمه؛ فهل حرفُ (الباء) في قوله تعالى: (**بِرُؤوسِكُم**) يدلُّ على التبعيض؛ أيّ: ببعض رُؤوسِكُم، أم الإلصاق، أي بجميع رُؤوسِكُم؟ لذلك هذا نصٌّ قطعيُّ الثبوت؛ لأنه ثابتٌ قطعًا، ظنِّيُّ الدلالة قد وقع الخلافُ في تفسير معناه.

ظنِّيُّ الثبوتِ ظنِّيُّ الدلالة:

هو نصُّ حديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِثاله قوله: (**البيِّعانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقا**)، فهذا حديثُ آحادٍ؛ لذلك هو ظنِّيُّ الثبوت، وبما أنه قد اُختلف في تفسيرِه؛ فهو ظنِّيِّ الدلالة أيضًا.

الظَّنُّ بمعنى الشَّكِّ:

إذا بلغ الظنُّ درجاتِ ثقةٍ دُنيا فيكون أقربَ للشَّكِّ؛ كقوله تعالى:

- وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (الأنعام: ١١٦).
- سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (الأنعام: ١٤٨).

- قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (الأعراف : ٦٦) .
- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (القصص : ٣٨) .
- وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (القصص : ٣٩) .
- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (ص : ٢٧) .

ففي هذه الأمثلة بلغ الظنُّ مرتبةَ الشَّكِّ، فكان اتِّباعُ الظنِّ تقديراً؛ أيّ: خَرْصًا دون أدلَّةٍ موضوعية، فأورث أصحابَه الرِّيبَة.

الظَّنُّ بمعنى الوهمِ؛ أو ظَنَّ السَّوءِ:

إذا بلغ الظنُّ أدنى درجاتِ الشك صار وهمًا مقارِبًا للعدم، وهذا ما أسماه اللّٰهُ تعالى بظَنِّ السَّوءِ؛ حيث يبتعد الظانُّونِ عن حدِّ الشَّكِّ حتَّى يتوهَّمون، كما هي حال المنافقِين والمشركِين يوم الحديبية، فيُعذِّبهم اللّٰهُ تعالى بسُوءِ ظنِّهِم باللّٰه بأنّه لن ينصرَ نبيَّه محمّدًا صلّى اللّٰه عليه وسلّم،

قال تعالى: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (الفتح: ٦).

كما بلغ سوءُ ظنِّهم أنّ القتلَ مصيرُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم هو ومَن معه مِن المؤمنين فيَسْتأصِلُونَهُم وينتهي أمرُهم وأمرُ دِينهم، قال تعالى واصفًا ذلك: بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (الفتح: ١٢).

ثالثًا: الشكُّ ودَرجاتُه:

ذكرَ معجمُ المعاني الجامع أنّ (الشَّكَّ هو حالةٌ نفسيَّة يتردَّد معها الذهنُ بين الإثبات والنفي فيتوقَّف عن الحُكْم)، فيُقال: شَكٌّ، أيّ: الْتِبَاسٌ وَارْتِيَابٌ، وهذا نَقِيضُ اليَقِين. قال تعالى: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (يونس: ٩٤)، ومعنى لا تكونَّن مِن الممتَرينَ؛ أيّ: لا تكونَّنَ مِن المشكِّكينَ.

وقد يقع الشَّكُّ في تطبيق الأحكام، جاء في (التفسير الميسَّر) عن عِدَّة النِّساء في قوله تعالى: وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ

وَمَن يَتَّقِ اللَّـهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (الطلاق : ٤)، فالمطلَّقات اللاتي انقطع عنهنَّ دمُ الحيض؛ لِكَبَر سِنِّهنَّ، قد يرتبنَ؛ أيّ: يشكُكن؛ فما الحُكْم فيهنَّ؟ إنَّ عِدَّتَهُنَّ ثلاثة أشهُر، وكذا الصغيرات اللاتي لم يَحضْن، أمّا ذواتُ الحَمْل من النساء فَعِدَّتُهُنَّ أنْ يضَعْنَ حَمْلَهنَّ.

تُقسَمُ درجاتُ الشَّكِّ إلى:

- **الرَّيب، أو رَيب المنُون، أو المِرْية.**
- **الشَّكِّ المريب.**

الرَّيب:

جاء في لسان العربِ أنّ (الرَّيْبَ والرِّيبةَ هي الشَّكُّ، والظِّنَّةُ، والتُّهْمَةُ)، وقد طلبَ اللّهُ تعالى ممَّن يُشكِّكونَ في كتاب الله أن يأتوا بِسُورةٍ من مِثله، وليدعموا ذلك بمَن يشهدُ على فِعلهم إنْ كانوا صادقين، قال تعالى: **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (البقرة: ٢٣). واستخدم القرآنُ الكريم كلمةَ (ريب) في مواطنَ عديدةٍ للدلالة على (الشكِّ والرِّيبة)، أو لِـ (نَفيها عن الغيبيات) التي ذكرت سابقًا؛ كقولِه تعالى لمن يُنكِرُ يوم القيامة: **رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** (آل عمران: ٩)، وقوله:

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (آل عمران: ٢٥). وقولِه لمن يُنكِرُ الموتَ ونهايةَ الأجَل: أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (الإسراء: ٩٩).

والرَّيبُ يكون في (القلب)؛ وهو ما يجعل سلوكَ المرتابِ سُلوكًا مُتردِّدًا، يقول الله تعالى: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (التوبة: ٤٥)، وقد يكبرُ حَجْمُ الرَّيب ليصبح كأنه بُنيانٌ؛ ممّا يدلُّ على أنه يتراكمُ في قلبِ المرتاب، يقول المولى عزَّ وجلّ: لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ١١٠).

لقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتب، وهذا من تدبير الله تعالى، فكان ذلك حُجَّةً على مُنكِري كتابِ الله والمشكِّكين فيه، يقول تعالى: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (العنكبوت: ٤٨-٤٩).

رَيبُ المنُون:

ذكرَ القرآنُ كلمةَ المنونِ بعد الرَّيبِ؛ لتدلَّ على حَوادِثِ الدَّهْرِ وَمَصائِبِه – كما في معجم المعاني الجامع –، قال تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ** (الطور: ٣٠)، وحوادثُ الدهر ومصائبُه هي مخاطر تصيب الإنسانَ خلال حياته.

المِرية:

المريةُ حسب الصَّحاح في اللغة هي (الشَّكُّ)؛ كقوله تعالى: **أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** (فُصِّلت: ٥٤).

الشك المريب:

قد يكون الشَّكُّ مُريبًا؛ ممَّا يُصيب النفْسَ بقلقٍ يُقلِقُها ويهمّها فيُزعِجها، وقد أصاب الشَّكُّ المريب الأقوام الكافرة؛ فطريقة تفكيرهم ونهجُهم واحدة، يقول الله تعالى:

- عن قوم صالحٍ عليه السلام: **قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** (هود: ٦٢)،

- وعن قوم موسى عليه السلام: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (هود: ١١٠)،
- وعن قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِن بَعدِهم: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (إبراهيم: ٩).

ويُقارِب الشَّكُّ المريب درجةَ الوهَم؛ لاقترابِه من العَدَم.

آياتٌ جامعة لأكثرَ من عبارةٍ:

إنّ موعد يوم الحساب موعدٌ غيبيّ لا يَعلَمُه غيرُ الله تعالى؛ لذلك هو ركنٌ من أركان الإيمان عند المسلمين، فالكافرون انتهجوا التكبُّر على أوامر الله في حياتهم الدنيا – رغم آياتِ الله التي كانت تأتيهم –، ثُمَّ هُم يُنكِرونَ موعدَ الحساب، ويجعلونه مظنونًا مُقاربًا للشَّكِّ؛ لأنَّهم غيرُ مستيقنِينَ بشأنه فيُشكِّكون في يوم الحساب، بينما وعدُ الله حقٌّ يقينيّ ليس فيه شكٌّ ولا ريب. وبذلك قابلَ اليقينُ في وعدِ الله عدمُ الاستيقانِ عند الكافرين، وقابلَ نفي الريب في وعدِ الله ظنُّ الكافرين بأدنى درجاتِه؛

حيث قارب الشَّكَّ في وعدِ الله. قال الله تعالى: **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** (الجاثية: ٣١-٣٢).

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مصيرَ أولئك الجاحِدين بِقَولِه: **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** (الجاثية: ٣٤). وعِلَّة ذلك أنَّهم غرَّتهم الحياة الدُّنيا فخيّبهم الأملُ الذي تعلَّقوا به وسقطوا بسبب ذلك في العذاب، يقول الله تعالى: **ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** (الجاثية: ٣٥).

والآية الأُخرى الجامعة لأكثرَ من عبارةٍ من عبارات الاحتمال، هي ذكرُ الله تعالى مصيرِ عيسى عليه السلام؛ فاليهودُ والنصارى يدّعونَ قتْله وصلْبه، وهذا ما نفاه اللهُ تعالى فـ(**ماقتلُوهوماصلُبوه**)؛ إنما أشكل عليهم الأمرُ وتشابَه عليهم، فالمختلفون في ذلك إنما هُمْ في شكٍّ مردُّه الوهَمُ وعدمُ العِلم، فكان الذي اتَّبعُوه ظنًا مورثا للشك أما اليقين في الخبر فأنهم لم يقتلوه بشكل مؤكد، فقد رفعه الله تعالى إليه، يقول الله تعالى: **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا**

قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (النساء: ١٥٧).

إنَّ نقصَ العلم قد جعل أولئك المدَّعين يقعون بالوهَم، والعِلمُ الذي ينبؤنا به الله تعالى في كتابهِ على لسان عيسى عليه السلام بأنه سيُبعثُ حيًّا، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا* ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (مريم: ٣٣–٣٤)، وقد أيّد ذلك أحاديثُ نبويةٌ متواترة عديدة.

المبحث الثاني: أدوات إدارة المخاطر وتقنياتها وسُبل التحوط لها

علَّمنا اللهُ تعالى آلياتِ إدارة المخاطر التي قد تحيط بالإنسان بأسلوبٍ (علميّ وتِقنيّ)، ونهانا عن الخُرافات وما شابَهها، فمما دلَّت عليه الآيات الكريمة إضافة لتوافُر البيانات والمعلومات الصحيحة، توفير أدوات تساعد على ذلك: (الكتابة، والشهادة، والرهن، والموازنات، وبعض الأعمال والسلوكيات، وأدوات إحصائية)، وهذا ما سنبينه بالآتي.

(١) الكتابةُ والتسجيل:

تُفيد الكتابة بالحدِّ من (مخاطر النسيان وضياع الحقوق وتثبيتًا لها بالقسط، وللقيام بالشهادة بشكل صحيح). وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلك في أطول آيةٍ من آي القرآن الكريم؛ والتي عُرفت بآية (المداينة أو آية الكتابة) قواعدُ الكتابة العادلة الصحيحة، فـ(الكتابةُ مندوبةٌ)، والكاتبُ كاتبُ عدلٍ يكتب كما علَّمه اللهُ، لا يكتب بهوى يخصُّه فيميلَ إليه، ولا يبخس من الحقّ شيئًا، قال تعالى: **يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا إِذَاتَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن**

كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ (البقرة: ٢٨٢).

وقد شرَّفَ اللهُ أدواتِ الكتابة فأقسمَ بها قائلاً: نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (القلم: ١)، وجعلَ ملائكته يكتبون عملَ الصالحين، فقال عزَّ من قائلٍ: فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (الأنبياء: ٩٤)، وشبَّه تعالى نهايةَ الحياة الدنيا وانتهاءَ ما فيها ومن ذلك (السماء العظيمة) كطي السِّجِل للكُتب، فقال المولى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ (الأنبياء: ١٠٤).

(٢) الشهادةُ:

هي أداةٌ تُساعِدُ في الحدِّ من (مخاطر النسيان وضياع الحقوق) فتُثبتها، وتكون بشاهدين عند (كتابة الديون، والبيوع وإثبات الحقوق، وإقامة الحدود). قال تعالى: وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا (البقرة: ٢٨٢).

وتكون بأربعةِ رجالٍ إذا ما كانت في الحدود؛ كـ (حَدِّ الزنى)، يقول الله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور : ٤) .

(٣) الرَّهنُ :

يُساعد الرهنُ في تثبيتِ الحقوق من الضياع، يقول تعالى : وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (البقرة : ٢٨٣) .

(٤) وضعُ الموازناتِ المستقبلية :

يُعلِّمنا اللهُ آلياتِ ضبْط حِدَّة المخاطر؛ خاصَّة إذا كانت مصالح الناس في خطر، ولأجلِ ذلك يُوضَع أكثر من احتمالٍ (كسيناريوهات)؛ لمجابهة التغيرات المتوقَّعة؛ لضبطها وتخفيف حِدَّة آثارها السلبية .

فسَّر يوسفُ عليه السلام منامَ الملك الذي تردَّد عليه مِراراً، فقد فهم – ممّا علَّمه اللهُ من تأويل الأحاديث قال تعالى : وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (يوسف : ٦) – أنّ جَدْبًا سيُصيب القومَ، فرسم للملك خطَّة طويلة الأجلِ مُدَّتُها خمسة عشر عامًا، وزَّعها إلى خطَّتَين مدَّة كلٍّ منها سبعةُ

أعوام. توقَّع أن تكون الفترة الأولى فترةَ رخاءٍ وخصب، ثم يتلوها فترةٌ شديدةُ القحطِ مُجدِبة قد لا يَنبُت فيها زرعٌ. فخطَّط لهم ليزرعوا السنابلَ في الفترة الأولى، فيحصدونَها ولا يدرسونَها للاحتفاظ بها، فبقاؤها في السنابل تزيدُ مقاومتَها وتزيد تحمّلها لشروط التخزين الطويل، فلا يأكُلون من ذلك إلاّ القليل ممّا يكفي طعامهم. ثمَّ يستخدمون مخزون الفترة الأولى طعامًا في الفترة الثانية. بعد ذلك تنفرج الأمور بنزول المطر فيُغاثُ الناس، وتمرُّ الأزمة، وتعودُ حياتهم الاقتصادية حياةً طبيعية؛ فيَزرعونَ فيها ويعصرون ممّا تُخرج الأرضُ. قال الله تعالى: **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف: ٤٧–٤٩).

(٥) سلوكياتٌ وأفعالٌ:

هناك أفعالٌ تساعد في الحدِّ من المخاطر، كفعلِ الخضِر – الذي آتاه اللهُ العِلم – مع موسى عليه السلام في قَصص سورة الكهف؛ كتعييب السفينة بِخَرْقِها لينجو أصحابُها المساكين من ظُلم الملِك الغاصب، وبناء الجدار لحماية كنْز الغلامَين اليتيمَين؛ وذلك تحوُّطًا من خطر متوقَّع.

(٦) أدواتٌ إحصائيَّة:

ذكرَ القرآنُ العديد من الأدوات، منها: (الأمل، والإحصاء، والخرص، والتقدير، والتوزان، والوسط، والميل والانحراف، وأنظمة العد). وسوف نتناول بعضها بالبيان كما سيأتي

الأملُ

الأمل كلمةٌ إيجابية بكلِّ معانيها. يكون الأمل عادةً من المرء لنفْسه وذاته، وبما أنها تعني الرجاءَ فلا يُعقَل أن يترجَّى المرءُ غيرَ الخير لنفْسه، فهل يكون الأمل خدّاعًا؟

يكون الأملُ بمعناه السلبيّ عندما يترجَّى المرءُ غيرَ الخير ظانًّا أنه يفعل الصوابَ بنفِسه، عندئذ يصير الأمل خدّاعًا؛ فالأمل يكون رجاءً لأمرٍ مستقبليّ، فيعمل المرء الآن ما يجعلُه يحصد نتيجةَ أمله مستقبلاً. فإذا ماكان الزرع سيِّئًا كان الحصادُ من جنسه، والفارقُ أنّ الزمن مرَّ وانقضى، أو كما يُقال بالعاميِّة: (الذي ضربَ ضرب).

أمَّا أبشعُ أشكالِ الأملِ الخَدّاع فهو ما وصفَه الله تعالى عن الكفَّار الظانِّين أنَّهم على حقٍّ فضَيَّعُوا فُرصَة العُمُرِ التي لا تُعطى للمرء إلاّ مرة لِيَحياها. قال تعالى في سُورة الحِجر: **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ* ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (الحجر: ٢–٣)، فهم يرجون أمرًا ولا يَفعلوه؛ فيَزرعون مالا يُوصلُهم إلى ما أمَّلوه؛ فيقضون أيَّامهم

بالمتع الدنيوية الزائلة؛ فيلتهون عمَّا أمّلوا به، لكنَّهم سيعلمون مستقبلا أنَّ حصاد أعمالِهم من جنْسِ زرْعهم نفسه. وبذلك يكون أملُهم قد خدعَهم؛ لأنَّهم لم يفعلوا الصوابَ؛ بل خُيّل إليهم أنَّهم على صوابٍ. ثمَّ يأتي قولُ الله تعالى في سُورة الكهف مُزلزلاً: **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (الكهف: ١٠٤)، وهذه أخوف آية؛ – فكلَّما تلوت هذه الآية ظننت أنها قِيلتْ لي –.

يُعرَّف الأملُ الرياضي في الإحصاء بأنه ناجمٌ عن جمع نواتج ضرْب كلِ مُتغيِّرٍ عشوائي باحتمال حدوثه لينتج الوسط الحسابي لهذه الاحتمالات. ويستخدم الأملُ الرياضي مع الاحتمالاتِ لإمكان وقوع الحدث؛ حيث يتأرجح بين العَدم واليقين مروراً بما بينهما من درجات ثقةٍ. كما يُستخدم الأملُ الرياضي في حساب التباين والانحراف المعياري؛ لذلك هو مقياسٌ من مقاييس النزعة المركزية يُستفاد منه في حساب تشتُّتِ الظواهر عن وسطها الحسابيّ.

وبناءً على ذلك فإنّ الأمل الرياضي يُقارِبُ حالة الظن في أدنى درجاتِها؛ والتي تمثِّل ٥٠٪ كوسطٍ بين طرفَي العدم واليقين، وبه وصفَ اللهُ تعالى فعلَ الكفَّار الذين يقضون حياتَهم الدنيا بالمتَع الحسِّيَّة؛ بأنهم قد ضيَّعوا

العُمُرَ؛ أيّ: الزمن، في أشياءَ لاهية بأملٍ خدّاعٍ، ظانِّينَ أنهم على حقٍّ، وسيعلمون يومَ الحساب يقينًا خطأ فِعالهم.

ويكون الأملُ إيجابيًا إذا ما تركَ الإنسانُ ما يُلهيه عن العمل الصالح لِيُوازِنَ بين ما هو زينة الدنيا ومُتَعِها وبين ما ينفعُه لآخرته من الصالحات، يقول الله تعالى: **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** (الكهف: ٤٦).

الإحصاءُ

العدُّ مرحلةٌ أوليَّة لجمع البيانات، أمَّا الإحصاءُ فيُحوِّل البياناتِ إلى معلوماتٍ ذات معنىً أفضل، يقول الله تعالى: **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا** (مريم: ٩٤).

ولما يسأل الله تعالى أهل النار عن فترة مُكوثِهم في الدنيا وقد حسبوه يومًا أو بعضًا منه، يطلبون مِن الله تعالى أن يسأل العادِّينَ؛ لأنَّهم كانوا غافِلين ساهِين، يقول الله تعالى: **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ** (المؤمنون: ١١٢–١١٣).

كما أنّ رُسُلَ الله تعالى مراقبونَ بـ(العَدِّ والإحصاء)؛ حتى يُبلّغوا رسالاتِ الله تعالى لِعباده، وهذا إنّما لإقامةِ الحُجَّة على العباد بأنهم قد علمُوا الخبرَ اليقين من أولئك الرسل وأنّه به سيُحاسَبون إن لم يفعلوا ما أُمِرُوا به، يقول

اللهُ تعالى : **لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** (الجن : ٢٨) .

وتُعرض يومَ القيامة أعمالُ الناس مُوثَّقةً (كتابةً وصوتًا وصورةً) ؛ لذلك يتفاجأ المجرمونَ من شِدَّة ودِقَّة التسجيل ؛ فالتسجيلُ يشمل العدَّ والإحصاء، وبذلك تسهلُ معرفةُ النتائج، فسجلُّ حياةِ كلِّ فردٍ سجلٌّ كبير جدًّا، تتلخَّص نتائجُه بالإحصاء ؛ لذلك تكون المفاجأةُ بمعرفة كلِّ فردٍ لمصيره بمجرَّد الاطلاع على تلك السجلاّت، يقول المولى عزَّ وجلَّ عن هذا المشهد العظيم : **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** (الكهف : ٤٩) .

ويأمر اللهُ تعالى عبادَه بإحصاء العِدَّة عند حصول الطَّلاق لأهميته في (حفْظ الأنساب والحقوق) ، **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ** (الطلاق : ١) .

ويقول تعالى عن تثبيتِ أعمال الناس وقد أحصاها في كتابٍ واضح مُبين قد شهد عليه بذاته العَليَّة : **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (المجادلة : ٦) . ويشمل هذا السِّجلُ آثارَ

الناسِ من (خَير وشَرٍّ) وما ترتَّب عليهم فكتب لهم مِثلها إلى يوم القيامة كما أخبر نبيَّ الله محمَّدًا صلّى الله عليه وسلَّم، يقول تعالى: **إِنَّانَحْنُ نُحْيِيالْمَوْتَىوَنَكْتُبُمَاقَدَّمُواوَآثَارَهُمْوَكُلَّشَيْءٍأَحْصَيْنَاهُفِيإِمَامٍمُّبِينٍ** (يس: ١٢).

الخرْصُ

يُقالُ لِمن يظنُّ بالشيء (خَرَّاصٌ) وَجاء في لسان العرب أنّ أَصل الخَرْصِ التَّظَني فيما لا تَسْتَيْقِنُه، ومنه خَرْصُ النخْلِ والكَرْم إذا حَزَرْت التمر؛ لأَنّ (الحَزْرَ) إنما هو تقديرٌ بِظَنٍّ لا إِحاطة، والاسم الخِرْص، بالكسر، ثم قيل للكَذِب خَرْصٌ لِما يدخلُه من الظُّنون الكاذبة. قال تعالى في سورة الذاريات: **قُتِلَالْخَرَّاصُونَ*الَّذِينَهُمْفِيغَمْرَةٍسَاهُونَ*يَسْأَلُونَأَيَّانَيَوْمُالدِّينِ** (الذاريات: ١٠-١٢)، أيّ: قُتِلَ أهلُ الظُّنونِ المرتابونَ الذين يُشكِّكونَ بيوم الدِّين فيتساءلون مُنكِرين: **أيَّانيومُالدِّين؟**؛ أيّ: متى هو يوم المجازاة والحساب؟ وهُم في الكفْر والشكِّ غافلونَ لاهونَ، فأوقعوا أنفسَهُم في عذابِ الله تعالى؛ حيث أخبرَنا عن مصيرهم بِقَولِه تعالى: **يَوْمَهُمْعَلَىالنَّارِ يُفْتَنُونَ*ذُوقُوافِتْنَتَكُمْهَذَاالَّذِيكُنتُمبِهِتَسْتَعْجِلُونَ** (الذاريات: ١٣-١٤).

لذلك فإنّ أغلبَ حالاتِ الخَرْصِ تكون بمعنى (التقدير الذي فيه الشَّكُّ)، ويقول الله تعالى عمَّن لجأ للظن والخرص بأنهم مُضِلُّونَ؛ لأنَّهم ليس لَديهم يقينٌ: **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** (الأنعام: ١١٦). ويقول أيضًا: **أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** (يونس: ٦٦).

وقد أخطأ أولئك الذين عبدَوا غيرَ اللهِ فأساؤوا الخرْصَ ظانِّينَ أنَّهم على عِلْمٍ، قال الله تعالى: **وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** (الزُّخرف: ٢٠).

المقدارُ وأنظمةُ العَدِّ:

أنزلَ اللهُ تعالى في كتابه العزيز عباراتِ (القدْر والتقدير) مرارًا، ودلَّ على ذلك بـ (أرقامٍ ومقاديرَ) تُعرَف بها ووضعَ لها ميزانًا تُعرَفُ به الأشياء؛ فقال في سورة الرحمن: **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** (الرحمن: ٩). فذكر مقاديرَ محدَّدة كـ (الثُّلُث والثُّلُثَين والنِّصف)، فقال: **نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا** (المزمل: ٣)، وقال: **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى**

مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ (المزمل : ٢٠) . وذكر (الزوجَ والزوجَين والشفْع والوتْر) .

وقد ذَكر نظامَ العدِّ العُشري بكامل عناصره في القرآن الكريم، كالصِّفر – الذي ذُكِرَ بعِدَّة معانٍ – فـ (الواحدُ فالإثنين فالثلاثة فالأربعة فالخمسة فالستة فالسبعة فالثمانية فالتسعة فالعشرة)، وذكرَ بعض مضاعفاتِها كـ (الإحدى عشر والإثنا عشر والتسعة عشر، والعشرين، والثلاثين، والأربعين، والخمسين، والستين، والسبعين، والثمانين، والتسعين، والمائة، والمائتين، والثلاث مائة، والألف وبعض مضاعفاتها كالثلاثة آلاف)، ومِن ذلك قوله : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (البقرة : ٢٥٩) .

وذكر (اليوم والأيّام والسَّنة والسِّنين)، قال تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (آل عمران : ٢٤)، وقال : فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (الكهف : ١١) . وخلقَ ميزانًا لها لِتُعرَفَ بها الأعمارُ وغيرها، فقال : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (يونس : ٥) .

إنّ هذه الدِّقَّةَ لا يعلمُها إلاّ (خالقٌ بارئٌ مُصوِّرٌ خبيرٌ عليمٌ)، أمّا نحن البشرَ فمُجرَّد مستخدَمين لهذه الأنظمة، العالِمون منَّا أحسنَوا استخدامَها، وجهلَها الجاهلونَ، وأنكرَها الجاحِدونَ، قال المولى عزَّ وجلَّ: **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** (العنكبوت : ٤٣)، فتبارك الله أحسن الخالقين، فالجاحدون ظنوا أن آلهة غير الله فعلت هذا النظام، فقال لهم الله تعالى : **أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** (الصافات : ١٢٥)؛ أيّ : أتستعينون بالصَّنَمَ (بَعل) وتتركونَ أحسنَ الخالِقينَ! فأيُّ حُكْمٍ فاسد هذا؟ وقال لهُم : **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** (الصافَّات : ١٥٤) .

وذكر أيضًا الضِّعف والضِّعفين، فقال : **فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ** (البقرة : ٢٦٥)، وجعل مجالَ المضاعَفة مفتوحًا لا حدودَ له بِقَولِه : **مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (البقرة : ٢٦١) . ونهى عن الرِّبا ومُضاعفاتِها ممَّا يُسمُّونها حاليًّا بالفائدة المركَّبة فقال : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (آل عمران : ١٣٠)، وذلك بعدَ أن نهى في سُورةٍ سابقة عن ترك أيِّ شيءٍ من الرِّبا مهما تناهى صِغرهُ بطريقةٍ

مُعبِّرة فقال: يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوااتَّقُواااللَّـهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (البقرة: ٢٧٨)، وذروا؛ أيّ: اتركواُ أيَّ جُزءٍ مِن الرِّبا ولا تَقربُوه.

ثم ذكرَ أنظمة عدٍّ أُخرى لا يستخدمُها البشرُ كنظام العدِّ الذي أساسُه الألفُ، فيعادل اليومُ منه ألفَ سَنةٍ من النظام العِشريّ، قال تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّـهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (الحج: ٤٧). ونظام العدِّ الذي أساسُه الخمسين ألف، فيُعادل اليومُ منه خمسينَ ألفِ سَنةٍ من النظام العِشريّ، قال تعالى: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج: ٤).

التوازنُ

خلقَ اللهُ الأرضَ وقدَّر ما فيها بشكلٍ موزون فكانت الأرضُ متوازنةُ بما فيها لا خَلَلٍ فيها إلاّ إذا أفسدَها سُكَّانها وقاطِنوها، قال الله تعالى: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (الحِجر: ١٩).

الوسط

أشار اللهُ تعالى للوسطِ في عِدَّةِ مواضعَ؛ فقال أنّ هذه الأمَّة أُمَّة وسطًا بين الأُمم، فقالَ: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (البقرة: ١٤٣)، وطلبَ المحافظةَ

على الصلاة التي تتوسَّط سائرَ الصلوات، فقال: **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى** (البقرة: ٢٣٨)، وطلبَ إطعامَ المساكينِ من أوسط الطعام لا أفضلَه ولا أسوأه، فقال: **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ** (المائدة: ٨٩). وقال أيضًا: **قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ** (القلم: ٢٨). والوسطُ يكون بين مجموعةٍ، قال اللهُ: **فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا** (العاديات: ٥).

وعبَّر عن التوسَّط بجعلِه مجالاً بين حدَّين مُتطرِّفين، فيكون أعلاهما، ويفيد ذلك بتحرُّك هذا الوسط ضمنَ مجالٍ لتحقيق غاية القيام بالشيء ليحسُن قوامُه، قال تعالى عن حدِّ الإنفاق: **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** (الفرقان: ٦٧)، وهذه الآية تمثِّل الاقتصادَ الصحيح أفضلَ تمثيلٍ؛ فبَعد (النكباتِ والأزمات) تميل الناسُ للانكماش، وكذلك يفعل التقتيرُ والبخل، ولا تعود دورةُ الاقتصاد للعمل إلاّ بـ (الإنفاق والبذل)، كما أنّ الإسراف يُخرِّب الاقتصادَ، ويُدخِلُه في تضخُّمٍ نتائجُه مريرةٌ على الناس، وعليه فلا يقوم الاقتصادُ إلاّ بالتوسُّط ضمن مجالٍ يقع بين حدَّي سلوكَين يسلكُهما بعضُ الناس هما: (التقتيرُ

والإسراف)؛ فإنْ شاع هذا السلوكُ وعمَّ الجميعَ دخلَ الاقتصاد في عُنُقِ زُجاجةٍ يصعُب خروجُه منها.

ويُعتبَر الوسطُ أحدَ مقاييسِ النزعة المركزية.

الميلُ والانحراف

الميل في الحُكم يكون بالابتعاد عن الحق وهو (الجَور والظلم)، و(الميل والانحراف هو التشتُّت والابتعاد عن المركز)، يقول اللهُ تعالى: **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** (النساء: ١٢٩).

ووصفَ مَن يتَّبع شهواتِه ولا يُحكِّم عقلَه في اتِّباعه لِهواه بأنّه قد انحرفَ انحرافًا كبيرا، قال اللهُ تعالى: **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا** (النساء: ٢٧).

بناءً على ما سبقَ، يُمكِن تقسيم الاحتمالات إلى مجموعة أقسامٍ لكلٍّ منها درجاتُها:

درجاتُ الاحتمالات:

(١) **اليقين = ١٠٠٪** وهو الجزم بحصول الشيء، وسُمِّي بـ **(قطعي الثبوت قطعي الدلالة)**. ودرجاتُه:

- **عِلمُ اليقين**: التحقُّق من معلومةٍ سُمع بها كخَبر.
- **عَينُ اليقين**: التحقُّق من المعلومة برؤيتِها بعدما سُمع بها.
- **حَقُّ اليقين**: التحقُّق من المعلومة المخبَر عنها بمعايشَتها بالمباشَرة والمواقعة.

(٢) **الظنُّ**، ودرجاتُه:

- **غالب الظَّنِّ < ١٠٠٪**: تكون درجةُ الظنِّ بـ (وقوع الشيء أو عدم وقوعه) بدرجةٍ تُقارِبُ اليقينَ، فإذا كان أحد المرجَّحين يطمئنُ إليه القلبُ، فهو ظنٌّ غالب يُقارِبُ منزلةَ اليقين. وهو قسمان:
  - **(ظنِّيُّ الثبوت قطعيّ الدلالة).**
  - **(قطعيُّ الثبوت ظنِّيّ الدلالة).**
- **الظَّنُّ >٥٠٪**، حيث يترجَّح فيه أحدُ الاحتمالَين، دون اطمئنانِ القلب للجهة الراجحة فيكون ظنًّا، ومجاله أكبرُ تمامًا من ٥٠ ٪؛ وهو ما يُسمَّى بـ **(ظنِّيِّ الثبوتِ ظنِّيِّ الدلالة).**

(٣) **الشَّكُّ، ودَرجاتُه**:

- **الشَّكُّ أو الرَّيب أو المِرية = ٥٠٪** وفيه يستوي احتمالُ الـ (نعم، لا)، ويتردَّد الفعلُ بين الوقوع وعدمِه بلا مُرجِّح لأحد الاحتمالَين؛ أي: باحتمال ٥٠٪ لكلٍّ منهُما.
- **الشَّكُّ المُريب < ٥٠٪**
- **الوَهَمُ أو المرجوح: وهو يُقارِبُ العَدم**؛ لأنه موهومٌ؛ بسبب الجهل، وعَدم العِلم؛ لقول الله تعالى: (**مالَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ**) وفيه تقعُ (الجهالة والغَرر) بدرجاتٍ مختلفة. ومنه ظنُّ السَّوء أيضا.

(٤) **العَدم = ٠**، وهو الجزمُ بِعدَمِ حصول الشيء.

يُستفاد ممّا سبقَ: أنَّ عِلْمَ الاحصاء وطُرُقَ البحث فيه قد دلَّت عليه آياتُ القرآن الكريم فكان ممَّا علَّمنا اللهُ، وهذا ما يشير لضرورة العملِ بالعلم وأصوله العلمية، وليس تركَ الأمور على ما هيَّتها فيكون الإنسانُ (متأثّرًا لا مؤثِّرًا)؛ فـ(العقلُ أداة الاستنتاج)؛ وبذلك يكون المنهجُ منهجًا استنباطيًا، والعقلُ مزوَّدٌ بأدواتٍ تجعلُه يُحسُّ بمحيطه فيكون ذا منهجٍ تجريبيّ أيضًا، فيتعرَّف إلى خالِقه وإلى آلائه ونَعمائه؛ فيقرّ له بـ(الربوبية والأُلوهية) ويؤمن به غيبًا؛ ويكأنَّه يراه فيعمل الصالحاتِ التي أمره خالقه بها.

ثم يكون ذلك منهجَ حياةٍ له في الوصول إلى الحقائق العلمية؛ فـ (اليقينُ عنده هو الراجح) دَومًا، فإنْ تعارَض عنده يقينٌ وظنٌّ رجَّح اليقينَ عنده، فإنْ غاب عنه اليقينُ أخذ بغالبِ الظنِّ؛ لأنّه الأرجحُ، وقد بُنيت الأحكام الشرعية على غالبِ الظنِّ.

وعليه، ففي عِلْم الرِّجال الذي تفرَّد به المسلمون الأوائل عن غَيرهم من الأمم، فإنَّ نُصوصَ القرآن الكريم نُقِلَت بالتواتر فثَبتَتْ به وكانت قطعيَّة الثبوت، أمّا حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمِنها ما هو (قطعي الثبوت)؛ كـ (القول بأن صلاة الظهر أربع ركعات)، ومنها ما هو (ظنِّيُّ الثبوتِ وهو ما نُقِلَ بحديثٍ حسن أو صحيحٍ)، فمَساحة الظنِّ بالحسن أكبر من الصحيح؛ لأنها أقربُ للتواتر.

إنَّ العالِم الخبير بمكنونات هذا الكون هو اللهُ تعالى، أمّا غيرُه فيتدارك عِلمَه بعد حصول العلم وانكشافه، فمَن تساءل عن مصيره بعد الموت سيرى ذلك عيانًا لحظةَ حُدوثِ موته؛ وعندئذٍ لن يكون مجرَّد خبرٍ هو أقرب للأساطير؛ بل ذلك وعدٌ آتٍ يقينًا؛ سواء (استعجَلُوه أمْ نَسُوه).

يقول المولى في سورة النمل: **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا**

هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (النمل : ٦٥–٧٥)

لقد بينّ اللّٰهُ تعالى في مُحكَمِ آياته جزاءَ مَن لا يؤمن بغيبيَّاته؛ فجَعلَ أشدَّ العُقوباتِ لأجْل ذلك، وعلى كُلِّ إنسان أن يقي نفسَه هذا الخطرَ الجسيم؛ وإلاّ عاش حياةً قصيرة، ثُمَّ يخلُد إلى نارٍ حامية يَصلى خالداً فيها ما شاء اللّٰهُ تعالى .

لكنْ ماذا إذا عمَّ هذا الخطرُ الكثيرَ من الناس فلمْ يؤمنوا باللّٰهِ تعالى ربًّا؟

لقد أعدَّ اللّٰهُ لأولئك عذابًا في الدنيا كـ (الفتن والابتلاء)، وهُم في الآخرة سيصلَون ناراً حامية خالدِين فيها . لكنَّ اللّٰهَ توعَّد الناسَ الغافلين – في الدنيا – سواء أكانوا (مذنبِينَ أمْ ساكتِينَ عن الخطأ بما فيهم المصلِحون)، توعَّدَهم بعذابٍ أشملَ وأكبر لا يُبقي ولا يَذر .

ضرورةُ درءِ الخطر الأكبر (المحدِق بالناس) :

إذا عمَّ الضلالُ والإفساد وانتشر وصارَ جَماعيًّا؛ بأنْ أصبح الناسُ كلُّهم أو أغلبُهم كذلك، أخذَهم اللهُ تعالى بألوانٍ من العذاب؛ لذلك وجبَ على الناس أن تأمَن هذا الخطر العميم؛ لأنه تهديدٌ لهم كلُّهم حتَّى لو كان فيهم صالحون وأتقياء.

دخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرَّةً على زينبَ رضي اللهُ عنها فَزِعًا، وهو يقول: (**لا إلهَ إلاّ اللهُ، وَيلٌ لِلعرَب مِن شرّ ما اقتربَ، فُتح اليومَ مِن رَدْمِ يأجوج ومأجوج مِثل هذا**). وحلَّق بإصبعِه وبالتي تليها، فقالتْ زينبُ: فقُلْت: يا رسولَ اللهِ، أنهلكُ وفِينا الصالحونَ؟ قال: (**نعمْ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ**)؛ أيّ: انتشر الخبثُ؛ فهذا بمثابةِ خطرٍ داهم لا يدرؤه إلاّ التزامُ الناسِ بأوامر الله ونواهيه.

لقد سبق هذه المرحلةَ من العُقوباتِ الجَماعية ترغيبٌ للناس بأنَّ العذابَ غيرُ واقعٍ بهم إنْ استجابوا لأوامرِ الله ونواهيه، ثمَّ تلاها إنذارٌ وتهديد؛ فابتلاءٌ أشبهُ بعذابٍ جزئيّ؛ لكنَّ النهاية بالأخْذ بألوانٍ من العذاب.

إنَّ إدارة المخاطر تستوجبُ أخْذَ العِبَر من أخطاء الماضين ممَّن سبقونا من الناس، وقد ذكرَ الله لنا قَصصَهُم لنَعتبِر بهِم، وما تلك إلاّ بياناتٌ تاريخية عن أُمم أُخِذت بألوان من العذاب؛ فإنْ اتَّبعنا ما ساروا عليه حقَّ علينا ما حق عليهم من عذاب.

لذلك شرّع اللهُ لنا: **الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر**؛ ليكون أداةَ تطويرٍ وتصحيح للمسار، فالأمرُ بالمعروف فيه (تحسينٌ وتطوير) للحال، وهذا ضامنٌ لاستمرارية عَيش الناس في هذه الأرض على نحوٍ أفضلَ، بينما يُصلح النهي عن المنكر ما أفسدَه الناسُ؛ كَيلا تَصِلَ حالهُم إلى درجة الفساد العريض. وقد ذمَّ اللهُ تعالى من لا يأمرُ بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكَرٍ؛ فقال: **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (المائدة: ٧٩).

إنّ أُولي النُّهى وأصحاب الرُّؤى والتخطيط الاستراتيجي يعلمونَ أنَّ مَن سار على درب مِعوَجٍ ومنحرف فسيصلون لما لا يُحمدُ عُقباه؛ لذلك ينبغي على أولئك الراشدينَ التدخُّل بـ(النُّصح والإرشاد)؛ لتصويب الخطأ، والحثِّ على اتِّباع الأفضل؛ فإنْ تقاعسوا شملَهم العذابُ الجَماعي ولو كانوا مُتَّقِينَ ملتزمين؛ لأنَّهم أضحَوا ممَّن آمنَ ولم يعمل الصالحات، وما الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ مِن ذلك؛ حتَّى أنَّ بعض العلماء اعتبرَه الرُّكنَ السادس للإيمان بالله؛ لأهميته في درْءِ المخاطر، وتجنيب الناس ما يُودي بحياتهم فيُنهيها بطريقةٍ خاسرة، ثم يُتبعها آخرةً خاسرة أيضًا؛ فيستحقُّون عذابَ الخُلد في النار.

من أجل ذلك طلب اللهُ تعالى من الناس أن ينفر بعضُهم ليتفقَّهوا في الدِّين ليكونوا مُنذِرين؛ فيكونون أدواتِ إنذارٍ مبكر. وتُعتبَر أدوات الإنذار المبكر جُزءًا حيويًّا ومهمًّا من إدارة المخاطر، مهمَّتها إعادة الناس لما يجب أن يكونوا عليه من الصلاح قبلَ وقوعِهم في المحذور، فيجتنبون الوقوعَ في الخطر الذي ينجم عنه العقوبة، ويَحذَرونه. يقول المولى معلِّمًا الناس كيفية ذلك: **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (التوبة: ١٢٢).

وبما أنّ الناسَ في الأغلبِ ما تتذكَّر مآسيها أكثرَ ممّا تتذكَّر أفراحَها وسعادتها، فإنَّ التحذير الذي فيه ترهيبٌ من شدَّة ما قد يحصلُ هو أكثر اعتباراً لهم؛ حيث يغلب النسيانُ عليهم. لذلك رغَّب اللهُ تعالى عبادَه ووعَدهم بالخير إذا ما ابتعدوا عن الظلم؛ كـ(الكفر به والإشراك فيه وظُلم الناس)، إلاّ إن استغفروه، وأصلحوا، وفرُّوا إليه تعالى. أمّا كيفيّةُ ذلك فيكون:

- **بالعيشِ الآمن الذي لا خوفَ فيه**، فمَن عاش في (غابةٍ مُوحِشة، أو صحراءَ مُقْفِرة، أو حَربٍ مُزلزِلة)، عرفَ طعمَ الأمن، ومَن عاش في مرضٍ يُهدِّد حياته؛ عاش خائفًا، فأولئك يبحثون عن أمنٍ من المخاطر التي تُهدِّد حياتَهم؛ فلا لذَّة في (طعامٍ أو شراب)، ولا راحةَ لمن كان

خائفًا غيرَ مطمئنٍ؛ لذلك يُعتبَر الأمن من الخوف أوَّل حاجةٍ من الحاجات الأساسية التي يبحث عنها الإنسانُ، ويعمل جاهداً لتحقيقها. ومن ذلك قولُه تعالى: **وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** (قريش: ٤).

- **بالهداية لِسُبُلِ الخير**، فشتَّان بين مَن (يبحث ويُنقِّب) عن شيءٍ، وبين من يَجِدُه سهلاً هيِّنًا؛ فالأوّل يحتاج (بحثًا وتمحيصا)، قد يعثر عليه أو قد لا يُفلِح بإيجاده؛ لذلك فمَن نوّر اللّهُ بصيرتَه وهداه للأمور غيرُ من أعمى بصيرتَه فتراه يهيم على وَجْهِه فلا يعرف كيف يسير، فالتي تغزلُ الغزْل ثمَّ تنقضُه إنما تضيع جُهدها، وقد نهانا الله أن نكون كذلك، قال عزّ و جلَّ: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** (النحل: ٩٢)، كما نهانا أن نكون ممَّن يُخرِبون بيوتَهم بأيدهِم فقال: **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** (الحشر: ٢)؛ فهذا كلُّه من الهداية.
- **بمنحهم حياةً رغيدة** دون مشقَّةٍ وعذاب.
- **بأن يَرزقَهُم ماءً غدقًا**؛ فلا حِرمان من الماء ولا نُقصان فيه ولا بماهيَّته، وهذا يُجنِّب الناسَ أزماتِ المياه التي تُعدُّ أخطر الأزمات؛ فبزوالِ الماء

من مكانٍ ما، تزول معه الحياةُ مباشرة. وما بحثُ العلماءِ عن كوكبٍ فيه ماءٌ إلاّ بقصد أن يجدُوا فيه حياةً صالحة للناس.

- **بأن يَرزقهُم رغداً من كلِّ مكانٍ**؛ فالرزق من نباتٍ وحيوان ممّا يأكلُ الناسَ وينعمون به؛ فإنْ كان الحصول عليه سهلاً انخفضت تكاليفُ إنتاجه؛ فإنْ جاءهم من كل مكان انخفضت تكاليفُ نقله؛ فإنْ كان طيِّبا لذيذا سَعِدَ الناسُ بمأكلهم وأَمِنوا الجوعَ وطاب لهم الأكلُ والطعام؛ فتلذَّذوا به دون شقاءٍ ودون مَزيدٍ من الجُهد وبذلٍ للمال.

لقد مَنّ اللّٰهُ تعالى على قريشٍ بالأمن وعدم الجوع فجعلَ لهم تجارةً تكفيهم حاجاتِهم الأساسية، وطلبَ منهم عبادتَه تعالى دون إشراكٍ به إلهًا واحداً، فقال: **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** (قريش: ١-٤). روى المنذريُّ في الترغيبِ والترهيب – في هذا المعنى – قولُ رسولِ الله صلّى اللّٰهُ عليه وسلم عن تعريف الدُّنيا بحذافيرها: **(مَن أصبحَ آمِنًا في سِرْبِه مُعافىً في بَدنِه عِندَه قُوتُ يَومِه فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بحَذافيرِها)**.

المبحث الثالث: رايات الإنذار بالخطر ودرجاته

بناءً على ما سبقَ؛ فإنّ رايات الإنذار بالخطر ودرجاته هي كالآتي:

(٦) الترغيبُ بِعَدمِ العذاب.

(٧) الترهيبُ، ودرجاتُه هي:

ا. الابتلاء.

ب. الإنذار والتهديد.

ت. العذابُ الجُزئيّ.

(٣) تحقُّق الخطر والأخْذ بالعذاب: حيث بات وقوعُ العذاب أمراً لا مفرَّ مِنه؛ كـ (الخسْف والإهلاك والغرق والتدمير والأخْذ بالسِّنين والرجْفة، والريح، . .).

(١) الترغيبُ بِعَدمِ العذاب:

قد يرفعُ اللهُ تعالى العذابَ عن الناس إنْ دخلُوا في الإيمان، كقومِ يُونُسَ عليه السلام الذين كشفَ عنهم العذابَ لّما آمنوا؛ فمتَّعهم بعَيشهِم، قال الله تعالى: **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** (يونس: ٩٨). وهذا ليس حصريًّا لقوم يونُس عليه السلام؛ بل هو لكلِّ البَشر، يقول الله تعالى: **وَلَوْ**

أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (الأعراف : ٩٦–٩٩) .

كما أنّ الشُّكر ممّا يجزي اللهُ به رَفْعَ العذاب الواقع على الناس، يقول اللهُ تعالى : مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (النساء : ١٤٧) ؛ بل قد يُدخلهم ذلك جنَّاتِ النعيم، ولأكَلوا من فوقهم ومِن تحت أرجُلِهم، قال الله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (المائدة : ٦٥–٦٦) .

كذلك فإنّ الاستقامةَ على ما أمرِ اللهِ به مؤدَّاه عيشٌ رغيد، وقد يكون ذلك فتنةً، فإنْ أعرضَ الناس؛ فالعذابُ موعدُهم، قال اللهُ تعالى : وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (الجن : ١٦–١٧) . لكنْ حتَّى لو كان الناسُ في عيشٍ هنيٍّ؛ فكفروا، فسيُذيقُهم اللهُ لباسَ الجوع والخوف، قال اللهُ تعالى :

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل: ١١٢).

والعذاب لن يَطالَ الناسَ مادام رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم مُقيمًا بينهم، ولن يَطالهم ما طبَّقُوا سُنَنَه، ولن يَطالهم ما استغفَروا اللهَ تعالى، قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (الأنفال: ٣٣). ولن يَطالهم العذابُ والناس مُصلِحُون، قال تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (هود: ١١٧).

وقد خيّر اللهُ تعالى الناسَ بين الاستغفار أو العذابِ أسوةً بمَن سبقَهم من الأمم: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (الكهف: ٥٥)؛ بل إنّ الأمنَ سيكون لمن اهتدى وابتعدَ عن الظلم، قال اللهُ تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (الأنعام: ٨٢).

(٢) الترهيبُ:

إنّ الترهيبَ هو شكلٌ من أشكال الإنذار بالخطر، ويكون بالابتلاء، ثمَّ بالإنذار والتهديد، ثمَّ بالعذاب الجزئيِّ الذي لا يقضي على الناس في هذه

الدنيا؛ وذلك لعلَّ الناس تنتبِه من غَفلَتِها؛ فتعود للطريق الصحيح. وكل ذلك قبل تحقُّق الخطر وأخْذهم بالعذاب وانتهاء حياتهم الدُّنيا.

أ. التخويف:

يرسل الله تعالى آياته للناس تخويفًا لهم ليرتدعوا ويعودوا إلى تصرفاتهم الصحيحة، يقول الله تعالى: **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا** (الإسراء: ٥٩).

ب. الابتلاء:

إنّ الظلامَ الحالك؛ سواءٌ في (البرّ أو في البحر) مخيفٌ للناس، والظلام جُنْدٌ من جُنْدِ الله تعالى، ويخافُه الناس ويرهبونَه، فإنْ وقع عليهم، جأروا لخالقِهم تضرُّعًا وخفية؛ لأنّه القادر على أن يُزيل هذا الخطرَ الجسيم، وهذا تخويف للناس ليعودوا عن غيّهم وضَلالِهم. قال الله تعالى: **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**

أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (الأنعام : ٦٣–٦٥) .

إنّ هذا الابتلاءَ إنما تنبيهٌ للغافلين قبلَ وُقوعهم في الهلاكِ المُدمِّر، يقول تعالى : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (الأنعام : ١٣١) .

ومِن الابتلاء والفتنة وقوعُ الزلازلِ والرجْفة، وهذا ما حصل مع موسى عليه السلام وقومِه، وموسى عليه السلام يُدرك أنّ مآل فِعْل السفهاء هو الهلاك، فتضرّع لربِّه راجيًا رحمَته، قال تعالى : وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (الأعراف : ١٥٥) .

إنّ الفتنة لا تُصيب الظالمينَ دون غيرِهم؛ بل إنّ البلاءَ يعمُّ الجميعَ؛ لأنّ العقلاءَ لم يعملوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – كما أسْلَفنا –، قال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الأنفال : ٢٥) . وقد حُرم اليهودُ من نِعَمِ الله تعالى باحتيالهم على أوامره، فأصابهم الابتلاءُ بفِسقِهم، قال تعالى : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي

كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (الأعراف : ١٦٣) .

ج . الإنذارُ والتهديد :

إنّ لم يَعُدْ الناسُ عن غَيِّهم رغم الابتلاء، جاءهم الإنذارُ والتهديد؛ فالتهديد بالخسْف وغيره من ألوانِ العذاب هو أقلُّ شأنا ممّا يليه من العذاب المنتظَر فيما لو استمرَّ الناسُ على ما هُم عليه، فالخلودُ في نار جهنَّمَ أشدُّ وطأ من الإنذار والتهديد، يقول الله تعالى : أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (الملك : ١٦ – ٢١)، ويقول الله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (النحل : ٤٥) .

وتُعتبَر آثار الأقوام الغابرين درْسًا يجبُ الاعتبار به، فقد دمَّر اللهُ عليهم، يقول الله تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (محمَّد: ١٠).

كما أنّ الإعراضَ عن ذِكْر الله تعالى مؤدَّاه عَيشًا غير هنيٍّ في هذه الدُّنيا، يقول تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (طه: ١٢٤).

وقد هدَّد اللهُ قوم نوحٍ عليه السلام بالغرَق، فقال: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (هود: ٣٧).

وإنّ أَخْذَ الله للظالمين هو أخْذٌ شديد وأليم، وهذا تهديدٌ لهم، يقول الله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود: ١٠٢).

وضرب اللهُ الأمثالَ لأقوامٍ أُهلكوا بشتَّى ألوان العذاب كمَطر السَّوء، والتدمير، وغيره، قال الله تعالى:

- وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (الفرقان: ٤٠).

- فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (النمل : ٥١–٥٢) .
- وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (الإسراء : ١٦) .
- أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (غافر : ٢١–٢٢) .

ج . العذابُ الجزئيّ :

إنْ لم ينتبَّه الناسُ من غفلتهم بعدما سبقَ بيانُه، أتاهم عذابٌ غيرُ مُدمّر، فالفسادُ المؤذي للطبيعة ولمن فيها يُسبِّب عدمَ الراحة لِسكَّان الأرض ويُزعجُهم ويقضُّ مضجعَهم؛ فينتشر المرضُ، وتزداد الأوبئةُ المعدية وما شابهه، يقول الله تعالى : ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم : ٤١) . وقد يكون العذابُ بتقطيع الناس وتفريقهم في الأرض، يقول الله تعالى : وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ

أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الأعراف : ٦٨) .

كل ذلك أسماه اللهُ تعالى بالعذاب الأدنى، فقال : وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (السجدة : ٢١) .

(٤) تحقُّق الخطرِ والأخْذ بالعذاب :

هذه هي المرحلة الأخيرةُ للظالمين، محقٌ من الحياة الدنيا وتحوُّل نحو المجهول؛ حيث ينتظرهم عذابُ الخلود، يقول الله تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (العنكبوت : ٤٠) .

لذلك تعدَّدت ألوانُ العذاب :

- فمنهم مَن أُغرق : فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (يونس : ٧٣) .

- ومنهم مَن خُسِفَ بهم: أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (سبأ : ٩) .
- ومنهم مَن أُخِذ بالجوع: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (الأعراف : ١٣٠) .
- ومنهم مَن قُصِمَ : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (الأنبياء : ١١-١٣) .
- ومنهم مَن أُهلِكَ بالطاغية : كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (الحاقة : ٤-٥) .
- ومنهم مَن أُهلِكَ بريحٍ عاتية : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (الحاقّة : ٦-٧) .
- ومنهم مَن أُهلِكَ بريحٍ عقيم : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (الذاريات : ٤١-٤٢) .

- ومنهم مَن أُهلِك بالحجارة المسوَّمة: **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ** (الذاريات: ٣١-٣٤).
- ومنهم مَن أُهلِك بالصاعقة أو الصيحة: **وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ* فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ** (الذاريات: ٤٣-٤٤)، وقوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ** (القمر: ٣١).
- ومنهم مَن أُهلِك بالطُّوفان والجراد وغيره: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ** (الأعراف: ١٣٣).

إنّ إدارة المخاطر هي جزءٌ مهمٌّ من الإدارة الاستراتيجية وقراراتها لا يُمكِن إغفالها أو إهمالها؛ فإذا ما كانت إدارة مخاطر الأعمال ضرورةً، فمِن الأشدِّ ضَرراً التغافلُ عن إدارة مخاطر الحياة والوقوع في خطرِ تدميرٍ يُنهي هذه الحياةَ، ثمَّ يتلوها خلودٌ في نارٍ حامية.

لقد تبيَّن لنا ممَّا سبقَ:

- أنّ اللهَ قد علّمَ الناسَ أُسسَ إدارةِ المخاطر – صغيرها وكبيرها –، وذكرَ الأدوات العِلمية للتحكُّم بها، وللتحوُّط منها.
- أنّ الظنُّ بجميع درجاته بما فيها الشك مفيدٌ في البحث العلميّ؛ بل هو أهمُّ أداةٍ من أدوات تحقيقه للوصول للحقائق العلمية التي تُقارِبُ اليقينَ.
- أنّ الظنَّ بمعنى الشك وبما يَقربُ منه لا يصلح للإيمان بالله العظيم؛ بل لا بدَّ من اليقين بدرجاته للوصول إلى ذلك، ففي هذه الحالة لا يُغني الظنُّ من الحق شيئًا. يقول الله تعالى في سورة يونس: **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** (يونس: ٣٦).

وقد أرسى الله تعالى هذه القاعدة بعد محاكاة عقلية فريدة؛ دلّل فيها عز وجلّ على أنه سبحانه وتعالى هو الحق وليس بعد الحق إلا الضلال، فقال عزّ من قائل: **فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** (يونس: ٣٢–٣٣). وكانت المحاكاة بطرح أمرين هاميّن:

أولاً: بطرح إشكالية علمية تجريبية قابلة للتحقق لمن شاء أن يتحقق من صحتها؛ تتضمن تساؤلاً عمن يبدؤ الخلق من عَدَمٍ ثم يُعيده، هل

من فاعلٍ غير الله تعالى؟ ويجيب الله عن ذلك؛ بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق والقادر على أن يبدأ الخلق ثم يُعيده، فأين تُصرفون أيها المكذبون المشككون؟ قال تعالى: **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** (يونس: ٣٤).

ثانيًا: بطرح إشكالية علمية عقلية، يُمكن للعقل السليم استنباط نتيجتها بالمحاكاة والتفكير والتدبر؛ فقال عزّ وجلّ: هل من شركائكم من يهدي للحق؟ ويجيب الله عن ذلك؛ بأن الله يهدي إلى الحق؛ وعليه فمن هو الأحق بالاتباع؟ قال تعالى: **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** (يونس: ٣٥).

وبذلك أحاطت الآيتان بمناهج التفكير المنطقي تجريبًا واستنباطًا.

الفصل السادس
التخطيط والتقدير

تبدأ وظائف الإدارة من التخطيط بينما تبدأ القيادة من الرؤية، وترتكز مهمة التخطيط على تحقيق الهدف الذي يُجسد رؤية القيادة.

يعكف المختصون في التخطيط الإداري والاستراتيجي على وضع الخطط المُحكَمة لإنجاح أعمالهم التي يديرونها، تلك الأعمال التي تتراوح بين المتناهية الصغر والعملاقة، ومنها ما هو على مستوى الدول والأمم. وكثيراً ما يشوب تلك الخطط، الهنات والهفوات والأخطاء، لذلك يعمدون لجعلها مرنة، تحتمل عدة سيناريوهات، لتكون شاملة لتجاوز ما قد يشوبها، ولصعوبة ذلك، ورغم حجم المعلومات المتاحة والأدوات التنبؤية المتطورة المدعومة بالذكاء الصنعي والبرمجيات المتينة، فإن المخططين يحاولون جعل مدى خططهم بحدود الخمس سنوات على أبعد تقدير، بعدما تبين لهم ضعف الخطط التي مداها سبع سنوات وعشر وأكثر.

المبحث الأول: التخطيط والتقدير الكوني

أورد القرآن الكريم خطط يوسف عليه السلام السبعية في قوله تعالى: **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (يوسف: ٤٧–٤٨). وقد كانت خططًا فعّالة ومفيدة، أدت لحفظ حياة الناس، بفضل حكمة يوسف عليه السلام بعدما علّمه الله تعالى أصول التأويل: **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** (يوسف: ٦).

فكيف هو حال التخطيط لآجال لا يعلمها إلا خالقها، دون أي خلل ينتابها، يُقدَّر فيها كل شيء بلا استثناء تقديرًا مُحكمًا، وتشمل عبارة (كل شيء): الكون المحسوس وغير المحسوس: **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (النحل: ٨)، فالكون منه ما اطّلع البشر على بعضه ومنه ما لا يبصرونه: **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** (الحاقة: ٣٨–٣٩).

قال تعالى مُعلّمًا عباده التخطيط وموجههم إليه وكيف يكون ناجحًا: **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٢– ٣).

فتضمنت الآيات الكريمة أموراً إدارية هامة، أهمها: **تحديد الرؤية**؛ حيث يجب على الإنسان أن يحدد رؤية لحياته، فإن أراد لنفسه مخرجًا من كل ضيق يخشاه أو يتجنبه، وإن أراد رزقًا من حيث لا يدري ولا يحتسب، فيجب عليه:

ا. التخطيط لشؤونه، بالتوكل على الله، لأن أمر الله حاصل ونافذ، فقد جعل الله لكل شيء قدراً أي مقداراً محسوبًا لا خلل فيه، **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٢– ٣). ويستوجب التوكل بذل العزم بالعمل، لقوله تعالى: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** (آل عمران: ١٥٩)، لذلك يسبق العمل التوكل وإلا صار تواكلاً.

ب. وضع الخطة، وهذا واضح من جعل قَدْرٍ لكل شيء، فوجود الموازنة يهدف لرسم ما سيكون عليه التنفيذ: **كُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** (الرعد: ٨). وقال: **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** (الطلاق: ٣). وهذا ليس بسبب نقص العرض أو الموارد، فالله العزيز؛ خالقٌ يخلق من العدم وليس لديه مشكلة اقتصادية كحال الإنسان المخلوق: **كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (آل عمران: ٤٧).

والأمثلة بأن (لكل شيء مقداراً) مقدور له، عديدة في كتاب الله، منها:

١ . أن حركة الشمس التي لها وظائف عديدة منها الضياء من ذاتها، وحركة القمر الذي له وظائف عديدة منها إنارة الليالي في الكون، قد جعل الله لكل منهما منازل مقدرة بإحكام ليس فيها خلل إطلاقًا، حيث يُستفاد من حركتهما:

– تعلّم السنين ومعرفة قدرها، ويُعدُّ الزمن مخلوقًا من مخلوقات الدنيا وهو لازم لها، ومع موت الإنسان يتوقف زمنه، ولن يكون بحاجة له.

– تعلّم الحساب الذي لا يُستغنى عنه لأي علم من علوم الإنسان، وهو أساس العلوم.

– إن هذه الآيات مُفصلةٌ لقوم يعلمون، وهي بمثابة بعض أدوات العلم المُكلّف به الإنسان: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (يونس: ٥). وإن منافع هذين الكوكبين عديدة وكثيرة، منها ما عَلِمها الإنسان، ومنها ما زال يجهله.

٢ . سلاسل القيمة الخاصة بدورة الماء في الكون، فالماء هو أساس خلق كل شيء حيّ: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** (الأنبياء: ٣٠)، فعندما ينزل الماء من السماء يقع على الجبال وسفوحها وعلى الأراضي وفي البحار،

ويستقر في وديان الأرض وأخاديدها لانخفاضها، وكأنها مستودعها، فتأخذ منها حسب سعتها، وما زاد عنها يكون غير ذي نفع، سماه الله تعالى بالزَبد، وشبهه بصناعة الحلي والمتاع والنحاس والحديد وغيرها، فبعد صهر تلك الأشياء بالنار يبقى النافع منها، وما زاد يكون زَبدٌ لا نفع فيه، بل يجب إزالته. وخلاصة التشبيهين أن ما ينفع الناس باقٍ في الأرض، وأن الضار زائل، وهذه خلاصة سنة تدافع الحق والباطل على مرّ الحياة الدنيا، فبِها تُحفظ الأرض من أي فساد أو تلوث مُسيء، وبها يُحفظ ما عليها من مخلوقات، وذلك ببقاء الأصلح والأفضل. ولعل الفتن والبلاءات التي تصيب البشر هي أشبه بالنار التي صهرت المعادن فميّزت النافع من الضارّ، وكذلك يكون الناس منهم الصالح ومنهم دون ذلك. قال المولى عزّ جلّ: **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** (الرعد : ١٧).

وتستمر سلسلة القيمة الخاصة بدورة الماء في الكون؛ بأنه تعالى يُسكن الماء في باطن الأرض وفوقها لتكون مخازن بقَدْرٍ يُقدِّره بذاته العلية، وهو قادر أيضًا على أن يُذهبه وهذا لا يكون لغيره: **وَأَنزَلْنَا مِنَ**

السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (المؤمنون: ١٨). ومخازن الماء كلها عند المالك المقتدر، وكذلك مخازن غير الماء، يَنزل منها حسب ما يشاء الله بقدرٍ يعلمه علمًا يقينيًا، وهذا إشارة لشدة صنعه واتقانه وتقديره: **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** (الحجر: ٢١).

٣. وبأخذ قصة إغراق قوم نوح عليه السلام بعين الاعتبار، نجد إعجازًا يصعب فهمه على البشر، حيث أمر الله السماء بفتح أبوابها بماء منهمر، وفَجَّر الأرض ينابيعًا، فالتقى ماء السماء وماء الينابيع بقدرٍ قدَّره الله تعالى تقديرًا مُحكمًا، فغرق أهل الأرض ممن حلّت عليهم عقوبة الله تعالى، ونجا من ركب مع نوح عليه السلام بالسفينة: **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** (القمر: ١١-١٢)، ولشدة الماء، فقد صوّرته الآية الكريمة بأنه: كالجبال، **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** (هود: ٤٢)، ومن يركب البحار في شدتها يعلم ذلك ويُعايشه.

المبحث الثاني: مراحل التخطيط الكوني

إن مراحل التخطيط الكوني التي نتصورها مرت بالمراحل التالية:

١. الخَلق: خلق الله تعالى كل شيء: **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** (الزمر: ٦٢).

٢. التسخير: سخّر الله للإنسان كل ما تم خلقه: **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** (لقمان: ٢٠).

٣. التمكين: مكّن الله الإنسان بما سخّره له رغم ضعف الإنسان أمام غيره من تلك المخلوقات المسخرة لأمره وطوّعها له: **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** (الأعراف: ١٠).

٤. التكليف: تم تكليف الإنسان بحمل الأمانة في هذه الدنيا، وأُعطي حرية الاختيار في الطاعة والمعصية كما يشاء ما دام في الحياة الدنيا: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (البقرة: ٢٥٦)، وشهد الناس جميعهم بربوبية الله تعالى، فقال

المولى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (الأعراف : ١٧٢) .

ثم أخذ من الإنسان ممثلاً بالأنبياء التي تمثل أقوامها ميثاقًا غليظًا : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (آل عمران : ٨١)، وأقرّ الأنبياء عليهم صلوات الله بذلك، بوصفهم يمثلون أممهم، فقال لهم الله : ليشهدْ بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم .

٥ . الحساب : بعد تمكين الإنسان وتسخير كل شيء له، ثم تكليفه ومنحه حرية الاختيار، سيخضع للحساب والمساءلة، وهذا ما يُسمى بمحاسبة المسؤولية، بعدما تم تفويضه ومنحه السلطات الكاملة : وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (لقمان : ٣٢) .

فقد بسط الله الرزق بأنواعه لعباده، بعد أن قدّر حاجاتهم تقديراً مُحكماً: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: ٦٢). ورغم أن الله تعالى قادر على إيجاد أي شيء؛ بأمر (كُن فَيَكُونُ)، ولا يُعجزه شيء، أخبرنا سبحانه وتعالى عن خلقه للأرض وتثبيتها بالجبال من فوقها، وجعل فيها البَركة لتحقيق النفع للناس، فتُنبت كما أراد لها، وتتكاثر الدواب عليها كما أراد لها: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠).

والسؤال الذي يتبادر للذهن؛ إذا كان الله يخلق من العدم، ولا يُعجزه شيء، فلماذا استغرق تقدير أقوات السائلين المحتاجين من المخلوقات أربعة أيام، بتقدير كان بالتسوية؛ أي حسب الحاجات التي يحتاجها كل سائل؟

لابد أن ذلك هو لتعليم البشر حكمة التخطيط والتقدير ليأتي التنفيذ بقدر صائب. وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى هو خالق العرض والطلب، فالعرض منشؤه الموارد المادية التي خلقها وسخرها للإنسان، والطلب منشؤه حاجات البشر وحاجات من دونهم كالدواب مثلاً التي هي أيضًا تلبي حاجات البشر. والاقتصاد لا يقوم إلا بموارد مادية وأخرى بشرية، وبالتقاء العرض والطلب تتحدد القيم وتتشكل الأسعار، ويقوم

التبادل بين الناس، وتدور عجلة الاقتصاد، وبه تقوم الأسواق وبه تقوم حياة الناس وأعمالهم: ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥).

ذكر ابن كثير في تفسيره: قال مجاهد وعكرمة في قوله: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾) أي جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، وقال ابن زيد: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾) أي على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدَّر له، ما هو محتاج إليه.

وذكر القرطبي في تفسيره: قال عكرمة والضحاك معنى (﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾)، أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢).

كما قدّر الله تعالى مواقع المدن والبلدات والقرى التي يسكنها البشر، وقدّر السير والمسير بينها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبإ: ١٨).

وجاء في التفسير الميسر: جعلنا بين أهل سبأ وهم باليمن والقرى التي باركنا فيها وهي الشام مُدنًا متصلة يُرى بعضها من بعض، وجعلنا السير

فيها سيراً مُقدَّراً من منزل إلى منزل لا مشقة فيه، وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أيِّ وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدواً، ولا جوعًا ولا عطشًا.

وجعل الأرض مستوية ليتخذ البشر فيها طرقًا يسيرون فيها: **لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** (نوح: ٦)، وجعل في الجبال فتحات يتخذونها طرقًا يسيرون فيها، وتُسهل تنقلاتهم بين المدن والقرى لتحقيق مصالحهم: **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** (الأنبياء: ٣١).

إذًا كل شيء في هذا الكون مُخطط له بدقة، ولا شيء عشوائي البتة، وجميع ما فيه يُحقق مراد الله تعالى في توحيده، سواء أكان مُخيّرًا كالإنسان، أم غير مُخيّر من غيره من باقي المخلوقات، فمن سار على النهج الصحيح ممن تُرك له الخيار؛ جازاه الله بجنة عرضها كعرض السموات والأرض، ومن انحرف منهم؛ جازاه الله بنار يخلد فيها مُهانًا، وقد أنذر الله الناس وأقام عليهم الحجج قبل تلك الخاتمة الأبدية، بعد أن علّمهم وربّاهم، وليس للمخالف حجة يحتج بها سوى تقصيره.

المبحث الثالث: التحليل الاستراتيجي لخطة الرشد - صلح الحديبية أنموذجا

(لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)

عَرف الفكر الاستراتيجي الحديث أبعاداً مختلفة، على المستوى الفردي والمؤسسي والدولي، وسعت الدول لتبني رؤى تتناسب وذلك الفكر، واختارت سبلاً متعددة للوصول لتحقيق أهدافها. ولا يخرج عن ذلك تنظير جمهورية أفلاطون أو المدينة الفاضلة لأرسطو، أو قيام حضارات كحضارة ما بين النهرين والكنعانية والفرعونية، أو قيام اتحادات دولية؛ كالاتحاد السوفيتي والولايات الأمريكية، والأمثلة شاهدة، وقد شاب كل استراتيجية أخطاء خلال قيامها أو خلال مسيرتها.

تلك الحضارات ظهرت نتيجة جهود مجموعات من البشر بغية تطوير ظروف حياتهم، منها ما كانت جهوداً مقصودة ومنها لم يكن كذلك، ارتبط أثرها بالتاريخ البشري وشكل مخزونًا معرفيًا ساهم في قيام حضارات أخرى اندثر أغلبها، وذلك بسبب سمة الصراع الدامي على تلك الحركة التاريخية، وقد انفرد ابن خلدون في بيان تلك الحركة مقدمًا نموذجه في نشوئها وموتها.

لكن أن يأتي رجل عاش في صحراء ما عرفت إلا التجارة؛ ليقيم أمةً امتدت أطول فترة عرفها التاريخ ما زالت قائمة وتتوسع، ما خالطتها أمة أو قومية أو حضارة إلا امتزجت بها وتأثرت بمعارفها؛ فهذا حدث فريد في الدنيا، تجاوز مفهوم الاستراتيجيات السائد، بقوة ناعمة أساسها بناء الإنسان الصحيح، وتحقيق العدل بين بني البشر جميعهم.

يعتبر حدث صلح الحديبية بوابة انطلاق أمة الإسلام إلى الكون كله، فبعدما أسس صلى الله عليه وسلم الإنسان المسلم وبنى المجتمع الإسلامي، أرسى فيه كل ما يلزمه من أبعاد بقائه وخلوده في هذه الدنيا، ثم جاء صلح الحديبية؛ الذي سماه عروة بن مسعود (بخطة رشد)، وعروة هو زعيم ثقيف وأحد وجوه العرب، وله الكثير من المآثر والأخبار، وهو عظيم القريتين، وهو سياسي محنك قد جالس ملوك الأرض في حينه ككسرى وقيصر والنجاشي، وكان المفاوض المتمرس عن قريش، لم يترك أسلوبًا من أساليب التفاوض والحنكة والذكاء إلا واستخدمه، لكن رسول البشرية صلى الله عليه وسلم كان أكثر حنكة منه ومن جميع المفاوضين الآخرين الذين أرسلتهم قريش للسيطرة على ذلك الحدث.

سنستعرض هذا الحدث الفيصل في حياة أمة الإسلام؛ بوصفه خطة استراتيجية، نُتبعها بتحليل استراتيجي؛ لنتعرف بعض جوانبه؛ فهو مثال يحتذى لا يجب أن يغيب عن أذهان المخططين والمفاوضين.

الغاية: تعظيم حرمات الله، وهذا هو الغرض الذي لأجله أقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقد صلح الحديبية، وقد غاب هذا القصد عن أغلب المسلمين المشاركين في تلك الرحلة ومنهم عمر رضي الله عنه. كما غابت هذه الغاية عن كل النماذج التاريخية التي عرفتها الدنيا، وفيها يكمن سرّ ديمومة أمة الإسلام في حالات ضعفها وقوتها وسيبقى ذلك حتى قيام الساعة.

الهدف الأساسي (الاستراتيجي): فتح مكة واستئصال عبادة غير الله تعالى.

الهدف المرحلي (التكتيكي): عقد إتفاق يتضمن اعترافًا بالمسلمين ككيان سياسي واجتماعي قائم.

مهندس الخطة وواضعها: محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سميت خطته (خطة رشد)؛ أي خطة هدى واستقامة. والخطة لغة هي: المنهج، والطريقة، والأُسلوب، أما الخطة إداريًا فهي: تحديد مسبق لمجموعة أعمال مرغوب بتنفيذها، تحقق بالنتيجة أهدافًا منشودة، وتكون الخطة

مرنة إذا أريد منها استيعاب المتغيرات الطارئة، ويُعبر عنها بشكل كمي، بغية إحكام الرقابة على تنفيذ الخطة. أما الرشيد حسب تفسير البغوي؛ في قوله تعالى: أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ؛ أي رجل صالح سديد، قال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله، وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

أحداث ومتغيرات حصلت خلال الرحلة كادت أن تشوش إنجاز الخطة

يجب على كل مخطط أن يضع في حسبانه توقع أحداث طارئة قد تكون غير محسوبة، وعليه أن يعالجها بحكمة وهدوء بما لا يغير بوصلة الحدث واتجاهه، فإن استوعبت الخطة بمرونتها الأحداث الطارئة؛ فإن شخصية القائد وحنكته كفيلة بمعالجة ما كان غير محسوبًا من الأحداث. ومن ذلك مثلاً:

- مرور خيل لقريش بقيادة خالد بن الوليد، ولما تنبه خالد بنحرك المسلمين أرسل نذيراً لقريش؛ ليستعدوا للقاء المسلمين الذين بدا عليهم سمة القتال، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيّف ذلك واستغله، بأن استقر بمن معه في مكان قبل مكة؛ فمكة هدف استراتيجي لا يجب بيانه ابتداءً. وهذا تحويل التهديد إلى فرص.

- توقف راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسير، وقول بعض المسلمين: (خلأت القصواء) أي تقهقرت – كحران الفرس –؛ فأجابهم صلى الله عليه وسلم معللاً ما حصل، رافعًا عن المسلمين ما يُضعف همتهم، وهنا تدخل القائد للحد من ضعف بعض أصحابه بحنكة.
- قلة ماء الشرب، وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بمعجزة منه، وهذا تدخل القائد للحد من تهديد حاصل وهو نقص الماء منعًا للوقوع في عجز لا يمكن المتابعة معه.
- مجيء قوم من خزاعة وإخبارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأن هناك من سيقاتله ويمنعه من وصول مكة وبيتها المحرم؛ وذلك تفزيعًا وَثَنيًا لعزم المسلمين عما يريدونه ظنًا أنهم جاؤوا للقتال؛ فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لم يَقدم لقتال بل جاء معتمرًا وزائرًا لبيت الله. وهذا تدخل من القائد لاستيعاب ثغرة حصلت عندما أنذر جيش خالد بن الوليد قريشًا بخروج المسلمين نحو مكة، وبذلك حول القائد التهديد إلى فرصة، فهو وأصحابه جاؤوا معتمرين ودليلهم؛ ما معهم من هديٍ.

ولم يترك قول قوم خزاعة يهددونهم؛ بل زادهم بقوله بأن عدوه؛

أي قريشًا قد أنهكتها الحرب وأضرت بها، وبذلك استخدم القائد معلومات سرية يملكها؛ كقوة داخلية ليرهب به عدوه، فكانت خياراته صلى الله عليه وسلم كالآتي: إما أن تخلي قريش سبيله ليعتمر (تحقيق الهدف المرحلي الأول) أو أن يؤجلوا ذلك (تحقيق الهدف المرحلي الثاني) وبذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرونة للطرف الآخر بالتخلي عن هدف مرحلي، مُخفيًا هدفه الإستراتيجي بعيداً عن مخيلتهم، ثم زاد خيار الحرب؛ ليضيف للحوار قوة عسكرية، فالمنطق وحده لا يفيد مع العدو، ولابد من بيان القوة حيث يجب أن تكون؛ فجمع بين الملاطفة والحزم؛ بعدما أعلم القوم المحاورين بأهمية ما يملكه من معلومات عن عدوه.

أحداث ومتغيرات حصلت خلال الحوار كادت أن تنقض الاتفاق، بل وتشعل حربًا

- انتقل المفاوض الوسيط إلى الطرف الآخر وهم قريش، وخيّرهم بأن لديه ما يقوله؛ فإن شاؤوا قال، وإن شاؤوا سكت عن القول، وهذه مهارة حوارية في الوسيط ليثبت قدراته وليشوق الطرف الآخر بعدما أحس بقدرات الطرف الأول وعزيمته، فبادره سفهاء قريش

بالخيار الثاني وهذه حال الحمقى في كل زمان ومكان، لكن حكماء الرأي فيهم طلبوا الخيار الأول.

- قدم المفاوض نفسه مبتدأ الكلام عن نفسه ليُعرف بمكانته، ثم بصلة القربى المعنوية بينه وبين قريش، ثم أخبرهم بعرض خطة رشد يحملها لهم من الطرف الآخر؛ أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقبلوا وساطته.
- عاد المفاوض الوسيط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناشده بالحمية مذكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم بقومه وبشيم العرب، كما هدده بشكل مبطن بأنه إن اختار الاجتياح فإن فراسته – أي الوسيط – تُنبؤه بانشقاق أصحابه عنه وفرارهم منه، وبذلك فإن المفاوض الوسيط لمّح لغرضه مستخدماً الملاطفة والحزم أيضاً.
- فإذ بجواب فظ من أقرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاجئ المفاوض المحاور بعدما تعرّض لنقطة ضعف (حسبما يرتأيه) قد تصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من أن أبي بكر رضي الله عنه معروف بالوداعة والسماحة والهدوء، لكنه أثبت أنه أسدٌ في المواقف التي يجب أن يكون فيها كذلك؛ فبينّ للوسيط أنهم أصحابٌ لا يتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا يدعونه، ولما طلب الوسيط معرفة المتكلم عرفه وعرف قدره، وهذا ذكاء يُشهد للوسيط بعدم تسرعه في الرد ونقض الاتفاق، فذكّر أبا بكر رضي الله عنه بأنه رضي الله عنه صاحب يدٍ بيضاء عليه، لذلك لم يجبه، وهذا موقف أضفى على المفاوضات بُعداً متوازناً، حيث عاد الوسيط خطوة إلى الوراء.

- إلا أن الوسيط عاد للتأثير على المفاوضات بطريقة فظة بالاعتداء على رأس القوم بدل أصحابه مُصعّداً آلياته التفاوضية، فقام بما لا يليق بالوسيط القيام به، فمد يده على لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريفة، فما كان من أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أهوى يده بنعل السيف، وخاطبه بفظاظة ليُبعد يده عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاستخدم الوسيط دهاءه ثانية، وطلب معرفة الفاعل، فعرفه، وسرعان ما ذكّره بما كان عليه في الجاهلية من الغدر محاولاً الطعن فيه وللتقليل من شأنه، فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغليب الحكمة؛ بقوله: إنه قبل منه إسلامه، وليس له في ماله شيء؛ فذلك فعل فعله في الجاهلية.

- ثم بعد محاولة المحاور اختراق العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومحاولة هز كيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل يرمق تصرف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتفحص وجوههم لعله يفهم ما يدور حوله، فهو حذق تلقى السباب والشتم وسكت عنه، وحاول مد يده فكِيل له بالحزم والشدة؛ فقد رأى ما لم يعتد رؤيته، وهو السياسي المخضرم الذي جال البلاد العظيمة وقابل زعمائها الأشداء الذين تدين لهم الأرض وتهابهم. وها هو يصف المنظر الذي أخذ منه كل مأخذ بنفسه:

إن القائد الذي يحاوره، قائد يحبه أتباعه ويتفانون في حبه ويلتصقون به فيقتتلون على خدمته ويأخذون ما يبدر منه بلهفة شديدة، لكنهم يحافظون على أدبهم معه؛ فلا يرفعون صوتهم عنده، ولا يُحدّون نظرهم إليه.

بينما القادة الذين عرفهم في جولاته؛ يحرسهم حرّاسٌ غلاظ، يسدون أبوابهم أمام الناس، ويقبعون في حصون تمنعهم، ويفرضون الاحترام بقدر ما يزرعون الخوف في أتباعهم.

- ثم انتقل الوسيط للطرف الآخر ليروي شهادته، وليصف عجبه بما رآه وشاهده، وبذلك أثّر بقريش دون أن يدري، بعدما عجز عن

التأثير بالطرف الآخر، ثم عرض عليهم خطة عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها عروة بن مسعود **بخطة رشد**؛ فكأن قريشًا تجَهزت نفسيًا لقبول الخطة، خاصة عندما أشار الوسيط المفاوض عليهم أن يقبلوها، ثم طلب التفويض بإتمام الصلح، فأذنوا له.

مرحلة كتابة الصلح

وهي الجزء الصعب من عملية التفاوض:

- عاد الوسيط المفاوض لبدء التفاوض الذي أُذن له به، فلما قَدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعلام أصحابه بفراسته وعلمه بالأشخاص ومقاماتهم، بأن هذا؛ أي الوسيط هو فلان، وهذه سِمة ذكية بأن يعرف القائد محاوره قبل أن يُعرِّف الآخر بنفسه مما يزرع فيه عزةً تجعله يحترم مفاوضه ويُجلّه، وزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قال لأصحابه: هو من قوم يعظمون البُدن أي الأضاحي السمينة المكتنزة، فقال: ابعثوها له، وكان المسلمون قد قدموا للعمرة وجاؤوا معهم بأضاحيهم ليتقربوا بها إلى الله عند البيت الحرام. أما المسلمون فاستقبلوا الوسيط المفاوض بالتلبية، فوقع ذلك في قلب

الوسيط مما جعل قلبه يلين، حتى قال: لا ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، فعاد إلى قريش ناصحًا إياهم بألا يمنعوهم.

- سرعان ما تقدم للمفاوضة وسيط آخر ليتسلم زمام التفاوض، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه وأخبر أصحابه بأنه رجل فاجر، وبينما كان يكلمه، وصل محاور آخر اسمه سهيل، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستشبر خيرًا من اسمه؛ قائلاً لأصحابه: لقد سُهل لكم من أمركم.
- ابتدر سهيلاً طالبًا البدء بكتابة شروط التفاوض بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش.
- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدء الاتفاق بالبسلمة، فاعترض الوسيط المفاوض وطلب تعديلها بما يعتقده الفريقان المتفاوضان معًا حتى لا يكون غلبة لطرف على آخر، وهذه حنكة، لكن المسلمين كرهوا ذلك، إلا أن حنكة رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسية كانت بعيدة المدى، فقبل ما طرحه الوسيط، طالما أنه لا يخالف شرع الله تعالى.
- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُكتب: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله)؛ فاعترض الوسيط بذكائه وحنكته طالبًا

كتابة اسم (محمد بن عبد الله) بدل ذلك، معللاً قوله بأن ذلك يتماشى وما يعتقده. تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم موضحًا أنه رسول الله ولو كذّبت قريش ذلك، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرح الوسيط لأنه فعلاً محمد بن عبد الله، كيلا يعرقل الاتفاق أية إشكاليات يمكن تجاوزها، فالأمر جلل والغاية عظيمة ولا ينبغي تعطيل هدف استراتيجي بإنجاز مرحلي تكتيكي.

- صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدف الاستراتيجي لخطته وهو: **تعظيم حرمات الله تعالى. ثم حدد أهم بنود الاتفاق**؛ بالتخلية بين المسلمين وبين البيت ليطوّفوا به. لكن المفاوض الوسيط أجّل ذلك لعام قادم حتى لا يُقال أن قريشًا مورس عليها ضغط فقُهرت، ثم أضاف شرطًا رأى المسلمون فيه نقيصة، بأن يمنع على المسلمين استقبال أحد من قريش إلى صفهم خلال تلك الفترة، وكأن الوسيط يسجل نقاطًا يعدها مكاسب، وهي في حقيقة الأمر مكاسب تكتيكية محدودة قصيرة المدى.
- في هذه الأثناء، دخل على المسلمين رجل مقيد هارب من مكة، فسارع الوسيط بالتهديد بوقف الاتفاق إن لم يتم إعادة هذا الرجل

لقريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكننا لم نوقع الاتفاق بعد، فأصرّ المفاوض الوسيط على رفض طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبول الرجل، على الرغم من تذكير الرجل الهارب المسلمين بما لاقاه من تعذيب من قريش، لكن الاتفاق الذي يخفي هدفًا استراتيجيًا لابد له من تجاوز إشكاليات نقضه. وبذلك سجل الوسيط مزيداً من النقاط.

- اعترض عمر رضي الله عنه وخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بأنه نبي الله ولن يعصي الله تعالى، وكأنه يقول له أن الاتفاق يرعاه الله تعالى، لكن الغضب غيّب هذه الحقيقة عن عمر رضي الله عنه وعن غيره من المسلمين، فأخذ الغضب من المسلمين مأخذه، حتى وصل بعمر رضي الله عنه أن خاطب أبا بكر رضي الله عنه بذلك؛ فأجابه: بمقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتها، وأضاف مخاطبًا عمر رضي الله عنه: أن يستمسك بغرزه وأن يقف عند حده.
- إن قول الله تعالى: **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (الفتح: ٢٦)؛ يقصد

بالحمية؛ الأنفة والغضب، وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت، ومنعوا الهدي محله، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا أن يكون محمداً رسول الله. وقيل: قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا رغماً منا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فكانت هذه (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) التي دخلت قلوبهم، (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)؛ حتى لا يَدخلهم ما دَخلهم في الحمية فيعصون الله في قتالهم[1]. وهذا الملمح الذي أشار له صلى الله عليه وسلم فهمه أبا بكر وغاب عن عمر رضي الله عنهم؛ فالأمر جلل بحق.

مرحلة ما بعد الاتفاق

وهي مرحلة ما بعد الانتهاء من كتابة الصلح حيث إقناع الأصحاب لتثمر الخطة وليعطوها ولاءهم:

- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن ينحروا ويحلقوا، فلم يفعلوا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على

[1] علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل تفسير الخازن، سورة الفتح الآيتان ٢٦ و٢٧، ج ٥، ص ٥٠٨.

أم المؤمنين أم سلمة، وأخبرها أمر المسلمين وخوفه من غضب الله تعالى إن عصوه، فكان لها الرأي الراجح في القضية، لتظهر أهمية المرأة في الإسلام، ودورها الحيوي ورأيها الصائب الراجح في أصعب اتفاق مصيري يتعلق بأمة الإسلام، فأشارت رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخرج إليهم، وأن يفعل ذلك مبتدئًا بنفسه فعلاً لا قولاً؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل ذلك، ففعل المسلمون فعله كسنة سلوكية؛ فاقتدوا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- نجم عن الاتفاق إشكاليات تم حلها بضوء اتفاق الصلح المبرم، من ذلك المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة، ومن ذلك زوجات المسلمين الباقيات على كفرهن بمكة. ومن ذلك أيضا لحاق أحد المسلمين من قريش بالمسلمين ورده، لكنه اشتبك مع كفار قريش وفر منهم، ثم لحق بالمسلمين فأعادوه تطبيقًا للاتفاق. فما كان من الفارين إلا أن شكلوا عصابة أقضت مضجع قريش باعتراض قوافلهم وأخذ أموالهم وقتلهم، فوصل الأمر بقريش لتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعالج أمرهم، فأمّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعادهم إليه.

لقد أثبتت الخطة مرونة استوعبت فيها كل المتغيرات التي حدثت خلال التنفيذ، وتم التعبير عنها كمياً، بسنة قادمة وهذا معيار كمي يُعمل به، وقد تم التنفيذ فعلاً كما هو مرسوم بالخطة وسارت الأمور على ما يرام.

لقد أضحى الحال على اتفاق بين فريقين ندّين، فريق إيمان وفريق كفر، نجم عنه اعتراف فريق الكفر بفريق الإيمان، مقرًّا بحقوقهم، وسمح فريق الكفر لفريق الإيمان بالعمرة وزيارة البيت العتيق بعد عام.

لقد كان هذا الاتفاق تمهيداً لدخول المسلمين مكة حاجّين فاتحين، ثم مؤسسين لدولة الإسلام، وطاردين الشرك من جزيرة العرب إلى يوم القيامة. وهذا ما غاب عن أئمة الكفر وعباقرتهم، لقد سارت خطة الرشد كما أراد واضعها ومهندسها، برعاية إلهية رحيمة الذي أنزل سكينته على رسوله والمؤمنين كما في الآية.

لقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: **إِنَّافَتَحۡنَالَكَفَتۡحًا مُّبِينًا**(الفتح: ١) بأن الفتح هو صلح الحديبية، وأنه مقدمة الفتح الكبير والنهائي، فكان تحقيق الرؤية في العام التالي لصلح الحديبية. وكان تحقيق الهدف الاستراتيجي لخطة الرشد بإقامة أمة الإسلام حتى قيام الساعة، أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمة لا تتوانى عن إقامة العدل فيما بينها ومع غيرها، كما حققت الخطة أهدافًا مرحلية عديدة.

التحليل الاستراتيجي لخطة الرشد

نقاط القوة:

- ثبات رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق، ويقينه بالله والتوكل عليه.
- حسن التدبير والعمل.
- قيادته الفاعلة بالحب والأثرة وتربية الناس على إحقاق العدل.
- ثبات من معه وولاءهم لله ولرسوله، وبراءتهم من الشرك والكفر وأهله.

نقاط الضعف:

- ضعف الإمكانيات المادية للمسلمين.
- وجودهم الجغرافي المقصور على المدينة المنورة.

التهديدات:

- انتشار الظلم وأكل الحقوق، وهذا ما يمهد لزوال الوجود البشري لزوال إنسانيته، فأكبر الظلم هو الكفر بالله وأنعمه والإشراك به، وهذا ما كان منتشراً في أصقاع الأرض كافة، ولما وقعت به أكثر الحضارات المندرسة؛ اندثرت أغلب معارفها وعلومها.

الفرص:

- توحيد الصف، لتعزيز منعة الأمة.
- تحقيق الغاية التي لا تنتهي وهي التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعظيم حرمات الله. داخل الجزيرة العربية، ومن ثم خارجها.

نص الحديث[1]

خَرَجَ[2] رَسولُ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ زَمَنَ الحُدَيْبيَة حتَّى إذَا كَانُوا بِبَعْض الطَّرِيق، قالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ خَالدَ بنَ الوَليد بالغَميم[3] في خَيْل لقُرَيْش طَليعَةٌ[4]، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمين فَوَاللَّه ما شَعَرَ بهمْ خَالدٌ حتَّى إذَا هُمْ بقَتَرَة[5] الجَيْش، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذيرًا لقُرَيْش.
وسَارَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ حتَّى إذَا كانَ بالثَّنيَّة الَّتي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ[6] فألَحَّتْ، فَقالوا: خَلَأَت[7] القَصْوَاءُ[8]، خَلَأَت القَصْوَاءُ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: ما خَلَأَت القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُق، ولَكنْ حَبَسَهَا حَابسُ الفيل، ثُمَّ قالَ: والذي نَفْسي بيَده، لا يَسْأَلُوني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيهَا حُرُمَاتِ اللَّه إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ.

---

[1] ذكر البخاري في صحيحه حديثًا رواه المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (رقم ٢٧٣١)؛ فيه أحداث صلح الحديبية، الذي عُقد قربَ مكة في منطقة الحديبية والتي تُسمى اليوم الشميسي، في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة بين المسلمين وبين مشركي قريش، وبمقتضاه عقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات، ثم نُقضت نتيجة اعتداء بني بكر على بني خزاعة.
[2] تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن فتوح الأندلسي الحميدي، ص ٢٢٤.
[3] اسم مكان.
[4] مقدمة الجيش.
[5] الغبار الساطع معه سواد.
[6] يقال حل حل زجرا للناقة.
[7] توقفت عن المشي وتقهقرت كحران الفرس.
[8] اسم ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصوا هي المشقوقة أذنها.

قالَ: فَعَدَلَ عنْهمْ حتَّى نَزَلَ بأَقْصَى الحُدَيْبيَة[1] علَى ثَمَد[2] قَليل المَاء، يَتَبَرَّضُهُ[3] النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حتَّى نَزَحُوهُ، وشُكِيَ إلَى رَسول اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا من كنَانَته، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فيه، فَوَاللَّه ما زَالَ يَجيشُ[4] لهمْ بالرِّيِّ حتَّى صَدَرُوا عنْه.

فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعيُّ في نَفَر من قَوْمه من خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ[5] نُصْح رَسول اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ من أهْل تهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعَامرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ ميَاه الحُدَيْبيَة، ومعهُمُ العُوذُ[6] المَطَافيلُ[7]، وهُمْ مُقَاتلُوكَ وصَادُوكَ عَن البَيْت، فَقالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَجئْ لقتَال أحَد، ولَكنَّا جئْنَا مُعْتَمرينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهكَتْهُمُ[8] الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بهمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْني وبيْنَ النَّاس، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا[9]، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذي نَفْسي بيَده لَأُقَاتلَنَّهُمْ علَى أمْري هذا حتَّى تَنْفَردَ سَالفَتي[10]، ولَيُنْفذَنَّ اللَّهُ أمْرَهُ.

فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ، قالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ: إنَّا قدْ جئْنَاكُمْ من هذا الرَّجُل وسَمعْنَاهُ يقولُ قَوْلًا، فإنْ شئْتُمْ أنْ نَعْرضَهُ علَيْكُم فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبرَنَا عنْه بشيء، وقالَ ذَوُو الرَّأي منهمْ: هَات ما سَمعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُود فَقالَ: أيْ قَوْم، ألَسْتُمْ بالوَالد؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَد؟ قالوا: بَلَى، قالَ:

---

1 اسم قرية سميت ببشر هناك.
2 الماء القليل.
3 جمع الماء بالكفين لقلته.
4 جاشت البئر بالماء إذا ارتفعت وفاضت.
5 موضع سره وثقته.
6 النوق الحديثات النتاج ذات اللبن.
7 النوق الأمهات التي معها أطفالها.
8 أضعفت قوتهم.
9 استراحوا من جهد القتال.
10 حتى تنفصل رقبتي عن بدني.

فَهلْ تَتَّهمُونِي؟ قالوا: لَا، قالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ[1]، فَلَمَّا بَلَّحُوا[2] عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَن أَطَاعَنِي؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ.

فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نَحْوًا مِن قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلكَ: أيْ مُحَمَّدُ أرَأَيْتَ إنِ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هلْ سَمِعْتَ بأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ[3] أهْلَهُ قَبْلَكَ، وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا[4] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فَقالَ له أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ[5]، أنَحْنُ نَفِرُّ عنْه ونَدَعُهُ؟ فَقالَ: مَن ذَا؟ قالوا: أبو بَكْرٍ، قالَ: أما والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لكَ عِندِي لَمْ أجْزِكَ بهَا لَأَجَبْتُكَ، قالَ: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَكُلَّما تَكَلَّمَ أخَذَ بلِحْيَتِهِ، والمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ علَى رَأْسِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، ومعهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَرُ، فَكُلَّما أهْوَى عُرْوَةُ بيَدِهِ إلى لِحْيَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السَّيْفِ، وقالَ له: أخِّرْ يَدَكَ عن لِحْيَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَن هذا؟ قالوا: المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَقالَ: أيْ غُدَرُ[6]، ألَسْتُ أسْعَى في غَدْرَتِكَ؟ وكانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا في الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ: أمَّا الإسْلَامَ فأقْبَلُ، وأمَّا المَالَ فَلَسْتُ منه في شيءٍ.

ثُمَّ إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ[7] أصْحَابَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بعَيْنَيْهِ، قالَ: فَوَاللَّهِ ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ مِنهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ

---

1 اسم سوق في الجاهلية.
2 امتنعوا عن إجابته.
3 أهلَكَ.
4 أخلاطًا من الناس.
5 شتيمة غليظة عند العرب واللات اسم صنم كانوا يعبدونه.
6 من فعاله كلها غدر.
7 يلحظ.

تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وضُوئه، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْه النَّظَرَ تَعْظيمًا له، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابه، فَقالَ: أيْ قَوْم، واللَّه لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوك، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللَّه إنْ رَأَيْتُ مَلكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مُحَمَّدًا، واللَّه إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُل منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وضُوئه، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْه النَّظَرَ تَعْظيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ علَيْكُم خُطَّةَ رُشْد فَاقْبَلُوهَا، فَقالَ رَجُلٌ من بَني كنَانَةَ: دَعُوني آتيه، فَقالوا: ائْته.

فَلَمَّا أشْرَفَ علَى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وأصْحَابه، قالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: هذا فُلَانٌ، وهو من قَوْم يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللَّه، ما يَنْبَغي لهَؤُلَاء أنْ يُصَدُّوا عَن البَيْت، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابه، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَن البَيْت.

فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له مِكْرَزُ بنُ حَفْص، فَقالَ: دَعُوني آتيه، فَقالوا: ائْته، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ.

فَبَيْنَما هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرو، قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَني أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرو، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ من أمْرِكُمْ.

قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَديثه: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرو فَقالَ: هَات اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كتَابًا فَدَعَا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ الكَاتبَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: بسْم اللَّه الرَّحْمَن الرَّحيم، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّه ما أدْري ما هو ولَكن اكْتُبْ باسْمكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلمُونَ: واللَّه لَا نَكْتُبُهَا إلَّا بسْم اللَّه الرَّحْمَن الرَّحيم، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: اكْتُبْ باسْمكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّه، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّه لو كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللَّه ما صَدَدْنَاكَ عَن البَيْت، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكن اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبد اللَّه، فَقالَ

النبيُ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: واللَّه إنِّي لَرَسولُ اللَّه، وإنْ كَذَّبْتُمُوني، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبد اللَّه – قالَ الزُهْرِيُ: وذلكَ لِقَوْلِه: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيهَا حُرُمَاتِ اللَّه إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا.

فَقالَ له النبيُ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: علَى أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْت، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّه لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[1]، ولَكِنْ ذلكَ منَ العَامِ المُقْبِل، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلَى أنَّه لا يَأْتيكَ منَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ علَى دِينكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّه، كيفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكينَ وقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبيْنَما هُمْ كَذَلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَل بنُ سُهَيْل بن عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُوده، وقدْ خَرَجَ من أسْفَل مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسه بيْنَ أظْهُر المُسْلمينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا يا مُحَمَّدُ أوَّلُ ما أُقَاضيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النبيُ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللَّه إذًا لَمْ أُصَالحْكَ علَى شيءٍ أبَدًا، قالَ النبيُ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: فأجِزْهُ لي، قالَ: ما أنَا بمُجيزه لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعل، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ[2] لَكَ، قالَ أبو جَنْدَل: أيْ مَعْشَرَ المُسْلمينَ، أُرَدُّ إلى المُشْركينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقيتُ؟ وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَديدًا في اللَّه.

قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب: فأتَيْتُ نَبيَّ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ فَقُلْتُ: ألَسْتَ نَبيَّ اللَّه حَقًّا، قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ، وعَدُوُّنَا علَى البَاطل، قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلمَ نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّه، ولَسْتُ أعْصيه، وهو نَاصري، قُلْتُ: أوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ فَنَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، فَأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتيه العَامَ، قالَ: قُلْتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يا أبَا بَكْرٍ أليسَ هذا نَبيَّ اللَّه حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطل؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلمَ نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننَا إذًا؟ قالَ: أيُها الرَّجُلُ إنَّه لَرَسولُ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ، وليسَ يَعْصي رَبَّهُ، وهو نَاصرُهُ، فَاسْتَمْسكْ بغَرْزِه، فَوَاللَّه إنَّه علَى الحَقِّ، قُلْتُ: ألَيسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا

[1] قهرا.
[2] في كف الأذى عنه فقط.

سَنَأْتي البَيْتَ ونَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، أفَأَخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتيه العَامَ؟ قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به. قالَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا[1].

قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ من قَضيَّة الكتَاب، قالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لأصْحَابه: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قالَ: فَوَاللَّه ما قَامَ منهمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلَاثَ مَرَّات، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منهمْ أحَدٌ دَخَلَ علَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقيَ منَ النَّاس، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبيَّ اللَّه، أتُحبُّ ذلكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالقَكَ فَيَحْلقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

ثُمَّ جَاءَهُ نسْوَةٌ مُؤْمنَاتٌ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ المُؤْمنَاتُ مُهَاجرَاتٍ فَامْتَحنُوهُنَّ [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ بعصَم الكَوَافر فَطَلَّقَ عُمَرُ يَومَئذ امْرَأَتَيْن، كَانَتَا له في الشِّرْك فَتَزَوَّجَ إحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أبي سُفْيَانَ، والأُخْرَى صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إلى المَدينَة، فَجَاءَهُ أبو بَصيرٍ رَجُلٌ من قُرَيْشٍ وهو مُسْلمٌ، فأرْسَلُوا في طَلَبه رَجُلَيْن، فَقالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْن، فَخَرَجَا به حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَة، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ من تَمْرٍ لهمْ، فَقالَ أبو بَصيرٍ لأحَد الرَّجُلَيْن: واللَّه إنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هذا يا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقالَ: أجَلْ، واللَّه إنَّه لَجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ به، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقالَ أبو بَصيرٍ: أرني أنْظُرْ إلَيْه، فأمْكَنَهُ منه، فَضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ[2]، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المَدينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجدَ يَعْدُو، فَقالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حينَ رَآهُ: لقَدْ رَأَى هذا ذُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قَالَ: قُتلَ واللَّه صَاحبي وإنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصيرٍ فَقالَ: يا نَبيَّ اللَّه، قدْ واللَّه أوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قدْ رَدَدْتَني إليهم، ثُمَّ أنْجَانيَ اللَّهُ منهمْ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ويْلُ أُمِّه مسْعَرَ حَرْبٍ، لو كَانَ

[1] أنواع من الحسنات كالصدقة والصوم والصلاة والعتق لتذهب عني سيء ما قلته يومئذ.
[2] مات.

له أحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إليهم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سيفَ البَحْرِ قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلَّا لَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمَعتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوَالَهُمْ.

فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ تُنَاشِدُهُ باللَّهِ والرَّحِمِ، لَمَّا أرْسَلَ[1]، فمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إلَيهم، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَهو الذي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عنْهمْ ببَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عليهم [الفتح: ٢٤] حتَّى بَلَغَ: الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ [الفتح: ٢٦] وكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّه نَبِيُّ اللَّهِ، ولَمْ يُقِرُّوا ببِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وحَالُوا بيْنَهُمْ وبيْنَ البَيْتِ.

[1] إلا أرسل.

الخاتمة

لم يطالبنا الله تعالى وهو الخالق، بالتكليف إلا بعد أن مكّن لنا في هذه الأرض، فخلق فيها الخلق من بشر وغيره، وجعل كل ذلك في خدمة البشر المكلفين، وهيأ لهم كل ما يحتاجونه، ليكون الحساب يوم الحساب دون أعذار. ومن جملة التمكين أن هيأ للبشر عقولا قادرة على الاستنباط والقياس وقادرة على المحاكاة ليكون لديها الأدوات اللازمة من منهج ومفاهيم وما إلى ذلك، كإدارة المعرفة وما يلزمها من مفاهيم، وأخلاقيات، وإدارة للتغيير، وسلوكيات وتربية يبنى عليها الاقتصاد وصولا إلى بناء هياكل تنظيمية تعينهم على القيادة مع الاستعانة بأدلة عمل وحوكمة وإدارة مخاطر وصولا إلى التخطيط والتقدير لتجنب الهنات وأي تقصير قد يُفسد عليهم حياتهم.

KIE Publication